

المختار ولد ئاگيه

مجمل تاريخ الموريتانيين

نحو كتابة سياق تاريخي مقبول



الطبعة الثانية [illegible]

قالوا عن الكتاب



الأخبار، 17 يوليو 2007:

كتاب جديد ... هو رحلة في مسارات التاريخ الموريتاني، وصدى لملحمة التعايش الضاربة الجذور على هذه الأرض بين مختلف المكونات الإثنية والثقافية للمجتمع الموريتاني

***



الأمل الجديد، 18 يوليو 2007:

... كتاب متوسط الحجم غزير الفائدة طريف في أسلوبه ومعالجته، كما أنه يفتح لأول مرة الباب أمام تفكير جديد في كتابة التاريخ الموريتاني

***



السفير، 20 يوليو 2007:

... ليوصل القارئ إلى نتيجة مؤداها أن الفئات البشرية التي تتعايش على نفس الرقعة ... ولا أدري أكان من قبيل الصدف تزامن نشر الكتاب مع انبعاث الحديث عن الوحدة الوطنية في ضوء موضوع المبعدين ورواسب الاسترقاق وغير ذلك

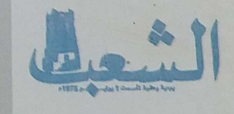
***



الفجر، 25 يوليو 2007:

إسهام رائع في المؤلات التاريخية الوطنية ... يدشن شكلا من أشكال كتابة التاريخ الموريتاني بكل موضوعية وبعيدا عن الانحياز والتحيز والقراءة بعين واحدة

***



الشعب، 12 سبتمبر 2007:

... وقد شكل الكتاب الذي أصدره مؤخرا الباحث والمهندس المختار ولد كاكيه محاولة فريدة رغم إيجازها في تقديم خطاطة متساوقة تملأ الفراغ المعرفي حول تاريخ الموريتانيين كما أحب أن يسميه.

ويتميز الكتاب الذي استفاد من مجمل الأعمال البحثية الكبيرة التي قيم بها في هذا المضمار بإضافات نوعية فريدة حول تاريخ الحراطين والمجموعات البولارية والسوننكية والولفية

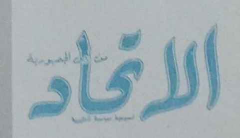
***



السراج، 26 مايو 2008:

إن تاريخ المجموعات والأعراق والشعوب التي تكون ما يعرف بالشعب الموريتاني اليوم بكل تداخلها التاريخي والاجتماعي والديني أوسع من أن يستوعبه كتيب بحجم البحث بصفحاته الخمس والعشرين بعد المائة

***



الاتحاد، 02 نوفمبر 2009:

كتاب ... يثير بعنوانه الكبير وحجمه الصغير زوبعة من التساؤل والاستغراب، إلا أنه يشع برؤية ثاقبة تكشف للقارئ مدى حب ووله الكاتب لمفهوم الوحدة الوطنية ذات المقومات المتعددة والنماذج التاريخية المعتبرة

بسم الله الرحمن الرحيم

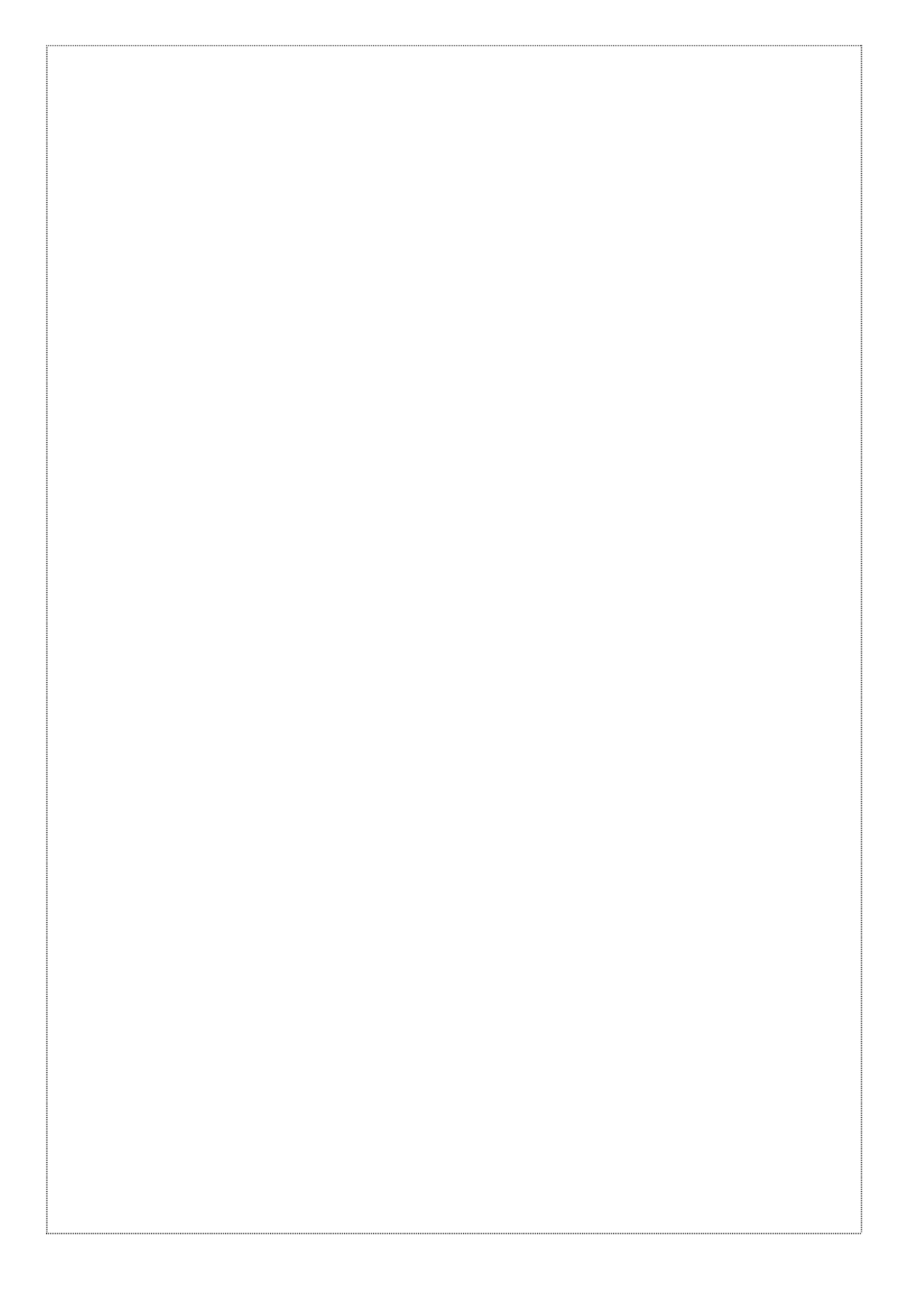
مجمل تاريخ الموريتانيين

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

تأليف: المختار ولد كاكيه

رقم الإيداع الوطني: 873 – 2007



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، محمد بن عبد الله، النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

فها هي ذي بين يدي القارئ الكريم الطبعة الثانية من كتابنا (مجمل تاريخ الموريتانيين). تتميز هذه الطبعة عن الأولى بأنها أتاحت فرصة إضافية لمراجعة هذا البحث وتعميقه في كثير من الجوانب.
يقول بعض الحكماء: "إن أمة لا تعرف تاريخها، لن تحسن صناعة مستقبلها"، وقد شاء الله أن تصدر الطبعة الأولى والموريتانيون خارجون لتوهم من رئاسيات 2007، وها هي ذي الطبعة الثانية مجهزة للصدور بإذن الله ونحن لازلنا لتونا تاركين خلف ظهورنا رئاسيات 2009:
أسأل الله أن يجعل عملنا هذا نافعا في تعريف مختلف فئات المجتمع الموريتاني بتواريخهم، ومرسخا في وجدانهم لقدم التآخي والتعايش بين مختلف مكونات هذا الشعب فوق رقعة الأرض التي نحن اليوم عليها كموريتانيين.
ولعل الله يبارك في مبلغ جهدنا هذا، فيكون له إسهام وذكر حسن ضمن الجهود التي يبذلها اليوم الخيرون من أبناء المجتمع، كل من مركزه، للدفع نحو بناء مستقبل كريم لهذا الشعب الكريم.
والله أسأله أن يوفقنا جميعا، في كل حين، لما يحبه ويرضاه.

المختار ولد كاكيه
نواكشوط بتاريخ 07 فبراير 2010



الفهرس

المحور الأول: التمهيد

المحور الثاني:
المسارات الذهنية لتاريخ الموريتانيين

المسار الأول: تاريخ البيضان الموريتانيين

المسار الثاني: تاريخ السوننكى الموريتانيين

المسار الثالث: تاريخ الهالبولارن الموريتانيين

المسار الرابع: تاريخ الولف الموريتانيين

المحور الثالث: ميلاد شعب الموريتانيين

تنبيه:

في نهاية الكتاب جدول
للتحويلات بين التاريخين
الهجري والميلادي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى (مع تعديل)

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.
أتوجه إلى الله تبارك وتعالى بهذا العمل وأسأله بفضله أن يجعله خالصا لوجهه وأن يتقبله ويجعله من العلم النافع إنه سميع مجيب.

أما بعد، فأقول ما قاله الإمام الشافعي حين انتهى من تأليف أحد كتبه:
"خذوا هذا الكتاب على خطأ كثير فيه".
، قالوا له يا أبا عبد الله أصلحه لنا، فأجاب: كيف وقد قال الله تعالى:
(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء:82).
إذا، فلينتظر القارئ الكريم في عملنا هذا البشري القاصر كثيرا من الاختلاف.

***

التعريف بهذا البحث :

إن الإشكال الذي حدا بنا إلى إنجاز هذا البحث وطرق مجال التأليف في التاريخ الموريتاني يتلخص في أننا لم نجد بعد من التآليف في هذا المجال ما يلبي تطلعات خاصة لدينا.
إننا كنا دائما نتطلع للحصول على كتاب واحد يجيب على تساؤلات كثيرة مهمة لدينا حول تاريخ أسلافنا:
نريد أن نعرف من هم؟
من أي قبائل وشعوب (الناس) هم؟ أرحامهم؟
منذ متى أعزهم الله بالإسلام؟
هل كانوا دائما على الأرض الموريتانية؟ أم أين كانوا ومن أين جاؤوا؟ ولماذ؟
ما ذا فعل الله بهم منذ مقامهم في هذه الأرض؟
ما ذا قدموا لإعمار هذه الأرض؟
أفراحهم؟ أتراحهم؟
محامدهم؟ ما أحبوه؟ ما نبذوه؟
...
وإذا أجيب لنا عن مثل هذه التساؤلات الجوهرية، نريد بعد ذلك أن نستخلص العبر من تاريخنا وأن نستشف منه ما لنا وما علينا تجاه الأرض التي وجدنا أنفسنا عليها: كموريتانيين.
تلك هي رؤيتنا لذلك الكتاب المثالي، الذي كنا دائما نتطلع للحصول عليه.
واليوم، وفقنا الله تبارك وتعالى لإنجاز هذا البحث، وها هو ذا بين يدي القارئ الكريم؛ لكن ليعلم القارئ جيدا أن هذا البحث ليس ذلك الكتاب الذي نتحدث عنه.

إن ضعف همتنا وقلة خبرتنا لا يزالان يقصران بنا عن إنجاز مثل ذلك المشروع الوطني الكبير لوحدنا.
عنوان هذه البحث هو "مجمل تاريخ الموريتانيين".
وفيه نستخدم تعبير "مجمل" للدلالة على أن همنا الأول هو محاولة تأسيس نوع من الرؤية الشمولية حول الحراك التاريخي قيد الدراسة، وما التفاصيل الكثيرة التي سيرى القارئ أننا نوردها أحيانا إلا بمثابة إجراء مرحلي لبلورة مثل تلك الرؤية.
أما استخدامنا لعبارة "تاريخ الموريتانيين"، بدل "تاريخ موريتانيا" مثلا، فذلك يعني لدينا أننا نسعى من خلال هذا البحث إلى إفادة الإنسان الموريتاني المعاصر حول تاريخ أسلافه، أكثر من أن يكون همنا هو كتابة تاريخ لرقعة الأرض المعروفة اليوم بموريتانيا.
وفي رؤيتنا للهدف المنشود وهو المشروع الوطني الكبير (كتابة سياق تاريخي مقبول)، نعنى بمطلب أن يكون السياق الذي سيُتوصل في النهاية إلى كتابته "مقبولا" أن يكون ذلك السياق متقبلا من طرف كل الموريتانيين، مع كوننا واقعيين بما فيه الكفاية لنرضى لبحثنا هذا بمستوى أن يسكت عنه ولا يعترض عليه.

***

محاور هذا البحث :

لقد اخترنا في هذا البحث الخروج عن المألوف قليلا، وانطلقنا فيه من نمذجة خاصة ومن أسلوب تبويب معين لتاريخ الموريتانيين، وفق ما رأينا أنه أكثر التصاقا بوجدان (الناس) الموريتانيين؛ والله تعالى هو الموفق لما فيه الرشاد:
1- نحن نرى أن تاريخ الموريتانيين منذ قديم الزمان هو عبارة عن نتيجة تفاعل مستمر بين حياة البيضان وحياة السودان فوق رقعة الأرض المعروفة اليوم بموريتانيا؛ ومفاهيم -مثل هذه- هي التي يدور حولها المحور الأول من محاور هذا البحث، تحت عنوان "التمهيد".
2- ثم نعتقد بعد ذلك أنه أدعى لنا لبلوغ المقصد عرض تاريخ الموريتانيين عبر مسارات ذهنية منفصلة، يحوى كل مسار على حدة تاريخ فئة اجتماعية معينة من فئات الموريتانيين؛ وذلك بدل عرض التواريخ المختلفة للفئات في سياق متحد، كما جرت به العادة. هذه الطريقة الخاصة في نمذجة تاريخ الموريتانيين هدفنا منها هو أن نريح أذهان بعض القراء من عناء الدخول في تفاصيل تواريخ فئات غير فئاتهم، إذ أننا نعلم من نفوسنا الضعيفة أنها تقصر بنا أحيانا عن الاعتناء بما ليس من "صميم شأننا". ذلك إذا لمصلحة القراء من "ذوي الاهتمام بالشأن الخاص". أما القراء من "ذوي الاهتمام بالشأن العام" فإنهم سيجدون –بإذن الله- في الاطلاع على تواريخ مختلف فئات المجتمع (المسارات) الصورة الإجمالية عن تاريخ الموريتانيين، التي يبحثون عنها.
إذ، لقد حاولنا الإحاطة بتاريخ مختلف فئات الموريتانيين عبر مسارات ذهنية أربعة: -
تاريخ البيضان الموريتانيين
تاريخ السوننكى الموريتانيين
تاريخ الهالبولارن الموريتانيين
تاريخ الولف الموريتانيين.

وقد ألحقنا بمسار "تاريخ البيضان الموريتانيين" مبحثين فرعيين وثيقي الصلة به: أولهما "تاريخ بني حسان قبل موريتانيا"، وثانيهما اخترنا له عنوان "المجموعة البيضانية: الحراطين".

هذه المسارات الأربعة مع الملحقات هي صميم المحور الثاني من هذا البحث، تحت عنوان "المسارات الذهنية لتاريخ الموريتانيين".

3- ثم في المحور الثالث والأخير من محاور هذا البحث يلتم شمل شتى فئات المجتمع لتعيش تحت مظلة واحدة هي "موريتانيا"، فيتذكرون "نماذج من تاريخهم المشترك"، ويخوضون تجربة مشتركة في مقاومة المحتل الفرنسي، ويتمكنون بفضل الله ومنّه ثم بالحنكة السياسية من إحراز النصر في النهاية، ويعلن عن استقلال موريتانيا يوم 28 نوفمبر 1960م.

عند ذلك يحين فعلا "ميلاد شعب الموريتانيين"، وهذا هو عنوان المحور الثالث.

***

مراجع هذا البحث :

لقد حاولنا طيلة السنوات الأخيرة أن نستفيد من تجارب مختلف المؤرخين الموريتانيين ومن كتابات متضلعي الباحثين في هذا المجال؛ فعلى سبيل المثال، بالكاد يوجد مرجع مطبوع لم تكن لنا من صاحبه استفادة في نواحي عديدة.

ونظرا إلى أنه يتعذر علينا ذكر أسماء كل من أمكننا الاستفادة منهم -ولقد وددنا ذلك-، فإننا سنذكر شخصين ممن كان لهما أثر علمي بالغ في ما توصل إليه هذا البحث من نتائج؛ ألا وهما: العلامة المختار ولد حامد رحمه الله، والدكتور محمد المختار ولد السعد حفظه الله.

فأما العلامة ولد حامد فإنه كانت بين أيدينا دائما نسخ من الأجزاء المطبوعة من موسوعته حياة موريتانيا، وكان هو المرجع الرئيس الذي ظلت أفكارنا طيلة فترة إعداد هذا البحث تدور عن وعي حول كتاباته، وربما بلا وعي أحيانا.

وأما الدكتور محمد المختار ولد السعد فقد كان بتواضعه الجم وعلمه العميق -نحسبه كذلك والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدا- بالتاريخ الموريتاني وإشكالاته، كان معلما لنا ومشجعا لنا باستمرار، منذ فترة طويلة وحتى أيام كتابة هذا البحث، حيث جمعتنا وإياه في المهجر بالإمارات هموم الوطن ماضيه ومستقبله.

ومع أن الصواب مما في هذا العمل الذي بين يدي القارئ هو أولا من الله تعالى ثم يحسب بعد ذلك في كثير من جوانبه للعلامة ولد حامد والدكتور ولد السعد ولكتابات وآراء غيرهما من المؤرخين والباحثين، فإنه لا شيء مما في هذا العمل من خطأ كثير هو محسوب على غير العبد الضعيف كاتبه؛ فما في هذا العمل من خطأ هو من نفسي ومن الشيطان.

***

ملامح المنهجية المتبعة :

لم توجه عملنا هذا في الحقيقة منهجية واعية مخصوصة من منهجيات البحث العلمي؛ لكننا إجمالا كنا نقوم بما يلي:

1- حاولنا قدر المستطاع الرجوع إلى المراجع الأصِيلة للمعلومات التاريخية، بمعنى أننا حرصنا على أن نعتمد لكل معلومة على مرجع أصِيل لها، يكون إما مرجعا معاصرا لها أو مرجعا ذا مصداقية كبيرة.
2- كنا إذا وجدنا إحالة في مرجع حديث تتبعنا تلك الإحالة إلى أصلها لنستنطق النص الأصلي من جديد.
3- تحاشينا مطلقا التسليم بما في الكتابات الحديثة للفضوليين من غير أبناء البلد وإخوانه، فكنا نستعين بالمراجع الأجنبية فقط من أجل أن تمدنا بإحالات على نقول أصِيلة؛ ذلك أن غالب ما تحويه المراجع الأجنبية من معلومات وآراء لم نطمئن إلى صحته ولم نأمن جانبه؛ ومع ذلك فلن يجرمنا شنآن بعض الحاقدين ممن كتبوا حول تاريخنا على أن لا نعدل مع المخلصين منهم، ونشكر لهم استفادتنا منهم.
4- إضافة إلى مختلف المراجع المحلية التي ذكرناها آنفا، حاولنا أن نجري مسحا دقيقا لما كتبه مؤرخو المسلمين وجغرافيوهم حول المنطقة، سواء من ذلك ما تعلق بالفضاء المغاربي أو ما تعلق بالفضاء الإفريقي، مستخدمين في ذلك وسائل البحث الإلكتروني أحيانا وغربلة محتويات المكتبات أحيانا أخرى.
5- اعتمدنا ولا زلنا نعتمد الطريقة في التأريخ التي أسسها المختار ولد حامد رحمه الله، حيث نصدق الناس في كل ما يتحدثون به عن أنفسهم ويتواتر لديهم عن عدولهم.
6- نهجنا مسلك الجمع بين دلالات مختلف المصادر التاريخية الموثوق بها: من روايات متواترة نصدقها، ونقول تاريخية بين أيدينا، وآراء لمختصين أرسخ منا قدما.
ولقد استعنا بالله وحاولنا أن لا نعجز حين كنا أحيانا نقف أمام ما يشبه التعارض بين معلومات بعض تلك المصادر وبين الإملاءات العامة للسياقات التاريخية التي ترد فيها، أو حين كنا نقف أمام نوع من تعارض معلومات تلك المصادر مع بعضها البعض. ونعتبر أننا –بفضل من الله- وفقنا توفيقا كبيرا، لما كنا إجمالا، كلما صادفنا ما يبدو وكأنه تعارض، تمكننا في النهاية من الجمع بين الروايات بطريقة نخرج بها بسياق تاريخي نرى أنه مقبولا. والله أعلم بحقيقة ما كان.

***

تنبيه مهم :

نود لفت انتباه القراء، خاصة المشتغلين منهم بالبحث الأكاديمي، الذين ربما رغبوا في الإحالة على بعض معلومات هذا البحث، إلى ما يلي:
1- كما سبق وأن أشرنا إليه لا ندعي أننا بهذا البحث نكون قد كتبنا للموريتانيين تاريخ بلادهم، وإنما حسبنا أننا بنينا على جهود من سبقونا، ومهدنا الطريق لمن يأتي بعدنا ليبني على جهدنا وجهود من سبقونا. وقد كان الهدف الرئيسي لعملنا هذا هو تذليل الصعاب نحو إنتاج تصور إجمالي لسياق متكامل ومقبول قدر الإمكان لتاريخ الموريتانيين، بحيث يستوعب ذلك السياق ويلائم بين الروايات التاريخية المتوفرة ويسد ثغرات التوثيق بالتصورات والفهوم الخاصة المناسبة. وقد أحوجنا ذلك –ولا شك- إلى الجراءة في طرح فرضيات كثيرة ضمن هذا البحث؛ لذلك فلا بد من تنبه القراء إلى أن بعضا مما تم تقريره في هذا البحث لا يعدو كونه بالمعايير العلمية الدقيقة فعلا بمثابة

فرضيات تحتاج إلى مزيد من الفحص. وبناء عليه، فإن ما لم تُقم عليه في ثنايا هذا البحث براهين واضحة، يبقى على الأصل من كونه "فرضيات تحت الفحص".

2- لم نقم بمقابلة المعلومات التي كنا في بعض الأحيان نستقيها من نسخ إلكترونية للكتب مع أصول مطبوعة؛ كما في حالة كتاب العبر لابن خلدون مثلا، ومثل كتب مختلف الجغرافيين العرب والرحالة. لذلك ربما كان من الجدير بالباحث العلمي أن يراجع بنفسه الأصول المطبوعة للكتب المذكورة، خاصة إذا لم بين أرقام الصفحات.

***

كلمات شكر :

في النهاية لا يسعني إلا أن أشكر شكرا جزيلا كل من أمدوني بمراجع مختلفة حول التاريخ الموريتاني، تعتبر في عداد النادر أحيانا. وأخص بالذكر منهم:

العلامة النَّ بن الصفي وتلامذة محظرته.

الأستاذ الباحث الطالب اخيار بن الشيخ ماء العينين.

كما أشكر كل من ساندوني من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث.

وعندي للصديق والزميل الحسين بن محنض شكر من نوع خاص، فقد ظل دائما يشركنا معه في نتائج بحوثه. وأطلعنا إطلاعات خاصة على محتويات كتابه قيد النشر (تاريخ بلاد شنقيط)؛ وهو يعلم أنه بذلك يوفر علينا كثيرا من الوقت والجهد في بحث مسائل سبق له وأن بحثها.

وجزا الله الجميع خيرا.

***

أسأل الله أن يكون هذا عملا خالصا لوجهه الكريم، وأن يجعله علما نافعا يسهم في إعمار الأرض، ويجعله في ميزان حسناتي. إنه سميع مجيب.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد: أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المختار ولد كاكيه

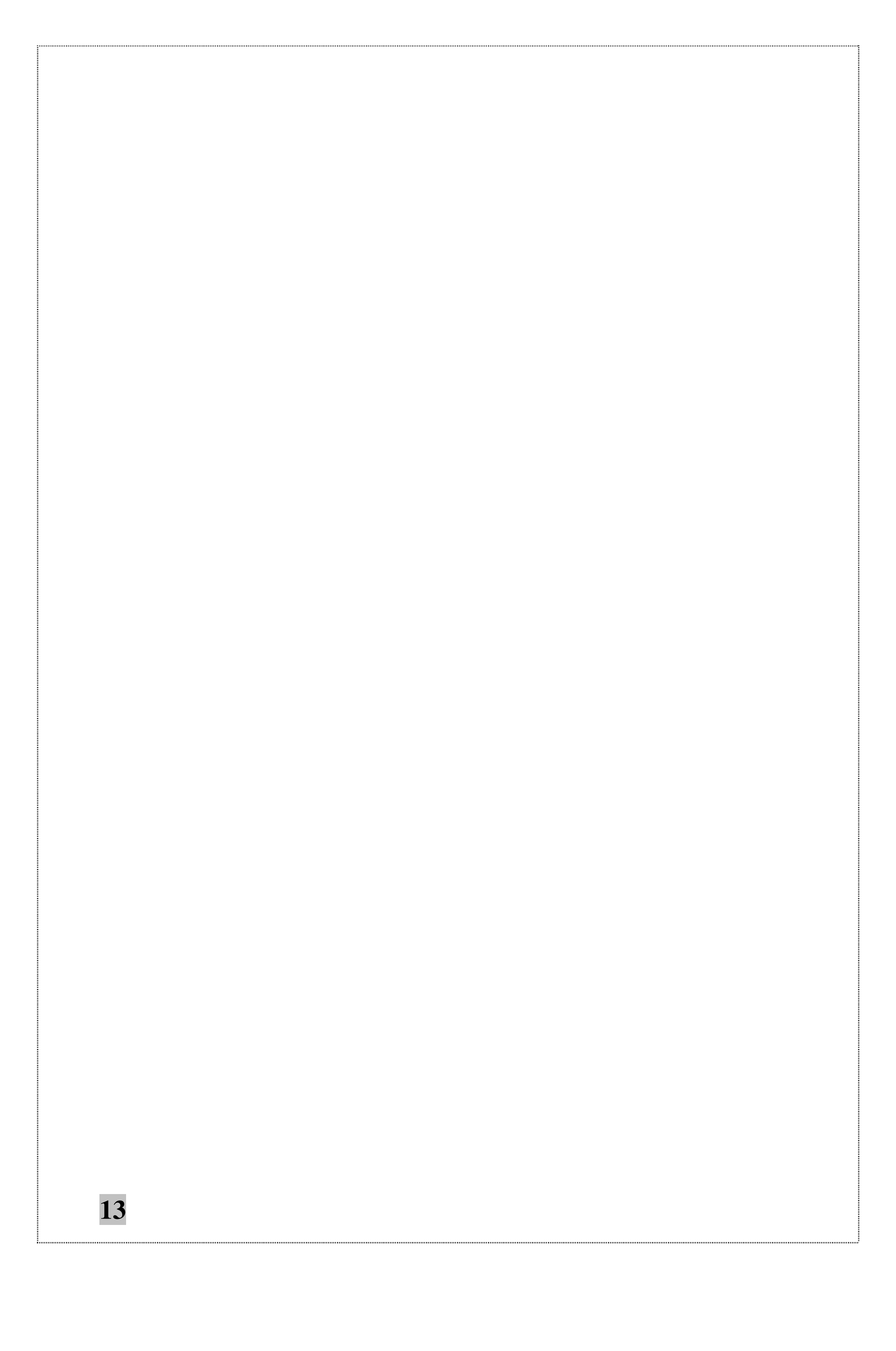
الشارقة 13 مايو 2007

مع تعديل بتاريخ 7 فبراير 2010



المحور الأول:

التمهـــــــــــــــيد



1 موريتانيا ملتقى البيضان والسودان من قديم الزمان

1.1 الدلالات القديمة لكلمتي بيضان وسودان

أقدم ما وجدناه في المصادر التاريخية من ذكر لكلمتي بيضان وسودان في سياقات مرتبطة بالشعوب التي توصف بها اليوم هو ما جاء في كتاب الرحالة ابن حوقل (صورة الأرض)، وابن حوقل هذا من أهل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي؛ نجد في كتابه في سياق حديثه عن القبائل الصنهاجية ما يلي:

بعد أن انتهى المؤلف من ذكر القبائل التي وصفها بأنها" قبائل صنهاجة الخُلّص" ، شرع في ذكر باقي القبائل الصنهاجية بقوله:" وأما بني تانماك ملوك تادمكة والقبائل المنسوبة إليهم. فيقال إن أصلهم سودان أبيضّت أبشارهم وألوانهم لقربهم إلى الشمال وبعدهم عن أرض كوكو. وهم لأمهاتهم من ولد حام" .

ثم بعد سرده لأسماء تلك القبائل يتابع ابن حوقل قائلا:" ويقول آخرون بل من صنهاجة أنفسهم. واحتج ملحق بني تانماك ببنوة حام بقول الكندي إن البيضان إذا تناسلوا في بلد السودان سبعة أبطن عادوا في سحنتهم وبسوادهم. وإذا توالد السودان في بلد البيضان سبعة أبطن عادوا في صورتهم وخلقهم من البياض والنقاء. وليس بمثل هذه الدعوى يتكلم على الأنساب" . اهـ.

إن تسمية السودان –كما استخدمها ابن حوقل – كان يقصد بها سكان جنوب الصحراء أو الزنج كما تسميهم المراجع القديمة.

ومن نص ابن حوقل أعلاه نفهم أن كلمة البيضان كانت قديما ترد بالارتباط مع المجال الجغرافي الذي كانت تشغله القبائل من ساكني الصحراء، وكلام ابن حوقل كان تحديد حول صنهاجة منهم[1].

لقد كان إطلاق مفهوم البيضان قديما وسيلة أولية، يميز بها شخص من خارج المنطقة[2] -كما في حالة ابن حوقل هنا- بين سكان الصحراء من ذوي البشرة الفاتحة وبين الشعوب جنوبيهم من ذوي البشرة الداكنة (السودان). كلمة البيضان في مثل هذا الاستخدام، نجدها بعد ذلك ترد عند الجغرافي البكري (القرن الخامس الهجري)، وعند الرحالة ابن بطوطة (القرن الثامن الهجري) .

---

[1] ملاحظة: كانت صنهاجة لذلك العهد تنتشر عبر مجال كبير متصل فوق أراضي موريتانيا ومالي والجزائر الحالية، وموقع تادمكة المذكور في نص ابن حوقل هو اليوم ضمن أراضي مالي.

[2] ملاحظة: أبناء المنطقة أنفسهم، لم يكونوا يستخدمون تسمية البيضان، لأن الصنهاجيين قديما كانت لهجتهم بربرية؛ والمتصور هو أنهم كانوا يسمون أنفسهم مباشرة بأسماء قبائلهم.

2.1 مفهوم البيضان اليوم

البيضاني -في عرف البيضان أنفسهم- هو كل من يتكلم الحسانية سجية؛ فكلمة البيضان اليوم عبارة عن مفهوم ثقافي.
وإلى هذه الدلالة لكلمة البيضان، يشير الأستاذ محمذن ولد باباه؛ وهو من ذوي التجربة الراسخة في قضايا الاجتماع البيضاني[3]؛ فيؤيد ما ذكرناه، ويفيد بالمزيد، حين يقول:
"البيضان –تطلق على سكان البلاد الشنجيطية من غير السودان، المتميزين بمعالم حضارية خاصة من لغة وهندام ونظام حياة وأخلاق واجتماعيات. ومع اختلاف أصولهم العرقية منهم ما يسمى بالاحراطين، أي الموالي والعبيد[4]، من أصل زنجي، ومنهم المجموعات الصنهاجية البربرية[5]. ومنهم قبائل العرب المعروفة، فانصهر الكل في بوتقة الحضارة الإسلامية العربية، فاتحد بحكم الدين واللغة والنظام الاجتماعي والشعور الوجداني والذوق الفني، ومدلول البيضان على هذا الأساس يطلق في النهاية على كل الناطقين باللهجة الحسانية من واد نون شمالا إلى نهر السنغال جنوبا إلى النيجر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا (اتراب البيضان)، فدلالة البيضان إذا مدلول حضاري بمعنى الكلمة الواسع لا يخضع للاعتبارات العرقية، ولا يقتصر على سكان دولة موريتانيا في حدودها السياسية المعترف بها دوليا" [6].

3.1 مفهوم السودان اليوم

---

[3] وصفه بمثل ذلك أستاذنا الدكتور محمد المختار ولد السعد. وكنا نسمع عن الأستاذ محمذن ولد باباه ولم نحظ بعد بلقائه. وقد اطلعنا على طول باع الأستاذ ولد باباه في مجال الاجتماع البيضاني من خلال تحقيقه لـ "نصوص من التاريخ الموريتاني للشيخ محمد اليدالي"، التي أخرجها في كتاب بنفس العنوان.

[4] قلت: يظهر أن المؤلف أنجز تحقيقه للكتاب وظاهرة الرق لا تزال حينئذ موجودة، ولم يُنتبه إلى تصحيح ذلك عند بدء الناشر في إخراج الكتاب للطباعة سنة 1990. ذلك أنه من المعلوم اليوم أن سنة 1981 شهدت إلغاء الدولة الموريتانية رسميا لظاهرة الرق معتمدة على اجتهادات شرعية؛ وبعد ذلك لم يعد هناك عبيد إلى جانب الحراطين.

[5] وصف الأستاذ ولد باباه للمجموعات الصنهاجية بأنها مجموعات بربرية، يمثل أحد رأيين في موضوع نسب القبائل الصنهاجية، ثانيهما أنهم عرب حميريون؛ وسنعود إلى تفصيل الكلام في مسألة نسب صنهاجة بإذن الله.

[6] ص 132، هامش 87. نصوص من التاريخ الموريتاني للشيخ محمد اليدالي. تحقيق: محمذن ولد باباه. بيت الحكمة. قرطاج. تونس. 1990.

بعد الاستخدام الأول لكلمة سودان وفق ما رأيناه عند ابن حوقل في القرن الرابع الهجري، جرى في بعض العصور استخدام تسمية السودان في دلالة خاصة ذات محامل إيجابية، فكانت دلالتها غالبا لا تنصرف تحديدا إلا إلى المسلمين من ذوي البشرة الداكنة، في حين كان يطلق على الكفار وصف الزنج أو المهملين أو أكلة لحوم البشر أو ما شابه ذلك؛ والحمد لله على نعمة الإسلام.

ولقد عرفت مؤلفات عدة استخدمت كلمة السودان في عناوينها، لعل أشهرها: "تاريخ السودان" للسعدي المتوفى سنة 1066هـ[7].

أما في عرف أهل اليوم فلا يحضرنا في ما بين أيدينا من مراجع ضبط دقيق لمفهوم كلمة سودان، وقد صارت كلمة "الأفارقة[8]" هي أكثر ما يعبر به عن ذوي البشرة الداكنة.

نحن نقترح أن يُوطد الاصطلاح باستخدام السودان كمفهوم ثقافي مقابل لمفهوم البيضان، فيعبر عن المجموعات الإفريقية المسلمة المساكنة أو المجاورة للبيضان في مجالاتهم، الذين لا يتخذون العربية ولا إحدى لهجاتها كلغة خطاب يومي بينهم، وليعبر عن غير المسلمين من الشعوب الإفريقية بالزنج، الذين يصبحون من السودان فور إسلامهم[9].

2 سكان موريتانيا في صدر الإسلام: بيضان وسودان

---

[7] ونتذكر هنا كذلك تأليفا لموسى كمرا يبدأ عنوانه بـ "المجموع النفيس .." وفي عنوانه أنه خاص بأخبار "السادات البيضانية والسودانية"، ويوحي استخدام المؤلف لكلمة السادات بأن دلالة السودان هنا ترد بكل محاملها الإيجابية. كما أن هناك كتاب "ميدان البحرين في النصيحة لعقلاء السوادين" لمحمد الأمين زوبري؛ وفيه محامل إيجابية لكلمة "السوادين".

[8] صار إطلاق كلمة "إفريقي" عند كثيرين بمثابة بديل رسمي عن التسميات الأخرى التي كانت شائعة قبله، مثل تسمية الزنج ذات المحامل السلبية، ومثل تسمية السودان التي نناقش هنا. ومن استخدامات كلمة "الإفريقي" العبارة الشائعة على الألسن: إن موريتانيا هي همزة الوصل بين العالمين العربي والإفريقي. مع أن اختيار تعبير "همزة الوصل" هنا ليس موفقا كثيرا، ولا يفسح المجال ولا يعبر عن التداخل الحاصل في موريتانيا نفسها بين هذين الفضائين.

[9] ملاحظة: هناك مواطنون موريتانيون من أصل سوداني تبنوا اللغة العربية إطارا لهويتهم الثقافية؛ هؤلاء هم عرب سودانيون (عرب مستعربة). فالموريتانيون –في مقترحنا– تكون لهم إذن ثلاث فضاءات ثقافية: عرب بيضان (عاربة ومستعربة)، عرب سودانيون (مستعربة)، سودان لم يستعربوا؛ ولم تبق في عداد الموريتانيين والحمد لله على نعمة الإسلام أية فئة غير مسلمة.

بعد دخول نور الإسلام إلى الأرض الموريتانية في القرن الثاني الهجري، كان أسلاف الموريتانيين متجاورين على رقعة ما يعرف اليوم بموريتانيا في صورة ترمز في كثير من النواحي لما عليه الحال اليوم.

لقد كان الجزء الشمالي من الأراضي الموريتانية عبارة عن مجال بيضاني كبير، يسكنه الصنهاجيون الملثمون، الذين سمة ملوكهم إنبية، وهم أول جيل من البيضان الموريتانيين. ويمثل مجالهم ذلك في ذلك العهد الجزء الجنوبي الغربي من فضاء صنهاجي أوسع[10].

وكان الجزء الجنوبي من أرض موريتانيا الحالية واقعا ضمن حدود مجالات زنجية، على النحو التالي:

أ) مجال صحراوي يسمى آوكار: فيه مدينة قُنبِ (كانت بموقع يسمى اليوم كمبي صالح بمنطقة الحوض)، وهي آنذاك عاصمة مملكة غانة الشهيرة. وكان ملوك غانة في ذلك العهد وكثير من قادتها من أحفاد الجرميين (الجرميون هم أغرمنطين أو الجرامنت)، نفهم ذلك من رواية عن الخوارزمي بأن ملوك غانة هم أغرمنطين. ومن ملوك غانة هؤلاء وقادتها ينحدر السوننكي، كما يقول السوننكى.

ب) مجال نهري -غربي إقليم آوكار- يمكن أن نسميه مجال سلى (بمصطلح اليوم على نهر السنغال قبالة مدينة سيليبابي)؛ سكان ذلك المجال زنوج، وفيهم لذلك العهد نواة سودانية مسلمة، منها ينحدر شعب الفلان، وأصل تلك النواة السودانية من بقايا جيش أنفذه ولاة المغرب إلى السودان وتقطعت به الأسباب هناك (كان ذلك في صدر القرن 2هـ)، وقد ذكرت بقايا هذا الجيش في رواية للجغرافي البكري (ق 5هـ). والفلان – الذين دار مسماهم بعد ذلك- تفرقوا في مختلف مناطق إفريقيا، ومنهم الذين بقوا وإلى اليوم في موريتانيا.

ثم دائما على النهر، إلى جهة الغرب من سلى، كان هناك مجال زنجي آخر قاعدته مدينة قديمة تسمى تكرور، كان سكانها لذلك العهد زنوج لا ندري لهم اسما محددا، لكن سيكون الملك فيهم لاحقا في قبيلة مقزارة منهم، وفقا للإدريسي (ق6هـ) وابن سعيد (ق7هـ). مقزارة هؤلاء، أهل مدينة تكرور، ثبت لدينا اليوم أنهم أسلاف للتكارير الموريتانيين. وينبغي أن نعلم أن المقزاريين في ذلك العهد القديم الذي نتحدث عنه كانوا يبسطون نفوذهم على جيرانهم أهل سلى (ومن ضمنهم النواة السودانية من أسلاف الفلان)، وكان أهل سلى (جميعهم) يتكلمون بنفس لغة المقزاريين. وتلك الوحدة اللغوية العريقة هي سبب ما نشأ بين الفلان والتكارير وإلى اليوم من علاقة أخوة وثيقة، حافظت عليها عبر التاريخ وحدتهم اللغوية هذه، ورسختها عبر الزمن بعد ذلك شمول نعمة الإسلام لهم. واليوم يجمع الفلان (أحفاد الفاتحين في سلى) والتكارير (أحفاد المقزاريين أهل تكرور) اسم مشترك هو اسم الهالبولارن، الذي هو مفهوم ثقافي، يعني حرفيا متكلمي البولارية.

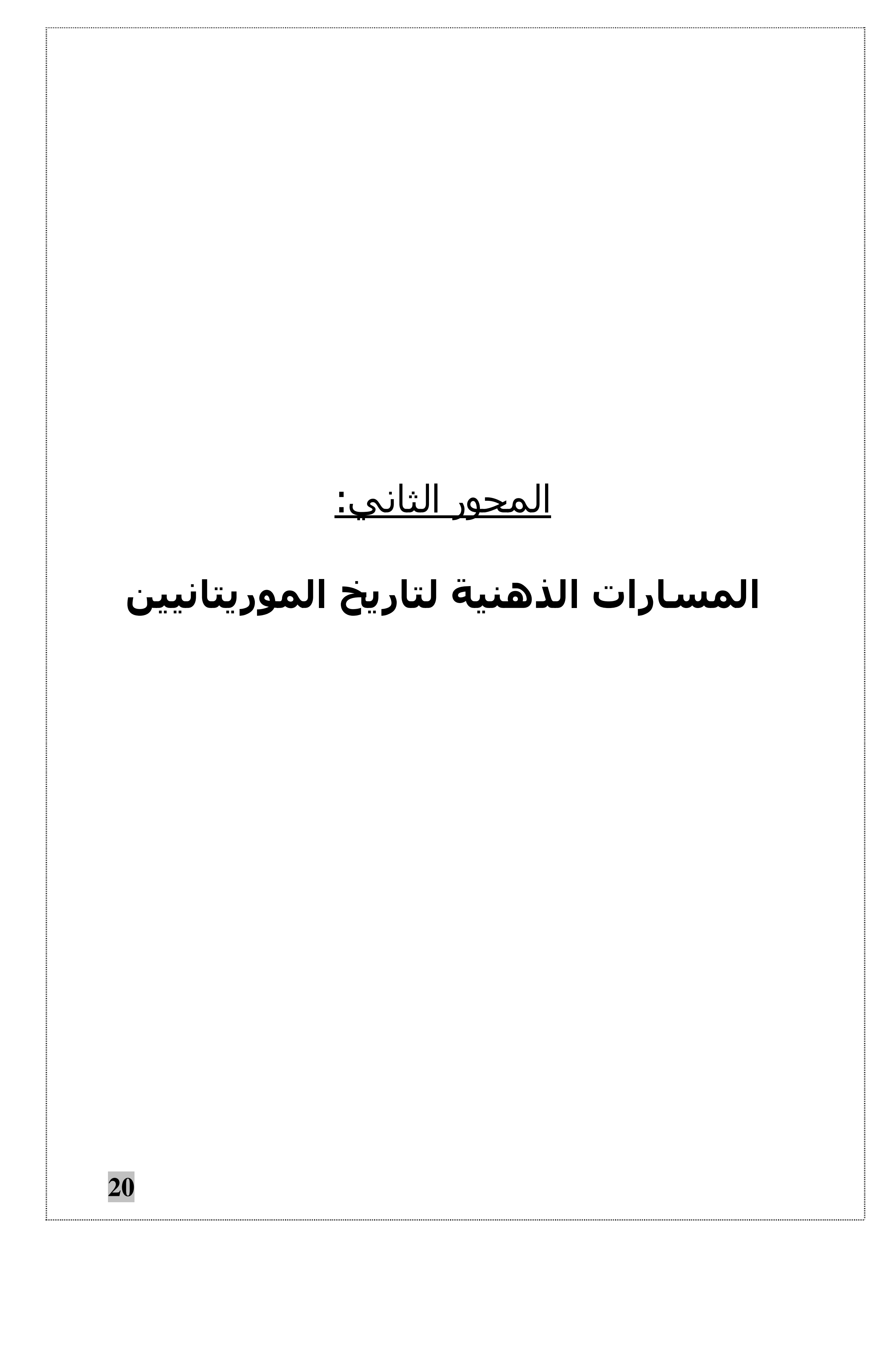
---

10 يسكن الملثمون من صنهاجة آنذاك ما يعبر عنه بمصطلح أهل اليوم بشمال موريتانيا والصحراء وجنوب المغرب وجنوب الجزائر وشمال مالي ومن ثم شرقا إلى أعماق الصحراء الكبرى؛ في حين يسكن باقي صنهاجة شمال ذلك، في كتل قروية متفرقة، ما بين الصحراء الكبرى والبحر الأبيض المتوسط.

ج) ثم إلى الغرب من تكرور مما يلي مصب النهر في المحيط مجال نهري ثالث يمكن أن نسميه مجال أَكْـنُـونْ (بكاف معقودة). وأكنون هؤلاء كما كان يصفهم جيرانهم الصنهاجيون، ولا زال هذا الوصف لهم قائما ومستخدما عند المتكلمين بالصنهاجية إلى يومنا هذا؛ هؤلاء إذن ومنذ ذلك العهد البعيد هم الذين ينحدر منهم الولف.

تلك كانت هي المجالات الموريتانية القديمة كما كان يعمرها في صدر الإسلام أسلاف الموريتانيين، وسيجد القارئ بإذن الله التفصيل والمزيد من التأصيل لما في هذه النبذة المختصرة في سياق المسارات الذهنية المختلفة التي سنسير وفقها في المحور الموالي.
والله أعلم، والله الموفق لما فيه السداد.





المحور الثاني:

المسارات الذهنية لتاريخ الموريتانيين



المسار الأول: تاريخ البيضان الموريتانيين

1 الجيل الأول: صنهاجة .. وملوكهم إنبية

1.1 بلاد إنبية

في صدر الإسلام كان يطلق على الصحراء الموريتانية اسم بلاد إنبية.
لقد كانت تسمية إنبية دائرة في صدر القرن الثاني الهجري، لما بدأ ولاة الأمويين على المغرب يسيرون غزوات إلى الصحراء. ففي مختصر كتاب فتوح البلدان للبلاذري ما نصه:
"*قال المشتري بن الأسود: غزوت بلاد إنبية من السوس الأقصى فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من رمل، يخرج النيل من تحته .. وبلاد إنبية من السوس الأقصى على مسيرة سبعين ليلة، في براري ومفازر* "[11].اهـ.
ومن ذلك يستدل على امتداد الفتوحات الإسلامية حتى مصب نهر السنغال.
ويورد اليعقوبي (القرن 4 هـ) في كتاب البلدان: " ... ومن سجلماسة لمن سلك متوجهاً إلى القبلة، يريد أرض السودان- من سائر بطون السودان- يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة، ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية، من صنهاجة، في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم، سنة فيهم، ولا يلبسون قمصاً، إنما يتشحون بثيابهم، ومعاشهم من الإبل، ليس لهم زرع، ولا طعام، ثم يصير إلى بلد يقال له غسط ..."اهـ.
قلت: غسط هي تحريف لـ "أودغست"، وهي قاعدة تجارية قديمة بناها الصنهاجيون، أطلالها اليوم في مكان يبعد نحو 40 كلم شمال مدينة تامشكط بالحوض الغربي.
ونحن نعتقد أن إنبية كانت سمة لملوك صنهاجة في صدر الإسلام[12]، ولذلك سميت مناطق نفوذهم ببلاد إنبية.

---

[11] نقلا عن المختار ولد حامد، موسوعة حياة موريتانيا، الجزء السياسي، ص 22، هامش 4.

[12] يعتقد بعض الباحثين، كالدكتور حماه الله ولد السالم، أن إنبية حرفت (قلت: أو عربت) بعد ذلك مع الزمن لتصير "الأنباط". وكان يتلقب بالأنباط أصحاب الشوكة في بعض قبائل صنهاجة في فترة ما بعد المرابطين، مما يؤيد بأثر رجعي صحة أن إنبية كانت في القديم سمة لملوك صنهاجة. فائدة: الأنباط هم اليوم بطن من بطون إدوعيش، يعرفون كذلك بـ"أصناكه البيظ".

2.1 صنهاجة

سكان بلاد إنبية كانوا كما رأينا من الصنهاجيين.
والصنهاجيون، نسبة إلى قبيلة صنهاجة، المشهور أنهم عرب من قبيلة حمير القحطانية.
وقد جزمت بعروبة صنهاجة المصادر التاريخية التي ذكرتهم بدء من القرن 3 هـ، كابن سلام (ت224هـ) وابن الكلبي (ت254هـ) والزبير بن بكار (ت256هـ)؛ وكالطبري (ت310هـ) والهمداني (ت334هـ).
وفي القرن الخامس الهجري نجد منازعة في عروبة صنهاجة عند ابن حزم (ت 456هـ)، الذي نسبهم إلى البربر.
وقد نقل عن الجرجاني (ت 467هـ) جزمه بعروبة صنهاجة، وهو لابن حزم معاصر.
ثم أتى من بعد ذلك السمعاني (ت562هـ) وابن الأثير (ت630هـ) وابن خلكان (ت681هـ) وابن جزي الكلبي (ت757هـ)، والمنقول عنهم عروبة صنهاجة.
ثم جاء ابن خلدون (ت808هـ)، فاعتمد رأي ابن حزم القائل بنفي عروبة صنهاجة وبنسبتهم إلى البربر. وعضد ابن خلدون هذا الرأي بما قاله من أن بعض نسابة البربر أكدوا له انتماء صنهاجة إليهم.
وهناك لسان الدين ابن الخطيب (ت775هـ)، وهو معاصر لابن خلدون وصديق له: المنقول عنه أنه جزم بعروبة صنهاجة؛ وكذلك فعل الفيروزابادي وهو متوفى سنة ت816هـ[13].
وربما ما كان أحد اليوم ليماري في عروبة صنهاجة لولا الوزن العلمي لأقوال مثل ابن حزم وابن خلدون، رغم مخالفتهما لقاعدة "أن الناس مصدقون في أنسابهم". ولقد تعقب قولي هذين الجهبذين عدد من العلماء والباحثين في البلد، مستندين إلى شتى البراهين العلمية والنقول التاريخية[14].
وإذا جاز لنا نحن بعد ذلك أن نضيف شيئا حول عروبة صنهاجة، فإننا سنعتبر القول بعروبتها هو الراجح لدينا؛ وعليه نفرع. ولا بد لنا مع ذلك أن نؤكد أنه حتى وإن جُزم بخطأ في رأيي ابن حزم وابن خلدون، فما ذلك إلا بمثابة زلات بسيطة مغمورة في بحار من العلم والموسوعية لدى هذين الجهبذين. والله أعلم.

***

أسلاف الصنهاجيين، وصلوا إلى البلاد الموريتانية قبل الإسلام، مخترقين مجالات البربر؛ فتبربرت ألسنتهم، لأن العربية في تلك العهود لم تكن مهمة بالنسبة لهم عكس ما صار عليه الأمر بعد ذلك فور إسلامهم.

***

[13] راجع تلك الأقوال في جزء "التاريخ السياسي"، من موسوعة المؤرخ المختار ولد حامد، ص 19.

[14] من المؤلفات التي دافعت عن عروبة صنهاجة (أو لمتونة منها تحديدا): قواطع البراهين في حميرية قادة المرابطين لمحمد الإغاثة الشنقيطي؛ رسالة تخرج ذكرت لنا للأستاذ لمرابط ولد محمد الأمين؛ ويعزى إلى الشيخ بداه ولد البوصيري رحمه الله بحث قديم في هذه المسألة.

بعد أن وصلت حركة الفتح الإسلامي إلى المغرب في القرن الأول الهجري، امتد نور الإسلام جنوبا لتبلغ دعوة الإسلام الصنهاجيين في بلاد إنبية في بدايات القرن 2 هـ.

***

عرف في تاريخ الصنهاجيين أنهم كانوا يجاهدون الوثنيين من أمم السودان المجاورين لهم.
وعرف عنهم كذلك أنهم كانوا يكسبون معاشهم من تسيير التجارة الصحراوية عبر مجالاتهم، وبنوا من أجل ذلك مدينة أوداغست المذكورة آنفا.

***

ولقد ظل تطبيق الصنهاجيين للإسلام في واقع حياتهم لفترة طويلة لا يسلم من كثير من البدع، وذلك حتى ظهرت فيهم دعوة المرابطين السنية.
قامت تلك الدعوة بين صفوف صنهاجة في صدر القرن الخامس الهجري، وقادت إلى قيام دولة المرابطين، التي نصر الله بها دينه وأعلى بها شأن الصنهاجيين هؤلاء.
ويناسب المقام هنا ذكر ما قاله الفقيه الكاتب أبو محمد بن حامد في الأمير يوسف بن تاشفين وبنيه من أمراء دولة المرابطين:

مـلك له شرف العلا من حمير وإذا انتموا صنهاجة فهمُ همُ
لمَّا حووا إحراز كل فضيـلة غلب الحياء عليهمُ فتلثمـوا

والتلثم، المشار إليه هنا، كان من عادة القبائل الصنهاجية التي تسكن الصحراء في تلك العهود؛ ولذلك كانوا يسمون أيضا بالملثمين[15].
وأمر دولة المرابطين (أو دولة الملثمين كما تسمى أحيانا) مشهور في التاريخ الإسلامي، وهو موضوعنا في مستقبل الصفحات.

***

وقبل الانتقال للحديث عن صنهاجة المرابطين نود أن نشير إلى أن الصنهاجيين–بعدما كان من تبربر ألسنتهم- صاروا بدء من عهد المرابطين يتخذون اللسان العربي الفصيح لغة للفكر؛ ولما وفدت عليهم قبائل بني حسان في القرن التاسع الهجري، صاروا –إلا قليلا منهم- يتخذون اللهجة العربية الحسانية لغة للتخاطب اليومي بينهم ويرون فيها قنطرة إلى الفصحى.

2 الجيل الثاني: المرابطون

1.2 قيام سلطة المرابطين في الصحراء

---

[15] فائدة: ما زالت عادة التلثم هذه إلى اليوم موجودة عند شعب التوارك، ومعظمهم ينحدر من أصول صنهاجية. والتوارك اليوم يتوزعون على عدة دول، فهم في الجزائر ومالي والنيجر وليبيا.

في سنة 429 هـ حج أمير الصنهاجيين يحي بن إبراهيم من قبيلة جدالة؛ وقد درج الباحثون المعاصرون على اعتبار حجته بداية للحديث عن دولة المرابطين.
وأخبار المرابطين ودولتهم مشتهرة ومدونة في مظانها من كتب التواريخ؛ لذلك سنقتصر من أخبارهم المشتهرة على قدر الحاجة، وسنركز بدلا من ذلك على الجوانب التي نعتقد أننا نضيف فيها جديدًا.

***

حج يحي بن إبراهيم، وأتى معه بعبد الله بن ياسين، وقامت دولة المرابطين على أرض موريتانيا، وأنطلق المرابطون ساعين للتمكين لدين الله.

***

أخضع المرابطون لسلطتهم أولا مختلف القبائل المجاورة[16].

---

[16] يروى من أخبار المرابطين أنهم اجتمعوا بداية في رباط لهم؛ حيث رباهم فيه عبد الله بن ياسين، وسعى في نمو أعدادهم حتى بلغوا عددا رأى معه أنهم صاروا مطالبين بالخروج من رباطهم للتمكين لدعوتهم الإصلاحية في من حولهم من القبائل. وقد اشتهر بين الباحثين والمؤرخين الجدل حول موقع ذلك الرباط. قال البعض إنه في جزيرة تيدرة، وهو القول الأشهر، والمرجح عند ولد حامد، ويؤيده قول ابن الخطيب بأن الرباط كان في جزيرة بالبحر الغربي (=المحيط). وقال البعض الآخر إن قول ابن خلدون بأن الرباط بجزيرة في النيل دال على كون الرباط بجزيرة بنهر السنغال، ويؤيد طرحهم هذا وجود رواية عند التكارير (وهم أحفاد أهل مدينة تكرور القديمة على نهر السنغال) تقول بأن الرباط كان في بلادهم ووجود رواية أخرى عند الولف تقول بأن الرباط كان بجزيرة اندر (سان لويس) قرب مصب النهر في المحيط. أقول: إن منهجي في البحث التاريخي هو منهج أقلد فيه المحدثين، فأبذل ما بوسعي للجمع ين الروايات قبل اللجوء إلى ترجيح بعضها على بعض. في هذا السياق أشير بداية إلى أننا نفهم من كلام البكري، حول وجود مسافة 6 أيام ما بين السودان على النهر وبداية مجالات جدالة، أن المنطقة التي تقع ما بين موضع انواكشوط الحالي تقريبا والنهر لم تكن أيام قيام دولة المرابطين عامرة: لا بجدالة، ولا بالسودان؛ هذه معلومة مهمة. بعد ذلك أود أن أجمل للقارئ رأيي حول مسألة الرباط فيما يلي: عبد الله بن ياسين ويحي بن إبراهيم وصلوا بداية إلى أرض جدالة، ولما لم يجدوا لدعوتهم المناصرة الكافية، رابطوا بمن ساندهم في جزيرة تيدرة المحاذية لأرض جدالة، فتربوا على يد ابن ياسين والتحق بهم من التحق من جدالة ومن كنار (وهم أحفاد ملوك أكنون القدماء .. راجع تاريخ الولف الموريتانيين)، كما كان معهم أبناء عمر، أبو بكر ويحيى، وهم لمتونيون لكن أمهم جدالية كما يروى. في تيدره سمى ابن ياسين تلامذته بالمرابطين، وسعى في تربيتهم وصلاح حالهم، لكن من دون أن يجهر لهم بالتفاصيل الكاملة لخطته الإصلاحية: ركز لهم على إصلاح الفرد ولم يتعرض لخطته لإصلاح المجتمع. ثم بعد أن لم يعد ابن ياسين يطمع لهم بالازدياد أكثر، سافر بهم عن أرض جدالة جنوبا إلى جزيرة عند مصب النهر، غير بعيد من مدينة صنغانة التي ذكرها البكري موالية لمصب النهر من الشرق. المرابطون اتصلوا من ثم بأكنون، وعملوا

***

ثم صعد جيش من المرابطين بالقيادة الدينية لمعلمهم عبد الله بن ياسين والقيادة العسكرية لأبي بكر بن عمر لتمهيد بلاد المغرب؛ وكانت لهم فتوحات استشهد خلالها المعلم عبد الله بن ياسين سنة 451هـ؛ واتخذ المرابطون مراكش عاصمة لهم، بدؤوا في تأسيسها سنة 462هـ.

***

وفي سنة 465هـ، قرر المرابطون اقتسام الأدوار بينهم: القائد أبوبكر بن عمر يعود إلى الصحراء ويكمل الجهاد على الجبهة الجنوبية؛ والقائد يوسف بن تاشفين يتابع التمكين لدين الله على الجبهة الشمالية.

أما أخبار يوسف بن تاشفين، فلا يكاد يجهلها اليوم أحد، يكفي ذكر انتصار المسلمين في الزلاقة يوم الجمعة 12 من رجب سنة 479هـ، وإنقاذ الأندلس -بعد أن كانت طوائف- من الوقوع في يد النصارى وتأخير سقوطها النهائي بأكثر من أربعة قرون.

وأما أبو بكر بن عمر فبعد أن رجع إلى الصحراء، وأصلح شأنها، اتجه لنشر الإسلام في مناطق جنوب الصحراء؛ وله في ذلك بعد الله تبارك وتعالى فضل كبير.

ولقد سار التاريخ المرابطي بدء من تقاسم الأدوار بين يوسف وأبي بكر في مسارين.

وما يهمنا في هذا البحث هو بالدرجة الأولى الشق من تاريخ المرابطين المرتبط بالصحراء الموريتانية بعد رجوع أبي بكر بن عمر إليها.

2.2 إمارة آل عمر المرابطية في الصحراء

على دعوتهم، وأعانهم في ذلك مرابطو كنار الذين في صفوفهم، والذين هم أصالة من أكنون ويتكلمون بلغتهم. فكان لابن ياسين وتلامذته هناك عند مصب النهر رباطهم الثاني. وفيه تربى المرابطون أكثر وعملوا على كسب وتربية مرابطين جدد من أكنون، فالتحق بهم من التحق بهم: من بيت أمد جنو ومن غيره (يجد القارئ تفاصيل هذه الفترة من تاريخ أكنون في مسار تاريخ الولف الموريتانيين). وفي مرحلة ثالثة، وكأننا نرى القبائل المجاورة وقد بدأت تسمع بأمرهم لكنها لا تلقي لهم بالا استهانة بشأنهم، وصل المرابطون إلى منطقة على النهر محاذية لمجالات سلطان تكرور، وهناك انضمت إليهم مجموعة معتبرة من أهل تكرور، بقيادة لبي بن وارجابي، الذي ذكره البكري ضمن قادة المرابطين؛ فقد كان الإسلام منتشرا في أراضي تكرور وأرض جيرانهم بسلى مذ أسلم ملكهم وارجابي نحوا من سنة 430هـ، كما سنبين بإذن الله في مسار تاريخ الهالبولان، وقد توفي وارجابي بن رابيس رحمه الله سنة 432هـ، كما قال البكري.

بعد ما رأى ابن ياسين أن جموع تلامذته قد ضمت ألفا من المرابطين الأشداء، جهر لهم بخطته الإصلاحية، ويروى أنه قال لهم ما معناه أن ألفا لا تغلب من قلة، وأن عليهم أن يخرجوا إلى أهل الصحراء ويسعوا في إصلاح أحوالهم. فكانت تلك بداية مرحلة التمكين لدولة المرابطين.

بذلك إذن يكون قد تأتى الجمع بين الروايات المختلفة حول موقع الرباط. والله أعلم بحقيقة ما كان.

رجع أبو بكر بن عمر إلى الصحراء سنة 465هـ، بعد أن تنازل ليوسف بن تاشفين عن القيادة العامة للمرابطين، فكانت عودته بداية لإمارة آل عمر المرابطية في الصحراء.
كانت لأبي بكر بن عمر رؤية خاصة في الطريقة التي سيمكن للإسلام بها في مجال الممالك السودانية جنوب الصحراء؛ لقد كان له أسلوب دعوي خاص، يرتكز على ما تميز به من خصال شخصية نادرة، كان لها عظيم الأثر في سلوك المرابطين في الصحراء ولمدة أجيال عديدة، ويرمز إلى ذلك اليوم ما يلقاه أبو بكر بن عمر من تقدير في نفوس الموريتانيين عموما والمنحدرين من المرابطين بشكل أخص.
ملامح أسلوب أبي بكر الدعوي الخاص يمكننا أن نتبينها من خلال ما يلي:

- تنازله عن ملك المغرب ليوسف بن تاشفين.
- عفوه عن متمردي جدالة منْ قتلوا أمير المرابطين يحي بن عمر؛ ثم اكتفائه بنفيهم بعيدا عن مجالات لمتونة، ولعل ذلك كان حماية لهم من فتك باقي لمتونة بهم طلبا للثأر[17].
- عقده علاقات مصاهرة مع ملوك من السودان فتزوج منهم[18] وزوج لبعضهم بناته[19].

إن أبا بكر –فيما يظهر- كان يعتبر الدعوة بالوسائل السلمية هي الأحكم والأنجع؛ وعلى ذلك النهج سار حتى استشهد سنة 468هـ[20] بسهم مسموم رماه به السودان. والشائع على الألسنة أنه مدفون في الموضع المعروف بمكِسم بو بكر في تكانت قرب مدينة المجرية الحالية.

***

بعد وفاة أبي بكر بن عمر، تولى الحكم في إمارة آل عمر المرابطية محمد بن يحي بن عمر[21].

---

[17] توجد اليوم في عداد التوارك (الطوارق) مجموعة تسمى إيجدالن نعتقد أنها تنحدر من متمردي جدالة الذين طردهم أبي بكر بن عمر عن سواحل المحيط، فانفصلوا بذلك عن المسالمين من جدالة الذين بقوا مجاورين للساحل الأطلسي. فائدة: أسس التوارك تنبكتو في نهاية القرن الخامس الهجري.

[18] اطلعنا في مصادر تاريخية على أن ابنه إبراهيم كانت أمه من السودان؛ ولدى مؤرخي الولف رواية بأن له ابنا اسمه أحمد، أمه فاطمة صل التكرورية.

[19] في بعض المراجع العامة أنه زوج إحدى بناته لعائل الماندينغ؛ ولم نفحص بعد مصدر هذه المعلومة من المصادر التاريخية الموثوقة. وهناك روايات عند الولف –سنفصل فيها لحينها– تقول إن أبا بكر زوج بنتين من بناته لأسلاف ملوكهم.

[20] تلك هي رواية المؤرخ ابن عذاري، التي هي أرجح الروايات لدينا، نظرا إلى أن ابن عذاري هذا اطلع على الكتاب المفقود لابن الصيرفي، من كان بمثابة المؤرخ الرسمي للدولة المرابطية. والرواية الثانية أن أبا بكر توفي سنة 480هـ؛ وهذه الرواية الثانية هي الأشهر.

[21] ذكر محمد بن يحي بن عمر عند ابن بسام في الذخيرة، في سياق ترجمته للإمام الحضرمي (ت489هـ).

استطاع محمد بعون من الله، ثم بمساعدة سلاطين السودان المجاورين، من تكرور وسلى ومعهم –ربما- غيرهم، الذين كانوا يشتركون مع القبائل الصنهاجية في الدعوة المرابطية؛ استطاع محمد أن يزيح الحكم الوثني في مدينة غانة عاصمة آوكار سنة 469هـ. ونصب للحكم في مدينة غانة قيادة مسلمة.
انطلقت القيادة في غانة فور إسلامها، داعية إلى الله شعوب السودان التي كانت تابعة لملكها، وساندها في ذلك مختلف سلاطين الممالك السودانية المسلمين. لقد أشربت قيادات السودان في ذلك العهد في ظل علاقتهم بإمارة آل عمر حب الدعوة إلى الإسلام ونشره؛ فكانت تلك بداية لترسخ الإسلام في كل الغرب الإفريقي.
توفي محمد بن يحي بن عمر –رحمه الله- سنة 480هـ.
كان يوسف بن تاشفين في الأندلس يرتب شؤونها، ويزيح ملوك الطوائف الضعفاء، خوفا على الأندلس من أن تقع في يد النصارى؛ ويظهر لنا أنه لما بلغته وفاة محمد بن يحي بن عمر، قرر أن الأسلم أن يبعث على الصحراء حاكما من عنده، فأسند أمرها إلى عم له، لم تذكر لنا المصادر التاريخية اسمه[22].

---

[22] وجود عم يوسف ابن تا شفين في الصحراء، الذي نعتبر دوره هناك نوعا من تولي شؤونها من طرف يوسف، نستنتجه بالجمع بين نصوص تاريخية عدة:

أولا – نص عبد الله بن بلكين أمير غرناطة من ملوك الطوائف:

"التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة. تصنيف: الأمير عبدالله بن بلكين بن باديس بن حبوس. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.الطبعة 1، 2006.

في الصفحة 204-205، يجري سرد أحداث "الاستيلاء (من طرف المرابطين) على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد" وفي الصفحة 205 تحديدا يرد أن اشبيلية "..كان دخولها يوم الأحد في 22 رجب سنة 484هـ في التاريخ الذي دُخلت فيه غرناطة بعدها بعام كامل" فهذا تأريخ لدخول غرناطة من نفس المرجع، وإثبات بأن الشاهد الآتي كان بعد وفاة أبي بكر بن عمر على آخر القولين في ذلك (468هـ و480هـ).

أما نص عبد الله، الأهم، فهو على الصفحة 206، حيث يذكر المؤلف أن" أمير المسلمين، بعد أن فتح الله له في هذا كله (قلت: أي إسقاط ملوك الطوائف)، أخذ في الانصراف إلى مروكش، وقد بلغ من آماله غايتها، وامتلأت يداه بالأموال، وقسم على أجناده بعضا من الفيء، وأهدى إلى الصحراوي **عمه** من تلك الذخائر. وأمرنا أن نستوطن أغمات، فأتيناها، ولقينا من أمير المسلمين كل جميل.. "اهـ. فهنا ذكر لعم يوسف.

ثانيا – نصوص الوزان:

وصف افريقيا، الحسن بن محمد الوزان الفاسي، ترجمة عن الفرنسية من طرف محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي،طبعة ثانية، 1983

هناك نصان.

3.2 عم يوسف في الصحراء .. والخطبة للعباسيين

رأينا أن عم يوسف بن تاشفين تولى شؤون الصحراء الموريتانية حاكما عليها من قبل يوسف. وبذلك عادت الصحراء الموريتانية إلى وضعها الأول من التبعية لسلطة المرابطين المركزية بالمغرب.

***

وقد كان سلاطين الممالك السودانية، غانة وتكرور وسلي وغيرهم، حلفاء للمرابطين، يشتركون معهم في الخطبة للخليفة العباسي، لكنهم من الناحية السياسية كانوا مستقلين عن سلطة المرابطين.

ولقد كان من أهم حلفاء المرابطين في مجالات الشعوب السودانية ملك زافون، الذي كانت قاعدة ملكه زافون–كما يرى المؤرخ المختار ولد حامدون رحمه الله- في المكان المعروف اليوم ب"جافنو"[23] من دولة مالي الحالية[24].

النص أ – عند الكلام عن السودان عموما في ص 160:

"وقد حكم هؤلاء الزنوج **يوسف** (قلت: ويقصد ابن تاشفين) ملك مراكش ومؤسسها.. ".

النص ب – عند الكلام عن مملكة مالي، في الصفحتين 164 و165:

وفي هذه البلاد قرية عظيمة تضم نحو ستة آلاف كانون وتسمى مالي (يقول المحقق إن المقصود هنا ربما يكون نياني) أطلق اسمها على سائر المملكة يسكنها الملك وحاشيته ويكثر في البلاد الحب واللحم والقطن. ويوجد في هذه القرية عدد كثير من الصناع والتجار المقيمين والطارئين الذين يعيرهم الملك عناية أكثر من غيرهم. والسكان أغنياء بفضل تجارتهم إذ يزودون غينيا وتنبكتو بكثير من المنتجات. ولهم مساجد كثيرة وأئمة وأساتذة يدرسون في المساجد لعدم وجود المدارس. وهم أكثر تحضرا وذكاء واعتبارا من بين جميع السود لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام، فحكمهم عند إسلامهم أكبر أمراء ليبيا وهو **عم ليوسف** ملك مراكش*. ودام الحكم في عقبه إلى عهد أسكيا، فأصبح آخرهم خاضعا له ومثقلا بالضرائب إلى حد أنه لا يستطيع إطعام أسرته".

ملاحظة عند (*): يعلق المحقق، من منظوره الخاص قائلا: "كان يوسف ابن تاشفين ابن عم لأبي بكر بن عمر اللمتوني فاتح بلاد السودان، الذي زوج إحدى بناته لعاهل المندينغو آنذاك".

ثالثا – وهناك نص في ابن حامدون الجزء السياسي، حول ملك زافون (جافنو بمالي) الذي مر بمراكش حاجا والموقف الذي يثبت تعظيم ملك الملثمين له، فذلك يمكن أن يفسر بامتداد نفوذ يوسف إلى حدود جافنو.

[23] المختار ولد حامد، الموسوعة، التاريخ السياسي، ص 33.

***

وقد كان المجال المرابطي الكبير في عهد يوسف ابن تاشفين يبدأ من أول بلاد الإفرنج النصارى شمالي الأندلس، ويشمل الأندلس والمغرب والصحراء الموريتانية، وكان حده الجنوبي بداية مجالات شعوب السودان المسلمة جنوبي الصحراء الموريتانية[25]. وبعد

---

[24] مما يثبت العلاقة المتميزة لملك زافون مع المرابطين، ما أورده ياقوت الحموي (ت626هـ) من أخبار ملك زافون، ونحن ننقل هنا نص الحموي عن المختار ابن حامدون (الموسوعة، الجزء السياسي، ص 34). يقول الحموي عن زافون، وعن ملكها، وعن علاقته بالملثمين، الذين يقصد بهم المرابطين:

" زافون – بعد الفاء واو ساكنة ونون– ولا ية واسعة في بلاد السودان المجاورة للمغرب ومتصلة ببلاد الملثمين. لهم ملك ذو قوة، و فيه منعة، وله حاضرة يسمونها زافون. وهو يرتحل، وينتجع مواقع الغيوث. وهكذا كان المسلمون (قلت: صوابه الملثمون فيما يبدو) قبل استيلائهم على بلاد المغرب ...

وورد هذا الملك في بعض الأعوام إلى المغرب حاجا على أمير الملثمين –ملك المغرب اللمتوني الملثم– فتلقاه أمير الملثمين راجلا، ولم ينزل ملك زافون له عن فرسه.

قال من رآه بمراكش يوم دخوله إليها: وكان رجلا طويلا، أسود اللون حالكه، متنقبا، أحمر بياض العينين كأنهما جمرتان، أصفر باطن الكفين كأنما صبغتا بالزعفران، عليه ثوب مقطوط، متلفع برداء أبيض، دخل مصرَ أمير المسلمين راكبا، وأمير المسلمين راجلا بين يديه".

وفي نظرنا أن تواضع أمير المرابطين بمراكش لملك زافون ومجاراته له في طباعه تكفيان للتأكيد على مدى قوة العلاقة التي تربط الطرفين.

وفي فقرة من كلام الحموي بيان لدور مهم كان يعترف به المرابطون لملك زافون:

" ... لهم ملك ذو قوة، و فيه منعة، وله حاضرة يسمونها زافون. وهو يرتحل، وينتجع مواقع الغيوث. وهكذا كان الملثمون قبل استيلائهم على بلاد المغرب. وملك الزافون أقوى منهم وأعرف بالملك.والملثمون يعترفون له بالفضل عليهم ويدينون له ويرتفعون إليه في الحكومات الكبار".

[25] ذلك هو ما نفهم من نص رسالة للقاضي ابن العربي إلى الخليفة المستظهر العباسي، سنة 491هـ، وفيه ما يلي: "... إلى أن صار جميع من في جهة المغرب على سعتها، وامتدادها له (=ليوسف بن تاشفين) طائعة، واجتمعت له بحمد الله، أنوارها، وأعلا منارها، على أكثر من ألفي منبر وخمسمائة منبر فإن طاعته ضاعفها الله، من أول بلاد الإفرنج، استأصل الله شأفتهم، ودمر جملتهم، إلى آخر بلاد السوس، مما يلي غانة، وهي بلاد معادن الذهب، والمسافة بين الحدين المذكورين، مسيرة خمسة أشهر، وله وقائع في جميع الشرك من الإفرنج، وغيرهم، ...". نقلنا ذلك عن الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش من كتابها "دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا – مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي"، طبعة دار الغرب الإسلامي، سنة 1988م/1408هـ، ص 186.

أن توطدت سيطرة المرابطين ونفوذهم في كل هذا المجال الكبير، بدأ الأمير يوسف بن تاشفين في ما حول سنة 485هـ يهتم بالحصول على تقليد من الخليفة العباسي في بغداد، ومن أجل ذلك خاطب المستظهر العباسي، الخليفة لعهده في بغداد، "وبعث إليه أبا عبد الله محمد بن العربي المعافري الإشبيلي، وولده القاضي أبا بكر، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب، فعقد له، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة، وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم[26]".
وقد كان رد الخليفة المستظهر الذي يؤكد تقليد يوسف بن تاشفين مؤرخا بالثاني عشر من رجب سنة 491هـ[27].

***

قام يوسف بن تاشفين بسك نقود مرابطية جديدة، تحمل لقبه (أمير المسلمين) واسم الخليفة العباسي؛ وحلت النقود الجديدة محل النقود القديمة التي كانت تحمل اسم أبي بكر بن عمر[28].

4.2 سقوط دولة المرابطين سنة 541هـ

ظلت الصحراء الموريتانية تابعة لحكم المرابطين حتى سقوط دولتهم بسقوط عاصمتها مراكش في يد الموحدين سنة 541هـ.

5.2 حول قبائل البيضان من أصل صنهاجي مرابطي

يطرد في المصادر التاريخية ورود عبارة: أن دولة المرابطين أسستها قبائل صنهاجة الملثمون من لمتونة وجدالة ومسوفة.

***

وتنتسب اليوم إلى المرابطين، من بين البيضان الموريتانيين، قبائل عديدة، حسبما ما جاء تفصيله في موسوعة حياة موريتانيا للمؤرخ المختار ولد حامد (جزء الجغرافيا)[29].

---

[26] تاريخ ابن خلدون.

[27] رسالة الرد المذكور نشرتها الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش في كتابها "دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا – مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي"، طبعة دار الغرب الإسلامي، سنة 1988م/1408هـ، ص 191 - 195.

[28] إن احتفاظ يوسف بن تاشفين باسم أبي بكر بن عمر منقوشا على النقود المرابطية، حتى بعد تنازل أبي بكر ليوسف عن السلطة المركزية بالمغرب، لدليل على عمق التقدير الذي كان يكنه يوسف لأبي بكر.

[29] موسوعة حياة موريتانيا للمختار ولد حامد، جزء الجغرافيا، بدءا من ص 30.

ونحن هنا نضع لبنات تأسيسية للربط بين تفاصيل "الموسوعة" ومعلومات المصادر التاريخية القديمة:
أ) أمثلة من المنتسبين إلى قبيلة لمتونة المرابطية:
إدوعيش، مسومة، تجكانت، النجامره، لمتونة، إجيجبه، إبدوكل (إيدوكلن) ، تندغة، ...
ب) أمثلة من المنتسبين إلى قبيلة جدالة المرابطية:
جدالة (في أكجوجت وفي البراكنه، حسب الموسوعة).
ج) أمثلة من المنتسبين إلى قبيلة مسوفة المرابطية:
مشظوف[30]، تفرله وتامكونه من بطون إيدوالحاج.

***

ومن الجدير بالذكر أن قبائل صنهاجة الملثمين لم تكن مقتصرة على لمتونة وجدالة ومسوفة ، بل كانت تلك هي فقط أشهرها أيام دولة المرابطين.
ومن المؤكد لدينا أن كثيرا من القبائل ذات النسب الصناكي (وصناكة هي قديما كلمة مرادفة لصنهاجة)[31]، إن لم تكن منتسبة لإحدى القبائل الرئيسية الثلاثة، فهي منتسبة لبعض القبائل المرابطية الصنهاجية الأخرى الكثيرة[32].

---

[30] المقصود هنا هي النواة الأولية التي تكون حولها مسمى مشظوف، وإلا فإن مشظوف شهدت عبر التاريخ انضمام عناصر مختلفة إليها: من حسانية (دليمية،..)، وصنهاجية مختلفة.

[31] تنبيه حول ما نعنيه بالنسب الصناكي: إن كلمة أصناكه صارت في البلاد الموريتانية في ما بعد مقدم بني حسان تعني القبائل الغارمة بشكل يكاد يكون حصريا؛ وتداخل استخدام مفهوم صناكه مع مفهوم اللحمة، فلم يعد هناك حد فاصل بين الاثنين. والأصل أن أصناكه هم مجموعات صنهاجية (=صناكية) النسب باغتتها السيطرة الحسانية، ولم تكن قد احتمت بسلاح ولا ألوح؛ بينما اللحمة هم مجموعات، قد تكون صنهاجية وقد تكون من أي أصل آخر، تكون القبيلة الحسانية قد استلحمتها في حروب لها وأصارتها أتباعا لها.

[32] لقد أورد ابن حوقل أسماء كثير من القبائل الصنهاجية، من خلص، وغير خلص، وخارجة (بمعنى أنهم من الخوارج) كما أسماها، ونحن نورد هنا نصه، مع التنبيه على أن بعضها فقط سيكون شارك في الحركة المرابطية. يقول ابن حوقل (ق4هـ)، وتصحيف الأسماء هنا وارد جدا: "... وقد أعدتُ بهذه الصفحة وما يتلوها ذكر ما وقع إلي من أسماء قبائل صنهاجة وبطونها وأفخاذها وعصبتهم. وهم: أنكيفو، وبني ماركسن، وبني كارديت، وبني سيغيت، وبني صالح، **وبني مسوفا (=مسوفة)**، وبني وارث، وبني توتك، وسرطة، وسططة، وترجة، ومداسة، **وبني لموتونا (=لمتونة)**، ومغرسة، وموننة، وفرية، ولمطة، وملوانة، وأنيكارت. وهذه قبائل صنهاجة الخُلّص.// وأما بني تانماك ملوك تادمكة والقبائل المنسوبة إليهم. فيقال إن أصلهم سودان أبيضّت أبشارهم وألوانهم لقربهم إلى الشمال وبعدهم عن أرض كوكو. وهم لأماتهم من ولد حام: وهندزه، ومكيتة،

وكلماتة، وإنكرياغن، وكركة، وإيللغموتن، وكطوطاوة، وسكرة، وبلغلاغة، وإنديمن، وهاكتة، وإمزيرن، وإيمزواغن، وكيلتموتى، وكيلمكزن، وكيلفروك، **وفدالة** (= **جدالة!**)، وكلساندت، وكيل دفر، وبني بزار، وإيمكدرن، وإيكوفان، وإنككلن، وإسطافن، وإيفكرن.// ومن قبائل صنهاجة الخارجة... وبني عمر زيري وقبيلته يسوة: وإيفرين، وإيمكيتن، وإيتوتين، وإيتروين، وإيوازين، وأسوالة، وبني كسيلة، وبني ورتاف، وإيزقارن، وتلكاتة.

3 الجيل الثالث: من سقوط دولة المرابطين إلى مقدم بني حسان

1.3 بناء المدن

مع سقوط دولة المرابطين، رجع المرابطون ممن كانوا في المغرب والأندلس؛ ولاشك أن التجربة المرابطية كانت قد أثرت حياتهم في كثير من النواحي: الدينية، الحضارية، اللغوية، الأدبية. ولا أدل على ذلك من انتشار ظاهرة بناء المدن مباشرة بعد التجربة المرابطية.
بنيت الحواضر في القرن 6هـ: تيشيت، تنيقي، ودان. وبعد ذلك بفترة بنيت حواضر أخرى: ولاته، شنقيط.
بنى تلك الحواضر المرابطون وبعض من أتى معهم من مهاجرين جدد.

2.3 وافدون من أهل اللسان العربي

يشير المؤرخ المختار ولد حامد رحمه الله إلى أن مجموعات عدة من الشرفاء الأدارسة لجأت إلى الصحراء (الموريتانية) على إثر اضطهاد موسى بن أبي العافية لهم في المغرب في القرن الرابع الهجري. ولعل هذا الفوج الأول من الأدارسة ممن وصلوا إلى البلاد الموريتانية قد انماع في القبائل الصنهاجية، إذ لم نجد للأدارسة ذكرا فيما حوته المصادر التاريخية حول دولة المرابطين؛ على ما عرف به الصنهاجيون منذ أمد بعيد من تقدير خاص لآل بيته صلى الله عليه وسلم[33].
وهناك وافدون آخرون من الأدارسة، ينتسب إليه كثير من القبائل البيضانية؛ لكن وصولهم إلى الصحراء (الموريتانية) كان بعد ذلك، في أزمنة متفاوتة.

***

نبدأ الآن مع القبائل التي وفدت على الصحراء الموريتانية في أيام دولة المرابطين.
"كان الإمام الحضرمي في مدينة أغمات عند ما قرر أبو بكر بن عمر التنازل عن المغرب ليوسف بن تاشفين والعودة إلى الصحراء، فندبه أبو بكر إلى التوجه معه وولاه القضاء"[34]. ولقد كان الإمام الحضرمي المرادي[35] (ت489هـ) من بعد وفاة أبي بكر بن

---

[33] ملاحظة: هناك حالة خاصة هي بنو صالح الحسنيين أبناء عمومة الأدراسة، الذين أصبحوا في فترة ما بعد المرابطين ملوكا لغانة. ومن الجدير بالذكر أن ابن حوقل (ق4هـ) كان قد ذكر مسمى"بني صالح" في عداد صنهاجة الخلص (أي من غير المختلطين بالسودان)، فلعلهم هم بنو صالح الحسينيين، كانوا قد توطنوا آنذاك مع الصنهاجيين، ليسهل عليهم نسبهم الشريف أن يصبحوا بعد ذلك ملوك غانة. والله أعلم.

[34] نقلا عن التاريخ السياسي، المختار ولد حامد، ص 51.

عمر معلما في مجلس الأمير محمد بن يحي بن عمر، وله ألف كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة". وإلى الإمام الحضرمي، الذي يظن أنه حسيني وهو من أهل اللسان العربي تأكيدا، تنتسب اليوم عدة مجموعات بيضانية[36].
وكان أيضا ممن وفد مع أبي بكر بن عمر عند رجوعه من المغرب إلى الصحراء سنة 465هـ أجداد القبائل الموريتانية الثلاثة: المدلش، وتركز، وإيدغزينبو[37]. وأنساب هذه القبائل –حسب ولد حامد- تشير إلى أنهم أصالة من أهل اللسان العربي: المدلش أمويون، إيدغزينبو مدلش أو زينبيون، تركز من أحفاد عقبة بن نافع.

***

ثم تأتي الفترة التي ما بين سقوط دولة المرابطين ووصول بني حسان، وفيها استقبلت الصحراء الموريتانية كثيرا من الوافدين الجدد: فرادى، ومجموعات.
ومثل هؤلاء الوافدون الجدد نواة لتشكل قبائل جديدة. ومن أمثلة القبائل البيضانية الذين وصل أسلافهم إلى موريتانيا في ذلك العهد: إيدواعلي(علويون)، لغلال (بكريون)، لمحاجيب (فهريون من أحفاد عقبة بن نافع)، كنته (فهريون من أحفاد عقبة بن نافع)، تا كاط (أنصار)، بارتيل (أنصار)، ....

***

والآن نأتي في هذا السياق إلى فوج ثان من الأدارسة، وصلوا إلى الصحراء الموريتانية في هذه الفترة، فمن أمثلة القبائل البيضانية المنحدرة من هذا الفوج من الأدارسة، ممن نعتقد أن تسمية قبائلهم دارت في هذه الفترة:

---

[35] محمد بن الحسن الحضرمي يعرف: بالمرادي يكنى: أبا بكر. قدم الاندلس وأخذ عنه أهلها. روى عنه أبو الحسن المقرئ وقال: كان رجلاً نبيهاً عالماً بالفقه وإماماً في أصول الدين وله في ذلك تواليف حسان مفيدة. وكان مع ذلك ذا حظٍّ وافر من البلاغة والفصاحة. وقال: وتوفي بالصحراء ولا أقف على تاريخ وفاته. وقال أبو العباس الكناني: دخل قرطبة في سنة سبع وثمانين وأربع مائة (=487هـ) رجلٌ من القرويين اسمه محمد بن الحسن الحضرمي يكنى: أبا بكر ويشتهر بالمرادي. له نهوض في علم الاعتقادات والأصول. ومشاركة في الأدب وقرض الشعر اختلف على أبي مروان بن سراج في سماع التبصرة لمكي. حدثني مشافهة بكتاب فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي عن أبي القاسم عبد الرحمن بن عمر بن محمد التميمي القصديري عن أبي بكر محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر التميمي عن أبي محمد إسماعيل بن محمد بن عبدوس النيسابوري عن الثعالبي. وكتب إلي القاضي أبو الفضل بخطه يذكر أنه توفي بمدينة ازكد بصحراء المغرب وهو قاض بها سنة تسع وثمانين وأربع مائة (=489هـ).(نقلا عن ابن بشكوال – الصلة – الجزء 3).

[36] راجع: المختار ولد حامد، موسوعة حياة موريتانيا، الجغرافيا، ص 85.

[37] المصدر: المختار ولد حامد، موسوعة حياة موريتانيا، التاريخ السياسي، ص 51.

بنو عبد المؤمن (شرفاء تيشيت وجدهم عبد المؤمن هو أول من بدأ ببناء تيشيت)، أبناء الشريف أبي بزولة، الكلاكمه، الركيبات، ...

***

ونريد هنا أن نقول أنه مادامت أنساب كل هؤلاء الوافدين الجدد تدل على أنهم أصالة من أهل اللسان العربي، فلا بد أنهم كان لهم دور معتبر في الدفع بعجلة التعرب في البلاد؛ الأمر الذي لم ينبر بعد أي من الباحثين –حسب اطلاعنا- لدراسته.

3.3 التركيبة الاجتماعية لمجتمع البيضان في جيله الثالث

لقد كانت الدعوة المرابطية في بدايتها دعوة علمية – عسكرية، فلقد كان يرأس النشاط العلمي والتعليمي عبد الله بن ياسين، ويرأس النشاط العسكري أمراء صنهاجة.
وتؤكد الروايات المحلية، ويؤكد الواقع لدى الشعوب السودانية المجاورة ممن شاركوا في الدعوة المرابطية، أن أبا بكر بن عمر لا بد أن يكون بعد رجوعه إلى الصحراء سنة 465هـ قد أنشأ نظاما اجتماعيا قسم فيه المرابطين إلى ثلاث مجموعات:
مجموعة ذات اهتمامات علمية،
مجموعة ذات اهتمامات عسكرية،
مجموعة ملحقة تنمي المال لخدمة أنشطة المجموعتين الأُوليتين العلمية والعسكرية.
فالمجموعة الأولى هي الأصل الذي نتج عنه من نسميهم بالقبائل من أهل العلم.
والمجموعة الثانية هي أصل من نسميهم بالقبائل من أهل العسكرة.
وأما المجموعة الثالثة فهي أصل من نسميهم بأهل التنمية.

***

في الجيل من البيضان الذي أعقب سقوط دولة المرابطين، كان مجتمع القبائل المرابطية مصنفا على النحو التالي:

- قبائل الاشتغال بالعلم[38]، وتحت هذا الصنف تندرج قبائل من أصل صنهاجي، وكل القبائل الناشئة من أحفاد الوافدين أيام المرابطين ومن بعدهم. ومن نماذج هذا الصنف: المدلش، تندغه، إيدو الحاج، تجكانت، إيدوعلي، لغلال، شرفاء تيشيت، ...الخ.
- قبائل الاشتغال بالعسكرة، ولم يكن يشتغل بالعسكرة إلا قبائل من أصل صنهاجي، و إلا بعض المنحدرين من البافور. بعض تلك القبائل كان يتسمى بالأنباط تيامنا باسم ملوك صنهاجة القدماء إنبية، الذين تطور اسمهم إلى الأنباط. ومن نماذج هذا الصنف: إدوعيش، انكادس، انيرزيك، بيلـكه،...الخ.
- قبائل مزدوجة الهوية: فيها منخرطون في الحياة العلمية و يوصفون بأنهم زوايا، وفيها أهل عسكرة. وهذا الصنف من القبائل استمر في تطبيق نوع من

[38] هذه هي القبائل التي أصبحت في فترة لاحقة تسمى بالزوايا.

النموذج المصغر لنظام المرابطين الأصلي، فكان يطبق نظام تقسيم الأدوار داخل صفوفه. وأشهر مثال للقبائل المرابطية مزدوجة الهوية هو قبيلة ابدوكل.

- قبائل الاشتغال بالتنمية[39]: وأصلهم ممن كانت وظيفة أسلافهم في عهد إمارة آل عمر هي تنمية المداخيل للإمارة، واستمروا مع الزمن بعد ذلك في أداء مثل ذلك الدور لصالحهم الخاص، فكان فيهم التجار والمشتغلون بالتنمية الحيوانية وغير ذلك. وهذه القبائل كانت من ذوي الأصل الصنهاجي.
- و كانت هناك فئات حرفية متعددة من أصول مختلطة (صنهاجية، سودانية، بافورية، وغيرها)، منهم على سبيل المثال: المشتغلون بمهنة الصيد البحري، والمشتغلون بالصناعات اليدوية. ومنهم الزفانون كذلك، عرفوا في الصنهاجية بـ"آقَّــوَنْ"، وعرفوا لاحقا في الحسانية بـ" إيقَّاونْ". وهؤلاء الزفانون نتصور أنهم كان أكثر من يطرب لهم آنذاك هم أهل العسكرة[40].
- وهناك في المجتمع "تكِرنْ"، بمعنى الأرقاء الذين يتبعون لمختلف الطوائف من أهل العلم وأهل العسكرة.
- كما أنه كان هناك "هرْضَنَنْ" بمعنى الموالي المعتقين يوالون طوائف مختلفة كذلك؛ وهذه التسمية هي التي حرفت بعد مقدم بني حسان إلى "الحراطين".

4.3 المدلش أصل الزوايا

المجلس العلمي لإبراهيم الأموي:

كان إبراهيم الأموي أحد العلماء ممن وفدوا مع أبي بكر بن عمر عند عودته النهائية إلى الصحراء سنة 465هـ. ولقد أسس إبراهيم الأموي مجلسا قارا لتدريس العلم، فيما كان زميله الإمام الحضرمي الذي وفد معه في نفس الفترة يصحب أمراء المرابطين في غزواتهم.

كان هذا المجلس العلمي لإبراهيم الأموي هو أصل الكلمة "المدلش" التي آلت مع الزمن إلى مسمى قبلي لأحفاد إبراهيم الأموي.

ولا بد هنا من محاولة تفسير وجود قبر جد المدلش في "امبلطون" في أقصى الجنوب الغربي الموريتاني، كما هو مشتهر.

نحن نعتقد أن الأمير أبا بكر بن عمر أسند إلى إبراهيم الأموي وتلامذته السهر على تعليم المجموعات التي كانت تشغل منطقة الغرب الموريتاني في ذلك العهد، والتي كانت آنذاك حديثة الانسجام مع الدعوة المرابطية. مثل: جدالة وأحلافها، كِنار، وبافور، ...الخ.

***

---

[39] هؤلاء هم أصل كثير ممن صاروا في فترة ما بعد دخول بني حسان إلى موريتانيا يعرفون بـ "اصناكه".

[40] في موروث الشعر الحساني وزن أو تلحين يسمى إنكادس؛ وانكادس هذه إحدى قبائل الأنباط في القبله ممن كانوا من أهل العسكرة.

أصل الزوايا:

ثم يعقب ذلك تطور تاريخي مهم: تحول النشاط العلمي في حي المدلش من وصفه بمجلس العلم إلى وصف المدلش بأنهم "قبيلة زاوية" أو "قبيلة زوايا". ومما يروى بشأن ذلك أن المسرفين على أنفسهم كانوا يأتون إلى المدلش، فيتوبون بين أيدي علمائهم، ويعكفون على التعلم في زاوية من زوايا مجلسهم.

والمهم أن قبيلة المدلش صارت توصف بأنها قبيلة زوايا، وأنه على إثر نجاح نموذجها العلمي، صارت القبائل المرابطية من أهل العلم تحذو حذو نموذجها ذلك.

ولعل ذلك هو معنى قول الناس "إن المدلش هم أصل الزوايا".

5.3 سرد لبعض الأحداث التاريخية في عهد هذا الجيل الثالث

توصف الفترة ما بين سقوط دولة المرابطين سنة 541هـ ومقدم بني حسان في القرن التاسع الهجري في نظر كثير من الباحثين بفترة فراغ وثائقي، إذ تعتبر المعلومات حول ما كان يجري على الأرض الموريتانية في هذه الفترة شحيحة على العموم. ومع ذلك سنحاول أن نتلمس طريقنا بما تيسر من تفاصيل.

***

نجد عند المختار ولد حامد معلومة مهمة، وهي أنه منذ أواخر القرن السابع الهجري، كانت قبائل صنهاجة (= التي من أهل الاشتغال بالعسكرة) تتقاسم السلطة في الصحراء الموريتانية على النحو التالي:

في الشمال: ابدوكل؛ في آدرار: إيديشلي؛ في تكانت والرقيبه: الأنباط (والمراد بهم إدوعيش)؛ في القبلة: انيرزيك.

***

ونعلم في سياق القرن 7هـ كذلك أنه لما قامت في صدر هذا القرن مملكة مالي الشهيرة، صار جزء كبير من جنوب البلاد تابعا لمالي؛ وقد بسطت مملكة مالي سيطرتها على ولاته حوالي 630هـ.

***

ودائما في سياق القرن السابع الهجري. في هذا القرن بدأت طلائع الحسانيين تفد على البلاد:

- جاء أبهنضام، من بني عبد الله بن حسان، قادما من تارودانت من منطقة السوس بالمغرب. وهذا الرجل هو الذي تشكلت من عقبه قبيلة اليعقوبيين المعروفة اليوم (إديقب، وأهل بارك الله). والذي تشير إليه قرائن الأحوال، أن بني عبد الله بن حسان يومها، كانوا قد انزووا عن بقية بني عمومتهم من الحسانيين، واتجهوا أكثر نحو ما سيعرف لاحقا بالشيم الزاوية[41].

[41] . تنبيه: لابد هنا من الإشارة إلى أن ابهنضام كان أحد خمسة رجال قدموا سويا من تارودانت وأسسوا قريبا من هذه الفترة تحالف تشمشه، القبيلة البيضانية المعروفة اليوم.

- جاءت فرقة من البرابيش، وتموقعت أولا في أرض القِبله.

ولا يفوتنا هنا التنبيه على أن هؤلاء الوافدين الجدد ازداد بهم حجم الموجودين في البلاد من أهل اللسان العربي، ونتصور أنهم أسهموا بنصيب في الدفع بعجلة التعرب في البلاد.

***

ثم يأتي القرن 8هـ، ولا تحضرنا فيه معلومات تهم سياقنا كثيرا؛ بلى لعل من المهم ذكره هنا أن الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة مر بولاته في بحر هذا القرن إبان رحلة قادته إلى بلاد السودان، وتحدث عن ولاته قليلا.

***

أما في القرن 9هـ؛ فلو ألقينا في مستهل هذا القرن نظرة من داخل الأرض الموريتانية على الركن الشمالي الشرقي من البلاد، قريبا من ملتقى الحدود الدولية الحديثة لكل من الجزائر والمغرب والصحراء الغربية، لرأينا هناك مجموعات حربية مختلفة من عساكر بني حسان، تتحين الفرصة للدخول إلى موريتانيا من تلك الناحية.

ومن أجل معرفة منشئ تواجد بني حسان في مستهل القرن التاسع الهجري هناك، والأسباب التي دفعتهم في هذه الفترة إلى الاهتمام بالدخول إلى الأراضي الموريتانية، ترجى مراجعة الملحق؛ ففي الملحق إجابة عن ذلك، وهو -نظرا للدور التاريخي المهم الذي لعبته القبائل الحسانية في تاريخ البلد- عبارة عن محاولة تأسيسية لتتبع تاريخ بني حسان قبل موريتانيا.

***

وبعد إطِّلاع القارئ على تاريخ بني حسان قبل موريتانيا سيعلم أن كبريات المجموعات الحسانية تكامل دخولها إلى البلاد الموريتانية مع نهاية القرن التاسع الهجري.

وتجدر الإشارة إلى أن فرقة لبرابيش التي ذكرنا آنفا أنها كانت قد تموقعت في القِبله، قد أزعجتها إحدى المجموعات الوافدة إلى القِبله، وهي مجموعة أولاد رزق؛ وآل الأمر بفرقة البرابيش هذه إلى الإلتحاق بباقي بني عمومتهم، الذين كانوا إحدى المجموعات الحسانية التي يممت شرق البلاد الموريتانية.

***

إستكمالا للسياق التاريخي حول ما جرى داخل الأرض الموريتانية حتى أواخر القرن التاسع الهجري، نورد الأحداث الأخرى التالية:

- 838هـ أرسى البرتغاليون سفنهم في آركين؛ وفي سنة 842هـ أقاموا مركزا تجاريا هناك.
- وصل إلى ولاته بدء من سنة 873هـ كثير من العلماء قادمين من تنبكتو بعد ما اضطهدهم هناك سني علي من ملوك قِاو (قاو: مدينة معروفة اليوم بمالي).
- في سنة 898هـ قامت دولة الأساكية بعد إسقاطها حكم آل سني على، وأصبح الركن الجنوبي الشرقي من البلاد الموريتانية، بما فيه ولاته، تابعا لها.

***

ولا نرتاح لختم هذا السرد التاريخي من دون التذكير بفاجعة أصابت المسلمين في القرن التاسع الهجري، ألا وهي سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس سنة

898هـ/ 1492هـ. ولعل فرقا من أهل الأندلس اتجهت حينئذ إلى الصحراء الموريتانية! لا نجد ذكرا صريحا لذلك في المصادر التاريخية. والله أعلم.

4 الجيل الرابع .. وفيه ترسخ السيطرة الحسانية

بعد وصول المجموعات الحسانية إلى الصحراء الموريتانية صار همها الشاغل السعي إلى ترسيخ سيطرتها السياسية في البلاد.
ولقد حدث بسرعة أن خالطت القبائل الحسانية سكان البلاد الأوائل من القبائل المرابطية، واختلطوا بهم؛ ومما سهل على القبائل الحسانية والقبائل المرابطية الاختلاط السريع ببعضها البعض وحدة الدين أولا، ثم ثانيا تشابه نمط العيش إلى حد كبير. ولقد تشكل من مجموع القبائل الحسانية والقبائل المرابطية شعب جديد؛ شعب يسعى إلى بلورة هوية مشتركة لجميع قبائله، تخفي تحت مظلتها نواقص في الإنسجام كانت تبدو من حين لآخر بين مختلف فئاته.

كان لا بد لهذا الشعب الجديد أن يكون له أولا اسم، كبداية لتحديد هوية مشتركة، فكان - لا شك أقرب إلى الذهن- استمرار استخدام تسمية البيضان بدلالتها القديمة على ذوي البشرة الفاتحة، في مقابل الجيران من ذوي البشرة الداكنة، فالبشرة الفاتحة كانت آنذاك لا تزال ميزة مشتركة لكل طوائف هذا الشعب الجديد، أو كانت - إذا أردنا توخي الدقة أكثر- على الأقل وصفا مشتركا للنخب القيادية في المجتمع آنذاك من قبائل أهل العلم وقبائل أهل العسكرة.
أضف إلى ذلك أن دلالة الكلمة "بيضان" اللغوية على التميز بالبشرة الفاتحة كانت -وفق منظومة القيم الاجتماعية السائدة في تلك الفترة- ترضي غرور من تهوى أنفسهم التميز عن الآخرين بنوع ما من القيمة الخاصة.
لقد توسعت ببساطة تسمية البيضان لتستوعب القادمين الجدد من بني حسان.

1.4 وقفة عند مطلع القرن العاشر الهجري وخصوصيته في التاريخ البيضاني الموريتاني

1.1.4 الأسباب الرئيسية لهذه الخصوصية

نحن، بتأملنا شموليا للحراك التاريخي والاجتماعي لدى البيضان الذين عاشوا على الأرض الموريتانية، نرى لمطلع القرن العاشر الهجري خصوصية معينة :

1- نرى أولا أنه يرمز إلى بداية لجيل جديد من البيضان، ناتج عن اتحاد مجموعتي: القبائل المرابطية منْ هم جيل البيضان الأقدم، وهذه القبائل الحسانية الوافدة. وكأن سياق التاريخ البيضاني شهد مع مطلع القرن العاشر الهجري عملية تركيب له من سياقين تاريخيين منفصلين: سياق تاريخ القبائل المرابطية في موريتانيا، وسياق تاريخ القبائل الحسانية قبل موريتانيا.
2- وثانيا، نذكر القارئ أن الحضور الأوروبي على السواحل الموريتانية كان -كما أسلفنا- قد بدأ في القرن التاسع الهجري، فمطلع القرن العاشر الهجري يرمز إلى بداية تعاطي البيضان مع هذا الوضع الجديد، ولقد دخلت منذ تلك الفترة أحداث التاريخ الأوروبي إلى سياقات التاريخ الموريتاني. ومن المعلوم أن الأوروبيين بدأت قصتهم مع البلاد بظهور بعضهم على السواحل في القرن التاسع الهجري برسم التجارة، ثم تطور الأمر وآل في النهاية إلى احتلال الفرنسيين منهم في مطلع القرن الرابع عشر الهجري لكل البلاد الموريتانية، إلى أن يسر الله الفكاك منهم واستقلت البلاد.

2.1.4 نصوص تاريخية تدعم مبدأ هذه الخصوصية

إضافة إلى الأسباب التي ذكرناها لتأكيد ما أسميناه خصوصية معينة لمطلع القرن العاشر الهجري، فإننا نجد ثلاث نصوص تاريخية تساعدنا في ترسيخ عملية هذا الإجراء في ذهن القارئ، وتلك النصوص هي التي نسميها بنصوص كل من اللمتوني وفالنتين فرناندس والشيخ اليدالي، مرتبة حسب أهميتها التاريخية لا حسب مكانة أصحابها في النفوس. وهذه النصوص مجتمعة بإمكانها أن تساعد الباحث في رسم لوحة نادرة للمجتمع البيضاني في مطلع القرن العاشر الهجري؛ وذلك ما سنقدم –بإذن الله- محاولة أولية له في المبحث الموالي؛ على أننا هنا في هذا المبحث نود أن نعرف القارئ أولا بالنصوص التاريخية الثلاثة المذكورة[42].

***

<u>أولا: نص اللمتوني</u>

ونقصد به نصا معروفا عند الباحثين، هو نص ـ "رسالة اللمتوني من بلاد التكرور[43] إلى السيوطي"؛ ونص هذه الرسالة منشور في المنارة والرباط للخليل النحوي (ص 113-119)، نقلا عن الحاوي للفتاوى للسيوطي.

---

[42] ملاحظة: يمكن أن يضاف إلى هذه النصوص ما تضمنه مصدر تاريخي معروف هو كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان. وقد أورد الوزان معلومات تتعلق ببدايات القرن العاشر الهجري. فقدم أخبارا عن بعض مجموعات من بني حسان، وتكلم عن تيشيت، ووادان، وولاته. إلا أن معلومات الوزان –على أهميتها– تفتقد إجمالا إلى الدقة.

[43] بلاد التكرور: شهدت دلالة كلمة تكرور عبر التاريخ تغيرات عدة. وقد كان مفهوم التكرور في بعض مراحله التاريخية يطلق على مجال جغرافي كبير يتقاطع في جزء كبير منه مع المجال البيضاني؛ فلا يوجد اليوم

رسالة اللمتوني مؤرخة بشهر شوال من سنة 898هـ، أي قبل بداية القرن العاشر الهجري بنحو ثلاث سنين فقط.
بعض الباحثين يجزم بأن اللمتوني هذا منتسب إلى إحدى المجموعات البيضانية من قبيلة لمتونة المرابطية الشهيرة؛ ولعل الأمر فعلا كذلك، لكننا شخصيا لم نستطع بعد أن نجزم بأن اللمتوني هذا ليس من قبيلة "إيلمدن" التاركية، التي ترفع نسبها إلى قبيلة لمتونة كذلك، لكنها خارج المجال البيضاني.
لو أمكن حل هذا الإشكال، ولو تأكدت نسبة اللمتوني إلى المجال البيضاني، فإننا مع رسالة اللمتوني نكون أمام نص تاريخي نادر أسهب فيه صاحبه في وصف ونقد شتى مظاهر الحياة في مجتمعه.

***

ثانيا: نص فالنتين فرناندس

ترجع المعلومات في هذا النص إلى مطلع القرن العاشر الهجري، فقد كُتبَ سنة 912هـ ، وموضوعه "وصف شواطئ أفريقيا ..."، وفيه معلومات كثيرة متعلقة بالبيضان تأكيدا. ولقد استنطق هذا النص ونشره في موسوعته حياة موريتانيا المؤرخ المختار ولد حامد؛ نشره في جزء التاريخ السياسي (ص84 -92).

***

ثالثا: نص الشيخ اليدالي

في الحقيقة هي ثلاث نصوص نشرها مجتمعة الأستاذ محمذن ولد باباه مع تحقيقه لها تحت عنوان "نصوص من التاريخ الموريتاني".
والشيخ اليدالي في الواقع هو من أهل القرن الثاني عشر الهجري، متوفى سنة 1166هـ، إلا أن الفحص الدقيق للمعلومات المتضمنة في نصوصه يمكننا من القول بأنها تتعلق بالدرجة الأولى بتاريخ المجتمع البيضاني في القرنين العاشر والحادي عشر

شك في انطباق تعبير "بلاد التكرور" على بعض "اتراب البيضان"، وذلك بعد أن استخدمه في القرن الثالث عشر الهجري أحد العلماء من سكان المجال الجغرافي المعروف اليوم بموريتانيا، هو محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي؛ فقد ألف كتابه الشهير "فتح الشكور في تراجم أعيان علماء التكرور"، وعرف فيه التكرور بأنه "إقليم واسع ممتد شرقا إلى أدغاغ (في جنوب الجزائر حاليا) ومغربا إلى بحر بني الزناقية (=نهر السنغال حاليا) وجنوبا إلى بيط (=حول تحديدها خلاف بين الباحثين وهي ضمن مجالات السودان اليوم) وشمالا إلى آدرار (=هو نفسه آدرار في الشمال الموريتاني الحالي)". ولقد كان معظم من ترجم لهم البرتلي ينتمون إلى القبائل البيضانية المعروفة اليوم.

ونستدل من كلام البرتلي على أن مصطلح التكرور في عهده كان لدى بعض البيضان بديلا متاحا عن استخدام مصطلح بلاد شنقيط؛ ويتأكد لنا منه كذلك بأثر رجعي –وهذا أكثر ارتباطا بما نحن بصدده– أن تسمية اللمتوني للمجال الذي يكتب منه ب "بلاد التكرور" لا تنفي أن يكون موطن اللمتوني هذا ضمن مجالات البيضان، كما هي معروفة اليوم.

الهجريين، ذلك أن استنطاق تلك النصوص يفيد الباحث في استخراج كثير من المعلومات النادرة وفي اكتساب تصور لأبرز ملامح الحراك التاريخي والتحول الإجتماعي في مجتمع البيضان خلال هذين القرنين. أما بخصوص الفترة ما قبل القرن العاشر الهجري، فإن كثافة المعلومات وتكاملها يصبحان أقل بكثير؛ ومع ذلك تبقى – بالطبع- كل إشارة تضمنتها نصوص اليدالي، ويبقى كل استنتاج أمكن التوصل إليه على ضوء تلك النصوص، بمثابة مكاسب كبيرة للباحث، نظرا إلى أن المعلومات التاريخية المتعلقة بفترة ما قبل القرن العاشر الهجري شحيحة إجمالا.

3.1.4 لوحة لمجتمع البيضان مطلع القرن العاشر الهجري

في ما يلي نحاول تطبيق ما ذكرناه من أمكان رسم لوحة خاصة للمجتمع البيضاني مطلع القرن العاشر الهجري، بالاستناد إلى توفر النصوص التاريخية الخاصة التي استعرضناها. وقد كان نص فالنتين فرناندس من هذه النصوص هو في الحقيقة ما ركزنا حتى الحين على استخدامه في ذلك. وحرصنا بعد ذلك على أن نضيف إلى اللوحة ما استحضرناه حول هذه الفترة من معلومات أخرى مستقاة من مصادر مختلفة.

***

الخارطة السياسية:

بنو حسان يفرضون سيطرتهم ويقتسمون جل الأراضي الموريتانية:

- في الغرب "لودايه"، والمقصود بهم أولاد أودي بن حسان، ونعلم من نصوص الشيخ اليدالي أن المعنيين أساسا بذلك هم مجموعة أولاد رزق من لودايه.
- في الوسط: البرابيش.
- في الشرق: الرحامنة، ثم أولاد أعمر.

أما الركن الجنوبي الشرقي من البلاد فكان –بما فيه ولاته- تابعا لدولة الأساكية التي قامت مع نهاية القرن التاسع الهجري، وارثة عرش آل سني علي ملوك كاو.

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن إقليم وادي الذهب الصحراوي، المحاد للأراضي الموريتانية من الشمال، كانت آنذاك تشغله مجموعة أولاد دليم[44].

***

سكان الصحراء الموريتانية:

حسب ما في نص فالنتين فرناندس مع تعليقات المؤرخ المختار ولد حامد عليه، أن السكان كانوا في تلك الفترة ثلاث طبقات:

---

[44] دخلت فصائل عدة من أولاد دليم بعد هذا التاريخ (مطلع القرن العاشر الهجري) إلى الأراضي الموريتانية، وهم في عداد سكانها اليوم.

1- العرب: والمقصود بهم بنو حسان. قلت: وهؤلاء هم من كنا آنفا نعبر عنهم بالقبائل الحسانية.
2- الأثنكـ: كلمة بربرية تعني صنهاجة. وتنطق في الحسانية أصناكه[45].
قلت: المقصود إذًا هو مجموع قبائل صنهاجة، منْ كنا نعبر عنهم آنفا بالقبائل المرابطية، مع غيرهم من القبائل التي كانت في الصحراء الموريتانية قبل مقدم بني حسان.
3- الزكويون: وهؤلاء لعل اسمهم –كما يقول ولد حامد- محرف عن ثكرن بمعنى العبيد. قلت: هم إذًا فئة الأرقاء.

***

معلومات متفرقة حول القبائل الحسانية:

- حول سلوكهم: عادة الثأر متأصلة في نفسياتهم، ويضعون السكان الأصليين تحت وطأة شديدة.
- حول قيمهم (كما نقل فرناندس): يحترمون الخفارة والذمة، يحتقرون نكث العهد، متمسكون بالإسلام، العرب في بلاد لودايه أشد حياء من غيرهم، والأبناء يحترمون آبائهم احتراما شديدا.

***

معلومات متفرقة حول القبائل المرابطية:

- وديعون مضيافون، لا يحاربون إلا دفاعا عن النفس.
- هم تجار نشيطون، يتاجرون بين آسفي بالمغرب وجلف بالسنغال، ومع البرتغاليين، وفي الملح بين تيشيت وولاته.
- يقول فرناندس إنهم يدفعون بعض الأتاوات للودايه؛ قلت: ولعل الأدق أن بعض من يسميهم الأثنك كان يحتاج في ذلك العهد إلى دفع مثل تلك الأتاوات.

***

حول بعض مظاهر الثقافة العالمة

- تدريس العلوم الشرعية يجد اهتماما كبيرا في حواضر البلاد: في حواضر آدرار (تنيقي، شنقيط، ودان)، وفي تيشيت، وفي ولاته؛ وتستفيد تلك الحواضر آنذاك من رافدين ثقافيين أساسيين يسايران طرق التجارة الصحراوية، هما: رافد من جهة الجنوب الشرقي، من جهة تنبكتو تحديدا حيث تزدهر العلوم الشرعية آنذاك في ظل حكم الحاج

---

[45] في ابن خلدون ما يلي: "صنهاج هو زناك بالصاد المشممة بالزاي والكاف القريبة من الجيم إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصارت صنهاجة". وكان الصنهاجيون قديما يسمون أنفسهم "أثنكنْ"، مفرده أثنك. فكل هذه المفردات تشير إلى نفس الشيء. إلا أنه بعد مقدم بني حسان صارت القبائل من أهل العلم تعرف بالزوايا، والقبائل من أهل العسكرة تعرف بمسمياتها الخاصة. ثم أصبح إطلاق صناكه منصرفا إلى قبائل الموالاة بشكل يكاد يكون حصريا، لا يحضرنا مما يستثنى من هذه القاعدة إلا استمرار تداول مسمى "آصناكه البيض" في قبيلة إدوعيش من أهل العسكرة.

أسكيا محمد أول ملوك الأساكية؛ ثم رافد من جهة الشمال تنهل من خلاله تلك الحواضر من معين جامعة القرويين بفاس.
- تحرص قبيلة المدلش آنذاك، على استمرار إشعاع زاويتها العريقة.
- الفقه الإسلامي كان في كل معاقل العلم في البلد آنذاك يدرس وفق الفقه المالكي.
- في هذه الفترة كانت نهضة الشعر الفصيح لما تبدأ بعد؛ لقد كان يجري تداول أشعار قليلة، لا تعدم حظا من القبول بمعايير النحو والعروض؛ لكن النهضة الأدبية الحقيقية ستبدأ في البلد بعد ذلك بنحو قرنين من الزمن.

***

حول بعض مظاهر الثقافة الشعبية

أ) لغات التخاطب اليومي:
- الحسانية: تواصل انتشارها[46]؛ لكنها كانت في تلك الفترة في وضع لم تترسخ فيه بعد كلغة تخاطب يومي بين جميع أهل البلد، بل كان تداولها آنذاك لا يزال إلى حد كبير مقتصرا على القبائل الحسانية.
- الصنهاجية في مطلع القرن العاشر الهجري كانت لا تزال تحظى بتداول كبير بين القبائل المرابطية.
ب) الأشعار الشعبية[47]:
- القبائل الحسانية ينتشر بينها الشعر الحساني في شكل غير مقنن تقنينا عروضيا صارما، بل كانت أوزان نصوص الشعر الحساني يطبعها اضطراب شديد؛ كما كانت مضامين الشعر الحساني آنذاك لا تكاد تتجاوز الموضوعات الملحمية والحماسية.
- القبائل المرابطية، يوجد لديها آنذاك نوع من الشعر تتداوله الأوساط الناطقة بالصنهاجية (اكلام اصناكه)، ولغة غالبه خليط من الصنهاجية والعربية. وأصل ذلك الشعر عندهم تطور للمرددات الشعرية التي كانت سائدة بين المرابطين الصنهاجيين ممن كانوا في المغرب والأندلس ورجعوا إلى الصحراء بعد سقوط دولة المرابطين جالبين معهم تلك المرددات الشعرية. كما يظهر أنه كانت هناك صناعة عروضية في الصحراء: بدأت أصولها في الفضاء الثقافي لآل تافلويت نسبة إلى الأمير أبي بكر بن تافلويت والي المرابطين على سرقسطة بالأندلس، ودخلت إلى الصحراء مع رجوع المرابطين إلى الأندلس بعد سقوط دولتهم.
ج) أنواع من الطرب:

---

[46] سجلت بدايات انتشار الحسانية في البلد في القرن الثامن الهجري، حسب رأي للباحث محمد ولد مولود ولد داداه؛ وفق ما عزاه بعض الباحثين لمقال قديم له. راجع مثلا: الدكتور محمد المختار ولد السعد في المقال المعنون ب "موريتانيا في العهد الحساني"، المنشور ضمن إصدار "تاريخ موريتانيا – فصول ومعالجات"، نواكشوط 1999، منشورات جامعة نواكشوط، ص 103.

[47] نعتمد في المعلومات هنا على نتائج بحث لنا بعنوان" نشأة الأدب الحساني في بلاد شنقيط"، أنجزنا منه إصدارا شخصيا أوليا في مارس 2007.

1- كانت هناك موسيقى بدوية أتت بها القبائل الحسانية معها؛ ومن آلاتها: الشبابة، والرباب، .... الخ.
2- وكانت هناك موسيقى ملثمية، كما نحب أن نسميها؛ ومن آلاتها: تدنيت، وآردين، ....الخ؛ ويظهر أن هذا النوع من الموسيقى كان ينتشر في بعض أوساط القبائل الصنهاجية من أهل العسكرة.
3- كما أنه كانت هناك البنجة (بجيم معقودة)، وهي نوع من الغناء على الطبل اختص بأدائه في ذلك العهد الموالي أو العبيد. ومنه لون يسمى بـ"المدح"، أشعاره ذات مضامين دينية، مدائح نبوية في الأساس وإنشاد لفصول من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم[48]. لون المدح من ألوان البنجة كان منتشرا بين القبائل المرابطية، حتى بين تلك التي تعتبر من معاقل الثقافة العالمة آنذاك؛ كتجكانت في تنيقي، وفق ما تدل عليه بعض الروايات التاريخية[49]. ولكن كان لا يحضره في الغالب إلا الأحداث والنساء. ولعل القبائل المرابطية كانت في حين تتورع آنذاك عن الموسيقى الملثمية لكونها من المعازف، لا ترى بالبنجة بأسا، خاصة إذا كانت "مدحا"، ولعلهم رأوا أن الطبل هو في حكم الدف، الذي في الحديث النبوي أدلة على إباحته في بعض المناسبات الخاصة، كالأعراس مثلا.

2.4 زوايا ..وعرب .. وقبائل غارمة

لنبدأ أولا من الدلالة القديمة لكلمة "صناكه".

---

[48] ملاحظة: لعل لون "المدح" من البنجة انتشر في البلاد تأثرا بنوع شبيه من الأغاني كان سائدا في فضاء تنبكتو بدء من قيام دولة الأساكية قبيل القرن العاشر الهجري بثلاث سنوات؛ يؤيد ذلك لدينا ما اطلعنا عليه في بعض المراجع من أنه كانت هناك مرددات خاصة بالمولد النبوي في الفضاء السوداني أيام الأساكية، ويضاف إلى ذلك كثرة ورود عبارة "أسكي، أسكي .." في مقطوعات البنجة الموريتانية؛ وأسكي هذه إنما كانت تطلق في نظرنا تمجيدا لملوك "الأساكية".

[49] نشير هنا إلى ما أورده المختار ولد حامدون في موسوعته، الجزء السياسي، ص60؛ وفيه في سياق الحديث عن الفتنة بين بطون تجكانت بتنيقي، التي أدت إلى خرابها في أواخر القرن العاشر الهجري: " ... وانهزم الكواليل فاستنجد أعمر آكوك (قلت: وهو قائد الكواليل في تلك الفتنة) أحد الملوك فأمده بجيش جرار. ولما قرب من تنيقي تنكر في الليل **ودخل على عبيد له وقال**: **اعملوا طربا** ليجتمع عليه الأحداث، ومروا أحداث قومنا أن يشتملوا على سيوفهم ويقتلوا من حضر من عدوهم، فامتثلوا أمره. ولما حضر الأحداث إلى **الدف** قتلهم الكواليل. ثم ذهب أعمر آكوك إلى المسجد في آخر الليل –ومعه جيشه –وأذن للصلاة، فجعل رجال القرية يأتون فرادى ومثني ....إلى آخر القصة".

في ابن خلدون ما يلي: "صنهاج هو زناك بالصاد المشممة بالزاي والكاف القريبة من الجيم إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصارت صنهاجة". وكان الصنهاجيون قديما يسمون أنفسهم "أَتْنَكَنْ"، الواحد أَتْنُكْ.
كانت كل تلك المسميات تستخدم للدلالة على صنهاجة والصنهاجيين – قبل مقدم بني حسان.

***

أما بعد مقدم بني حسان فقد صارت لصناكة، أو بالحسانية "أصناكه"، دلالة خاصة، ولم تعد تطلق على كل المنحدرين من صنهاجة.

***

لقد انتظم المنحدرون من صنهاجة بعد مقدم بني حسان تحت مظلة إحدى تسميات ثلاثة: الزوايا، العرب، وصناكه بمفهوم جديد للكلمة. وبيان ذلك فيما يلي.

***

جلبت قبائل بني حسان معها من المغرب إلى موريتانيا نظاما اجتماعيا خاصا كان سائدا في معظم دول الشمال الإفريقي في عهود بني حسان هناك، ألا وهو نظام المغارم.
كان عرف القبيلة الحسانية المشتغلة بالعسكرة أن تلزم كل القبائل المساكنة لها في مجال جغرافي واحد، تعتبره منطقة نفوذها، بدفع مغارم مختلفة مقابل حمايتها لهم.
وكانت من أجل ذلك تنذر المتمنعين من الخضوع لنفوذها بالحرب، فإن لم ينقادوا وهزمتهم أصارتهم أتباعا لها؛ أي أنها تستلحمهم، ولذلك سموا باللحمة. وهي تغلظ على اللحمة كثيرا في البداية عقابا لهم، لأنهم حاربوها ولم ينقادوا لها رأسا.
وقد كان ممن استلحمهم بنوحسان في حروبهم بالمغرب مجموعات من قبيلة جزولة الصنهاجية[50]، فكانوا يميزونهم بوصفهم بـ" أصناكـه". وذلك هو في رأينا منشأ مفهوم "أصناكه" للدلالة على مجموعة من الأتباع.
كما كان العرف السائد بين القبائل الحسانية احترام كل قبيلة منها لمغارم القبائل الأخرى واحترامها كذلك لمن أعفتهم.

***

وعند دخول بني حسان إلى موريتانيا وجدت القبائل الحسانية أمامها القبائل المرابطية منتظمة وفق الأصناف الرئيسية الثلاثة: قبائل أهل علم، قبائل أهل عسكرة، قبائل أهل تنمية.

***

فأما القبائل المرابطية أهل العلم فقد حمتهم إجمالا هيبتهم العلمية. وقد اعتبر الحسانيون بعضهم بمثابة أساتذة لهم، وأملوا في إجلالهم الظفر بتوفيق الله لهم في حياتهم، وتسديد خطاهم، والعون لهم على خصومهم. وقد كان كثيرا ما يحدث أن يقرر قائد قبيلة حسانية إعفاء قبيلة زاوية من كل أشكال المغرم، ويوفر لها بذلك الحماية من باقي القبائل الحسانية، متلمسا للدعاء والبركة؛ فيقال في اصطلاح ذلك العهد: عنه أنه أعتقهم، وعنهم أنهم معتقون.

---

[50] يعرف ذلك من تاريخ بني حسان في المغرب (راجع الملحق: تاريخ بني حسان قبل موريتانيا).

ونظرا إلى أن بني حسان كانوا يصفون بعض أتباعهم ممن استلحموهم بالمغرب بـ "أصناكه" كما ذكرنا آنفا، فإن القبائل المرابطية من أهل العلم ممن أصولهم صنهاجية صاروا يتحاشون منذ ذلك العهد استخدام صناكه وصفا لهم، تحاشيا للالتباس مع التابعين للحسانيين. ومن ثم تركز استخدام اسم **الزوايا** وصفا لكل القبائل المرابطية من أهل العلم، ولقد كان اسم الزوايا موجودا قبل ذلك منذ بدأ المدلش يوصفون به - كما أسلفنا.

***

وأما القبائل المرابطية من أهل العسكرة فقد قاوم كثير منهم الحسانيين عند مقدمهم. فبعضهم انهزم في حرب مع الحسانيين فاستلحم؛ وبعضهم أكلته الحروب إلا أسر قليلة تفرقت في القبائل؛ والبعض الآخر أعجز الحسانيين بالكر والفر فدخلوا في تحالف معه وتقاسموا معه النفوذ. وكان من عرف الحسانيين التوقيع على الحلف أحيانا بعقد مصاهرة بين الأطراف، وذلك ما جرى بينهم وبين بعض أهل الشوكة من أهل العسكرة ممن وجدوهم أمامهم[51].

ولقد صارت القبائل المرابطية من أهل العسكرة، التي نجحت في تقاسم النفوذ مع الحسانيين في بعض المناطق، تعرف مثلهم بـ **"العرب"**. واختفت من ثم التسمية بصناكه بين قبائل أهل العسكرة من أصل صنهاجي إلا نادرا[52].

***

والصنف الثالث: هم قبائل أهل التنمية. هذه القبائل صارت في وضع اجتماعي هش، بعد مقدم الحسانيين جالبين معهم نظام المغارم؛ فهي لم تكن تحتمي بسلاح كأهل العسكرة، ولا ألواح كأهل العلم.

لقد صارت قبائل أهل التنمية في مهب ريح المغارم.

والكثير من قبائل أهل التنمية وقع فعلا تحت نفوذ الحسانيين وأصبح ملزما بدفع المغارم لهم. ولما كانت قبائل أهل التنمية في أصلها من محتد صنهاجي (أي صناكي حسب المفهوم الأصيل)، فقد شملتهم مع مقدم بني حسان تسمية **"أصناكه"** حسب دلالتها الجديدة على الأتباع. الذين -من قبائل أهل التنمية- نجوا من الوقوع في مغارم الحسانيين، إنما يكونون قد تمكنوا من ذلك غالبا بالدخول في نظام حلف معين مع قبيلة من قبائل من الزوايا ذات الهيبة، ليداروا عنهم الحسانيين. ذلك الحلف نسميه حلف مداراة؛ وتلك القبائل من أهل التنمية من أصل صنهاجي التي دخلت في أحلاف مداراة مع بعض القبائل الزاوية نسميها بقبائل المداراة. ويتصور جيدا أن بعض قبائل أهل التنمية قد اندمج في عداد بعض القبائل الزاوية ذات الهيبة، من دون حاجة إلى نظام المداراة، بناء على اشتراكهم معهم في النسب الصنهاجي على سبيل المثال.

ولقد أصبحت منذ ذلك الحين تسمية "أصناكه" في عرف المجتمع منصرفة تلقائيا إلى القبائل التابعة لنفوذ بني حسان المباشر.

---

[51] تشير إلى هذه الظاهرة مسميات من مثل: أولاد الصناكيه، أهل محمد الصناكي، ...

[52] نشير بقولنا نادرا إلى: بقاء تسمية أصناكه البيض، المعروفون بالأنباط، من بطون إيدوعيش.

ثم اختلطت التسميتان "أصناكه" و"اللحمة" في عرف البيضان، فصار كلا منهما بديلا للإطلاق عن الآخر. والذي يتخرج مما فصلنا أعلاه أن اللحمة وأصناكه بينهما فعلا تداخل شديد. ونحن نختار أن نطلق على مجموعهما اسم **القبائل الغارمة**، مستندين في ذلك إلى حس المؤرخ المختار ولد حامد رحمه الله، الذي اختار هذا الاسم، حسب ما فهمنا من موسوعته (جزء الجغرافيا).

3.4 البيضان .. متكلمو الحسانية

في السبعينات من القرن التاسع الهجري قام باضطهاد العلماء في تنبكتو الملك سني علي من ملوك كَاو (وعاصمة ملكه آنذاك كَاو –بكاف معقودة- بدولة مالي الحالية)، فأُلجأ كثيرٌ من هؤلاء العلماء إلى الهجرة نحو الأراضي الموريتانية، وسكن معظمهم بولاته.
ولإن كان فيهم من رجع عن الأراضي الموريتانية إلى تنبكتو في أواخر القرن التاسع الهجري، لما قامت دولة الأساكية[53] ورحبت بالعلماء السودانيين، فإن دولة الأساكية لم تعش إلا نحو قرن من الزمن، ثم سقطت في ظروف أليمة.
واضطربت على إثر ذلك الأوضاع اضطرابا كثيرا في تنبكتو وما جاورها من مجالات السودان، وبدأت هجرة الأعيان من جديد إلى الأراضي الموريتانية.
ولذلك يمكننا القول بأن الفترة ما بين القرن التاسع والحادي عشر الهجريين شهدت هجرة نهائية لكثير من الأسر السودانية من ذوي الرفعة والمكانة عن الحواضر السودانية للدخول في رحاب القبائل البيضانية.
وقد اخترنا هذه الفترة لتعبر بصورة رمزية عن ظاهرة انصهار السودان في المجتمع البيضاني؛ وإلا فإن هذه الظاهرة قديمة جدا، وربما تعود بداياتها إلى أول يوم وجد فيه البيضان والسودان أنفسهم جنبا إلى جنب.

***

المهم أنه على إثر دخول مثل تلك الأسر السودانية من ذوي الرفعة والمكانة إلى مجتمع البيضان وصيرورتهم في عدادهم، لم يعد كل ذوي الشأن من البيضان من "بيضي البشرة" كما كانوا[54]، بل صارت –على سبيل المثال- في عداد كثير من قبائل أهل العلم من البيضان بطون من أصول سودانية.
الصورة الذهنية عن البيضان بوصف أعيانهم وكثيرا من جمهورهم من "ذوي البشرة الفاتحة" بدأت من ثم تضطرب.

---

[53] قامت هذه الدولة في نهاية القرن 9هـ بإسقاط حكم آل سني على من ملوك قاو، وعاشت شامخة حتى سنة 999هـ، التاريخ الذي فيه هاجمتها جيوش أحمد المنصور الذهبي من ملوك السعديين بالمغرب. وكانت دولة الأساكية، وثيقة الصلة بالجنوب والشرق الموريتاني عبر مدينة ولاته.

[54] تنبيه مهم: إن المسمون بالبيضان لم تكن بشرتهم أبدا ناصعة البياض، فالذي منهم لم تغير بشرته خؤولات من السودان، غيرت بشرته أشعة شمس الصحراء المحرقة.

ولعل هذا العامل، متضافرا مع عامل تقدم التعرب في البلاد، من أهم ما أدى إلى تحول مفهوم البيضان من الدلالة على "ذوي البشرة الفاتحة" إلى الدلالة على "**مطلق متكلمي الحسانية**".
ويمكن أن يعتبر القرن الحادي عشر الهجري تاريخا رمزيا لتبلور هذا التحول من خلال تلاقح التأثيرين: انصهار السودان في النسيج البيضاني، وتقدم التعرب.

4.4 بدء أمر حجاج البيضان من بلاد شنقيط

"(كانت شنقيط علما لهذه البلاد عند أهل الأمصار) على حد قول سيد عبدالله بن الحاج إبراهيم، وما عرف هذا الاسم إلا بعد بروز مدينة شنقيط كعاصمة للعلم ومنطلق للحجيج، وقد كان ذلك بعد تأسيسها بقرون، وخصوصا مع بداية الألف الهجرية الثانية.
وحدود بلاد شنقيط كما عينها ابن الأمين: الساقية الحمراء شمالا، قال: وهي تابعة له (أي القطر) وقاع ابن هيب جنوبا وهو تابع له أيضا وشرقا ولاته والنعمه وهما تابعان له أيضا وغربا بلاد السنغال وهي خارجة عنه.
والظاهر أن ابن الأمين يعني بولاته والنعمه مناطقهما وليس المدينتين فحسب...
وقد تحدث ابن الأمين في جغرافية بلاد شنقيط عن (أروان)... وتحدث عن (أزواد)...." [55].
نحن نفهم من ذلك أن أصل تسمية مجالات البيضان ببلاد شنقيط هو أن غالب البيضان، ممن كانوا قديما يقصدون المشرق برسم الحج، كانوا يصلون إليه في قوافل منطلقة من مدينة شنقيط بعد تأسيسها.
وذلك يوحي لنا بأن أهل المشرق بدؤوا من ثم يسمون ركب الحجاج البيضان بالشناقطة، وبدؤوا يسمون بلادهم التي قدموا منها ببلاد شنقيط.
لكننا نريد هنا أن ننبه على أن الحرص على أداء فريضة الحج في تلك العهود كان بالدرجة الأولى من شأن العلماء، الذين كان بعضهم يذهب إلى الحج منفردا، بينما كان آخرون منهم يصطحبون معهم أسرهم؛ ولذلك لم يكن وصف أحد البيضان بأنه شنقيطي إلا مرتبطا في أذهان المشارقة بكونه بالضرورة من العلماء.
و نريد بعد ذلك ببساطة أن نخلص استنادا إلى النص أعلاه إلى أن مطلع القرن الحادي عشر الهجري (بداية الألف الهجرية الثانية) يعتبر في سياق التاريخ البيضاني بداية رمزية لتسمية بلادهم بـ"بلاد شنقيط".

---

[55] الخليل النحوي. بلاد شنقيط – المنارة .. والرباط. ص 20-21. مع اختصار.

5.4 شرببه .. غفر الله للجميع

حول مراجع هذا المبحث ترجى مراجعة الهامش[56].

1.5.4 حركة ناصر الدين

شهد القرن الحادي عشر الهجري حدثين لهما أهمية خاصة في التاريخ الموريتاني، ألا وهما: قيام حركة ناصر الدين في الشمال الغربي الموريتاني، المعروف بالقِبله؛ ونشوب فتنة شرببه بين القبائل الحسانية وحلف من الزوايا.
في الخمسينيات من القرن الحادي عشر الهجري قامت في قبائل من الزوايا بمنطقة القِبله حركة بقيادة أوبك بن أبهم الديماني الشمشوي، تهدف إلى إقامة دولة دين وعلم.
بايع جمهور زوايا القِبله أوبك بالإمامة، وصار يلقب بينهم بـ" ناصر الدين"، وبقي عدد قليل من قبائل الزوايا الأخرى في القِبله لم يساند إمامة ناصر الدين.
سار ناصر الدين بنفسه وسير حملات إلى مختلف الممالك السودانية جنوبي النهر، وتمكن من ضم كثير من شعوبها تحت مظلة إمامته.
القبائل الحسانية التي كانت في القبله في ذلك العهد، وكانت قد وصلت قبل حركة ناصر الدين إلى قدر كبير من النفوذ هناك؛ هذه القبائل لم تقم من جهة بمعارضة إمامة ناصر الدين، لكنها من جهة أخرى لم تطمئن إلى إسلام زمام أمرها إلى قيادته، ففضلت الهجرة عن القِبله إلى تيرس، حيث بقوا هناك في وضع ترقب.

2.5.4 فتنة شرببه

في الهامش تنبيه[57].

---

[56] المراجع حول حركة ناصر الدين تشمل: موسوعة حياة موريتانيا، جزء التاريخ السياسي، للمختار ولد حامد رحمه الله؛ كتاب "حرب شرببه .."، للدكتور محمد المختار ولد السعد حفظه الله؛ مقال "حركة ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا"، للدكتور جمال ولد الحسن رحمه الله.

[57] نود في بداية الكلام حول فتنة شرببه أن نقول إن موضوع هذه الفتنة كانت حتى وقت قريب أحد الموضوعات بالغة الحساسية لدى البيضان التي لا يتكلم عنها عادة أمام الملإ، ومن باب أحرى أن يكتب عنها؛ حتى تمكن باحثون موريتانيون من كسر تلك القيود، وظهرت رسائل جامعية توجهت علنا إلى دراستها دراسة علمية.

ظلت حركة ناصر الدين تعاني من نقص شديد في ترتيب الصف الداخلي لجناحها الذي في المجال البيضاني، في حين كان تحركها في المجال السوداني فعالا.
حوالي سنة 1082هـ انفجر الوضع الداخلي في القبله على إثر شرارة أطلقتها قضية زكاة "ببه" الشهيرة. بل لقد قيل أن شرببه معناها "شر -أتى به- ببه"، حيث الشر هنا بمعنى الحرب بالحسانية، وببه هو صاحب تلك القضية. وقيل في تفسير شرببه غير ذلك. والله أعلم.
المهم أن خلافا حصل حول حق إمامة الزوايا في أخذ الزكاة من "ببه" أو حول مقدار ذلك. وآل الأمر بـ"ببه" هذا إلى الاستجارة بالقبائل الحسانية التي كانت قد تركت القِبله واعتزلت أمر حركة ناصر الدين كما ذكرنا آنفا. تلك القبائل قررت إجارة "ببه" معتبرين أن القيم العربية الأصيلة تحتم عليهم إجارته.
استند جانب إمامة الزوايا شرعيا إلى رأي بوجوب قتال "ببه" لمنعه الزكاة، واستندت القبائل الحسانية إلى فتوى لأحد كبار علماء البلد آنذاك بجواز قتال الحسانيين للزوايا إن هم صالوا عليهم يريدون الظفر بـ"ببه" وزكاته.
ثم نشبت فتنة شرببه بين الزوايا والقبائل الحسانية[58]، واستمرت سنين عديدة، وتفاصيل أيامها مدونة في مظانها من كتب التاريخ الموريتاني.
أهم ما يمكن قوله عنها هو أن التفوق كان حليف الزوايا في سنوات الحرب الأولى، وكانوا متحمسين لها، وواثقين كل الثقة من كونها قتالا شرعيا. ثم إن ناصر الدين قتل سنة 1085هـ. وأعقب وفاته تفوق بين للقبائل الحسانية على الزوايا. وانتهت الحرب أخيرا سنة 1087هـ بغَلَب الزوايا لقلة معرفتهم بتدبير الحرب، بعد ما كان النصر حليفهم في البداية.
وأملت القبائل الحسانية شروط الصلح، ومنها: أن قبائل بني حسان –بدءا من ذلك التاريخ- لا يحفرون الآبار، بل كل بئر للزوايا وردوا عليها لهم ثلث مائها. ومنها أن المسافر منهم إذا نزل بحي من الزوايا يقرونه ثلاث ليال، ويحملونه على دابة حتى يصل إلى حي آخر، فيحمله ذلك الحي إلى آخر، وهكذا حتى ينتهي إلى غايته.
كانت شروط الصلح هذه شروطا رمزية، لم تثقل كاهل الزوايا، ولم يعرف لتطبيقها على أرض الواقع تأثير سلبي على معنويات الزوايا بعد هذه الحرب.

6.4 وافدون جدد

[58] لقد ضم طرف القبائل الحسانية في الفترة الأولى من الحرب تلك القبائل التي كانت في منطقة القبله عند قيام حركة ناصر الدين، وهي قبائل لبراكنه والترارزه؛ ثم التحقت في المراحل الأخيرة من الحرب بالطرف الحساني قبيلة أولاد امبارك الحسانية.

ظلت -بعد مقدم بني حسان- تفد على الأراضي الموريتانية مجموعات مختلفة ذات أنساب عربية، قادمة إلى البلاد من جهة الفضاء المغاربي. ومعظم هؤلاء الوافدين هم تحديدا أسلاف للمجموعات الخفيفة العدد المنتسبة اليوم إلى الشرفاء.

5 الجيل الخامس: تجمعات محصرية .. وتجمعات محظرية

لم تكن شرببه كلها شرا، فقد قادت إلى نوع جديد من تقاسم الأدوار في المجتمع، كان له على العموم أثر بناء في النهضة بالمجتمع البيضاني. وبيان ذلك فيما يلي:
لنذكر أولا ببعض ما قلناه سابقا حول التصنيفات الداخلية في مجتمع البيضان.
لقد كان مجتمع القبائل المرابطية في فترة ما بعد المرابطين مصنفا إلى قبائل من أهل الاشتغال بالعلم، وقبائل من أهل الاشتغال بالعسكرة. وهذان الصنفان من القبائل كانا هما قطبا النفوذ في المجتمع البيضاني آنذاك. وشمل المجتمع زيادة على ذلك قبائل من أهل التنمية لها مركز مالي متميز. ثم كانت هناك فئات اجتماعية أخرى عديدة تتبع لمختلف تلك القبائل (الأرقاء) أو تواليها (مثل هرضنن بمعنى الموالي المعتقين) أو تؤمن مختلف الخدمات المطلوبة من قبل المجتمع (الصناع اليدويون، الزفانون، الصيادون).
ولما وصل بنو حسان إلى موريتانيا وترسخت لهم سيطرة سياسية فيها، حدث تغيير طفيف في التصنيف الوظيفي داخل مجتمع البيضان، تمخض عنه وجود ثلاث تصنيفات رئيسية: 1- الزوايا، 2-العرب، 3-القبائل الغارمة.
ولقد أصبح بنو حسان بعد مقدمهم هم المشتغلون بالعسكرة، إلا مجموعات صنهاجية قليلة دخلت في تحالفات معهم.
ثم قامت في القرن الحادي عشر الهجري فتنة شرببه بين الزوايا والقبائل الحسانية في القبله وانتهت بتفوق بني حسان العسكري فيها.
ذلك إذا هو ما كان في المجتمع من تصنيفات حتى فترة انتهاء فتنة شرببه.
ومن بعد ذلك امتد التأثير المعنوي لتفوق بني حسان في شرببه إلى مختلف أرجاء البلاد، ليدل في فترة ما بعد شرببه على نوع من التفوق العام للمجموعات من أهل العسكرة على المجموعات من أهل العلم.
وتكرس على إثر ذلك التصنيف الوظيفي الذي كان سائدا في المجتمع البيضاني بصورة جديدة أكثر وضوحا.

لقد أصبح الاجتماع البيضاني في الأراضي الموريتانية بدء من مطلع القرن الثاني عشر الهجري يسير وفق نموذجين: تجمعات محصرية، وتجمعات محظرية[59].

1.5 التجمع المحصري

هذا النوع من التجمعات تقوده مجموعة من أهل العسكرة (العرب[60]).
و لقد كانت المجموعات القيادية في التجمعات المحصرية في فترة ما بعد شربيه كلها من "العرب" الحسانيين، ثم مع الزمن ظهرت تجمعات محصرية عديدة حول قيادات من "العرب" ذوي الأصول الصنهاجية.
ولقد تطور بعض التجمعات المحصرية إلى درجة معتبرة من التنظيم السياسي فسمي رئاسات، وبقي في ذلك المستوى. ومن أشهر ما بقي في مستوى الرئاسات: رئاسة البرابيش، رئاسات أولاد دليم، رئاسة أولاد رزق، رئاسات أولاد داود، رئاسات أولاد الناصر، رئاسات أولاد اعروكـ، رئاسة مشظوف.
ثم تطور بعض الرئاسات أكثر ليكون إمارات بيضانية. فكانت هناك خمس إمارات: إمارة الترارزة، إمارة لبراكنة، إمارة أولاد يحي بن عثمان، إمارة إدوعيش، إمارة أولا د امبارك برئاساتها المختلفة.
وكانت التجمعات المحصرية تشمل عادة إلى جانب مجموعاتها القيادية مجموعات مختلفة من الأحلاف، والقبائل الغارمة ، وبعض أهل الصناعة التقليدية، وبعض الزفانين (إيڤاونْ)، والموالي (الحراطين)؛ ثم طائفة من العبيد.
و بالمناسبة كان -في القرن الثاني عشر الهجري- الغرض المعروف باتهيدين (أي الشعر الحماسي) هو أكثر أغراض الشعر الحساني انتشارا في التجمعات المحصرية، فهو أكثر ما وافق نفسية وذائقة مجموعاتها القيادية آنذاك. وكان أكثر المشتغلين بالشعر الحساني لذلك العهد هم إجمالا من طائفة الزفانين، مع أنه رويت عن بعض قادة الحسانيين نماذج شعرية حسانية مختلفة.

---

[59] هذا التقسيم إلى قبائل محصرية وقبائل محظرية اقترحه علينا ذات يوم أستاذنا لجليل حمدا ولد التاه في حديث حفظه الله في جلسة علمية بمنزله. وهذا النموذج الاصطلاحي نرى له فائدة جمة؛ فهو يريح البال أكثر، في ظل إيحاء المصطلحات التقليدية (زوايا، طلبه، حسان، مغافرة، تياب، مهاجرون، ...) بإيحاءات مشكلة أحيانا.

[60] لقد سبق وأن بينا أن تسمية لعرب كانت تطلق أيضا على بعض المجموعات الصنهاجية، التي سارت سير الحسانيين وحالفتهم أيام دخولهم إلى البلد.

2.5 التجمع المحظري

هذا النوع من التجمع تقوده مجموعة من أهل الاشتغال بالعلم .
هذه المجموعة القيادية تكون في أغلب الحالات من الزوايا، بمعنى أهل العلم المنحدرين من القبائل المرابطية.
إلا أن هذه المجموعة يمكنها كذلك أن تكون ممن يوصف بالطلبه. ومفهوم الطلبه هو مفهوم جديد استحدث بعد مقدم بني حسان إلى البلاد، ودلالته أعم من دلالة الزوايا. ففي حين كان مفهوم الزوايا ينصرف إلى قبائل أهل العلم من القبائل المرابطية التي كانت في البلاد قبل مقدم بني حسان، كان مفهوم الطلبه يشمل إلى جانب الزوايا مجموعات مختلفة ذات أصول حسانية تبنت النهج الزاوي (مهاجرون، تياب)، ومجموعات أخرى من أهل الاشتغال بالعلم وفدت على البلاد بعد وصول بني حسان قادمة من جهة الفضاء المغربي.
وبذلك أصبح مفهوم الطلبه في الحقيقة هو مفهوم يشمل الزوايا وغيرهم. واختلط المفهومان بعد ذلك على أرض الواقع، فصار كل واحد منهما بديلا عن الآخر، وإن ظلت تتفاوت درجات استعمالهما من منطقة إلى أخرى.
ونحن هنا نذيب كلا المفهومين تحت مصطلحنا هنا: التجمع المحظري.
نقول إذًا. لقد كانت القيادة العليا للتجمع المحظري عادة ما تتجسد في شخص عالم متضلع هو شيخ المحظرة، التي منها استقى هذا النوع من التجمع اسمه فهي المعلم الحضاري الأبرز له. وقد تتمثل القيادة معنويا في وجيه موصوف بالعلم، إذ لا تتأتى الوجاهة في هذا النوع من التجمع المحظري لذلك العهد إلا لمن حصلوا على حظ معتبر من العلم على إثر دراسة في بعض المحاظر المهمة بالبلد.
ولقد كانت المدارس العلمية في فترة أولى مقتصرة إلى حد كبير على حواضر آدرار وزاوية المدلش المتنقلة، ثم صارت المدرسة العلمية التقليدية المعروفة بالمحظرة -بدء من القرن الحادي عشر الهجري- ظاهرة شائعة في شتى المجموعات من أهل الاشتغال بالعلم، واشتهرت"بيوت وخيام" علم كثيرة في مختلف حواضر البلد وبواديه.
أما في القرن الثاني عشر الهجري، فقد أصبحت المحظرة معلما حضاريا أساسيا لا يكاد يستغني عنه أي تجمع ولى للعلم وجهته. وذلك هو سبب ما ذكرناه من أن التجمع المحظري كان لا بد من أن يقوده حينئذ إما عالم صاحب محظرة أو –على الأقل- وجيه نال حظا وافرا من العلم في إحدى المحاظر.
وقد كانت التجمعات المحظرية تضم إلى جانب مجموعاتها القيادية مجموعات مختلفة من الأحلاف المشتغلين بالعلم، ومجموعات من قبائل المداراة[61]، وبعض أهل الصناعة التقليدية؛ ثم طائفة من العبيد والموالي (الحراطين). والتجمعات المحظرية كانت بذلك

---

[61] هؤلاء هم الذين ذكرنا أنهم أصلا من قبائل أهل التنمية من محتد صنهاجي نجوا من المغارم المباشرة لبني حسان بلجوئهم إلى قبائل من أهل العلم ليداروا عنهم بني حسان؛ فلم يدخلوا بذلك في عداد القبائل الغارمة. ولعل بعضهم يطلق عليه أحيانا مسمى "التلاميد".

من حيث التركيبة العامة شبيهة بما رأيناه سابقا عند التجمعات المحصرية، إلا أن الزفانين لم يكن لهم في تركيبة التجمعات المحظرية حضور إلا في أقل من النادر، وذلك لتنافي المشاغل بين من همهم العلم والتضلع فيه، ومن همهم التضلع في الغناء والصناعة الموسيقية[62].

ولقد عرفت التجمعات المحظرية في صدر القرن الثاني عشر الهجري ظهور أول شعرائها الكبار، على الأقل ممن وصلنا كم معتبر من شعرهم مدونا: الشيخ اليدالي (ت1166هـ)، ابن رازكه (ت1144هـ)[63]. كما ظهرت في عجز القرن الحادي عشر الهجري أسماء أخرى اشتهرت في مجال الشعر الفصيح، إلا أن قرن الشعر الفصيح بموريتانيا كان بحق القرن الثالث عشر الهجري، كما سنرى بإذن الله.

أما بخصوص الشعر الحساني فقد ظل تداوله في التجمعات المحظرية حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري محدودا جدا، ولا تحتفظ الذاكرة الجمعية البيضانية إلا بنماذج تعد على أصابع اليد من الشعر الحساني المنسوب لأهل التجمعات المحظرية في ما قبل القرن الثالث عشر الهجري؛ وذلك لسببين:

أولهما – أن الزوايا وغيرهم من المشتغلين بالعلم كانوا يعتبرون هذا النوع من الشعر خاصا بالقبائل الحسانية ولا يناسب -بأغراضه الملحمية الصاخبة- طبيعتهم الهادئة؛ إضافة إلى أن الزفانين كانوا في العهود الأولى هم أكثر المشتغلين به.

وثانيهما – أن التجمعات المحظرية لما تكرست كظاهرة ، بدء من ملتقى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، وصار الإقبال على العلم هو شغل هذه التجمعات الشاغل، تلازم ذلك عندهم مع بروز توجه عام في اهتماماتهم نحو آداب اللغة العربية، والشعر الفصيح منها تحديدا؛ فظهر لهم في الفصيح شعراء كبار كما ذكرنا. ولم يكن الاشتغال بالآداب العامية في نظر نخب التجمعات المحظرية آنذاك إلا منافيا لتوجههم ذلك.

3.5 نظرة إيجابية إلى انقسام المجتمع البيضاني قديما إلى محصريين وإلى محظريين

---

[62] هذه الفكرة مستوحاة من سياق في كتاب المرحوم أحمد ولد الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثاني عشر الهجري. وتحتفظ لنا الذاكرة الجمعية البيضانية بمثل شعبي يجسد وجود تنافي في المشاغل آنذاك بين أهل العلم وأهل الغناء، في صورة أن "لمرابط ماه صاحب إيكيو". قلت: وللأمانة العلمية ينبغي أن نذكر أن أهل الغناء حظوا في أحيان كثيرة بعد ذلك العهد الأول بصداقات مع منتسبين لقبائل أهل العلم، بل شاركوهم مجالس طربهم.

[63] تتداول أسماء لشعراء آخرين من أهل ذلك العهد لكن لم يصلنا كثير من إنتاجهم.

لقد ذكرنا في بداية هذا المبحث أن شرببه لم تمكن كلها شرا. وعللنا ذلك بأنها قادت إلى نوع جديد من تقاسم الأدوار في المجتمع، كان له إجمالا أثر بناء في النهضة بالمجتمع البيضاني.
أما تقاسم الأدوار المذكور فهو ما شرحناه أعلاه من تكرس انتظام سائر طوائف المجتمع ضمن أحد صنفين من التجمع: التجمع المحصري، أو التجمع المحظري. حتى لكأنه لم تكن لأي مجموعة آنذاك فرصة لتستثنى من هذا التصنيف، اللهم إلا إذا كان ذلك من قبيل الاستثناء الذي يرسخ القاعدة[64].
وأما الفوائد التي جناها المجتمع من وراء مثل ذلك التقاسم للأدوار، فيمكننا أن نجملها بنظرة إيجابية إلى الأمور في نقطتين:

- لقد وصل بنو حسان إلى البلاد الموريتانية في نفس القرن (القرن التاسع الهجري)، الذي وصل فيه الأوروبيون إلى الشواطئ الموريتانية. ولقد مر معنا في سياق سابق ما جاء في نص تاريخي هو نص فالنتين فرناندس من وصف للأثنك (القبائل المرابطية) في مطلع القرن العاشر الهجري بأنهم كانوا "وديعين ومسالمين". نحن نقول: إن الله قد ساق -بعظيم منه- بني حسان في الوقت المناسب ليشدوا أزر أهل البلاد من القبائل المرابطية، ويرهبوا معهم الأوروبيين. وبذلك تأخر خضوع أرض البيضان للاحتلال الأوروبي بنحو من أربعة قرون. نقول ذلك ونحن نعي أن بعض قبائل أهل العلم ابتلوا في بداية الأمر من طرف القبائل الحسانية ابتلاء عظيما.
- هزم الزوايا عسكريا في فتنة شرببه، بينهم وبين القبائل الحسانية. وكان من شروط الصلح الضمنية تخلي الزوايا عن حمل السلاح وعن انتهاج أي نوع من العسكرة. وعلى إثر ذلك قام التقسيم الجديد للمجتمع إلى تجمعات محصرية طابعها الاشتغال بالعسكرة، وإلى تجمعات محظرية طابعها الاشتغال بالعلم. التجمعات المحظرية، التي نشأت من حول الزوايا ومن شاركهم قيم الاشتغال بالعلم، انكبت على الدرس الفقهي والأدبي بكل ما آتاها الله من طاقة، ونبغت فيه نبوغا منقطع النظير، فرفع الله رؤوس علمائهم شامخة، كما ستصور لنا ذلك بجلاء في المبحث الموالي لوحة المجتمع البيضاني في القرن الثالث عشر الهجري.

6 الجيل السادس: القرن 13هـ .. ومجد أهل شنقيط

لقد كان من أول ما شد انتباهنا، ونحن في بداية اهتمامنا بفهم سياقات التاريخ الموريتاني، إلى وجود خصوصية للقرن الثالث عشر الهجري في التاريخ البيضاني ما

[64] يبقى التنبيه على ما كان يقع أحيانا من هجر فصيلة لتجمعها المحصري، فتولى للعلم وجهتها وتتحالف في البداية مع تجمع محظري قائم، ممهدة بذلك لانفصالها وتشكيلها لتجمع محظري جديد خاص بها.

اطلعنا عليه من أسباب وجيهة استعرضها الباحث الدكتور أحمد ولد الحسن رحمه الله في أطروحته العلمية الذائعة الصيت "الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري - مساهمة في وصف الأساليب"[65].

على سبيل المثال، يقول الدكتور ولد الحسن رحمه الله، في بداية الفصل الثالث من أطروحته المعنون ب"القرن الثالث عشر الهجري"، مفسرا سبب اختياره لهذا القرن موضوعا لأطروحته:

" .. ولقد أسلفنا القول: إن هذا الاختيار يعتمد على افتراض مؤداه أن القرن الثالث عشر الهجري كان بالنسبة إلى ما قبله فترة متميزة في تاريخ بلاد شنقيط." ثم يضيف قائلا *"وسنحاول في الصفحات التالية تبين مظاهر هذا التميز على المستويات: السياسي، الاجتماعي، فالثقافي، فالأدبي ...*". وهو ما يقوم به على امتداد الثلاثين صفحة الموالية[66]، فيثبت خصوصية القرن الثالث عشر الهجري في تاريخ بلاد شنقيط أيما إثبات.

***

ونحن هنا سنكتفي من أجل إعطاء القارئ تصورا عن الوضع المتميز للمجتمع البيضاني الشنقيطي في ق 13هـ بالكلام عن نخبة المجتمع آنذاك: الأمراء، والعلماء.

1.6 القرن 13هـ .. قرن الأمراء العادلين في بلاد شنقيط

لقد ذكرنا آنفا أن بعض التجمعات المحصرية نجحت في تكوين إمارات بيضانية، هي: إمارة الترارزة، إمارة لبراكنة، إمارة أولاد يحي بن عثمان، إمارة إدوعيش، أولاد امبارك بسلطناتها المتعددة.

لقد شكل القرن الثالث عشر الهجري من الناحية السياسية قمة نضوج التجربة السياسية لدى الأمراء البيضانيين الحاكمين في شتى مناطق البلاد الموريتانية.

نريد أولا أن نستأنس ببعض كلام الدكتور ولد الحسن رحمه الله في كتابه آنف الذكر:

"*ومن السمات المشتركة بين هذه الإمارات في هذا القرن أنها شهدت كلها قريبا من بدايته تحولا كبيرا من أسرة مالكة إلى أخرى، إن لم يكن من قبيلة إلى أختها. فكأنما هي حركة تجديد قد عمت، فأخذت بزمام كل إمارة قوة ناشئة متحفزة أنجبت خلال القرن أعاظم الأمراء وانتهت قريبا من نهايته إلى الضعف والانحلال*"[67].

---

[65] رسالة دكتوراه مطبوعة: سنة 1995م، من طرف جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

[66] تمكن مراجعة ذلك في: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري – مساهمة في وصف الأساليب. أحمد ولد الحسن. طبعة جمعية الدعوة الإسلامية. سنة 1995م. ص(93-127).

[67] الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري – مساهمة في وصف الأساليب. أحمد ولد الحسن. طبعة جمعية الدعوة الإسلامية. سنة 1995م. ص95.

نقول: كان الأمراء البيضان، المتلقبون بالعرب، في مطلع هذا القرن كلهم من الحسانيين، إلا أميرا واحدا من أصل صنهاجي. لكن الأمراء، بمختلف أصولهم، كانوا يضعون نصب أعينهم مثلا قيمية عليا متشابهة، تعبر عنها منظومة قيم "اتمغفير".
ومن تلك القيم الرفيعة: العدل، توفير الأمن، كره الظلم، حب العلم، تقدير العلماء.
ولو عدنا في التاريخ قليلا إلى الوراء، لأمكننا في الحقيقة ملاحظة وجود مثل هذه التوجهات الخيرة عند كثير من أوائل القادة الحسانيين، لكن -ربما فقط- لم تتيسر لبعضهم فرص تطبيق تلك القيم في أرض الواقع.
نجد ملامح ذلك عند هيبة ولد نغماش البركني الذي كان قد رثى لحال زفانة عمياء وأحسن إليها، فجيش ذلك مشاعرها وشكرت صنيعه على طريقة الزفانين بمقام موسيقي خاص اسمته "هيبه"، وتقول فيه:

مرحبتِ هيبَ المعـلـومْ　　　لكريمْ اللي خـايـفْ الَّل
دبوس أولاد كـــرومْ　　　شيـخْ أولاد عـــبد الَّل

فتثبت له التحلي بالقيم المشتهرة من الكرم والرئاسة وتختار إبراز ما تحلى به رحمه الله من الخوف من الله. وهيبه –غفر الله لنا وله وللجميع- كان من قادة بني حسان في فتنة شرببه، أي أواخر القرن الحادي عشر الهجري.
ثم نجد ملامح التوجه الخير جلية عند الأمير أحمد بن هيبه، في القصيدة التي مدحه بها الشيخ اليدالي. وعند أعمر آكجيل التروزي في مرثية ولد رازكه له. وكلا الأميرين من أهل القرن الثاني عشر الهجري.
كما نجد عند دراسة جزء التاريخ السياسي من موسوعة ولد حامد إشارات متعددة إلى تكثف التوجه نحو منظومة قيم "اتمغفير" بتمثلاتها المختلفة مع اقتراب دخولنا إلى القرن الثالث عشر الهجري.
وإذا وصلنا إلى موضوع التميز القيمي ومظاهر الخيرية عند الأمراء البيضانيين في القرن الثالث عشر الهجري نفسه، فإننا نجد –على سبيل المثال لا الحصر- ما يلي:
في ملتقى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين نجد إعلى ول أعمر (1171هـ - 1213هـ)، في أولاد امبارك، الذي يقول عنه ولد حامد: أنه كان ملكا رفيع الذكر، نافعا للمسلمين.
ونجد في مطلع القرن الأمير محمد ولد امحمد شين (1208هـ -1236هـ) في إيدوعيش، الذي يزكي عدله العالم المجدد باب بن الشيخ سيدي، في كتابه حول إمارتي إدوعيش ومشظوف.
ثم نجد في لبراكنه ظاهرة المختار ابن سيدي (1256هـ - 1260هـ)، الذي كان أميرا مغفريا، فلما غربه الفرنسيون إلى الغابون، قام يدعو إلى الله، وأسلمت على يديه قرية غابونية؛ كما يقول عنه الخليل النحوي.
ثم نجد في الترارزه مثلا ظاهرة سيد ولد محمد لحبيب (1277هـ - 1288هـ)، السائس العادل، الذي لم يحارب في جميع ولايته، كما يورد ولد حامد في موسوعته.
وفي نهاية هذا القرن الثالث عشر الهجري أحمد ولد امحمد (1288هـ - 1308هـ) في آدرار، المعروف بأمير العافية. وهو الذي يصف الأديب محمد عبد الرحمن ولد المبارك

ولد اليمين كرمه وتوفيره للأمن في طلع مشهورة من الأدب الحساني يتردد فيه المقطع التالي:

من عافيتْ أحملْ امحمدْ   ول أحمدْ ما يكبظ لغيارْ
حدْ إل حدْ وُلا يعط حـدْ   إل حد إتل ماه لخبارْ

2.6 القرن 13هـ .. قرن العلماء الأفذاذ في بلاد شنقيط

لا نبالغ إذا قلنا إن القرن الثالث عشر الهجري كان عصر العلماء الشناقطة بلا نزاع، فلا نجد قرنا قبله ولا قرنا بعده فيه هذا العدد الكبير من مشاهير العلماء: في شتى إنحاء البلاد، وفي مختلف فروع العلم؛ فمن علماء هذا القرن بدون محاولة حصر وبدون ترتيب حسب معيار معين عدا تاريخ الوفاة .. وتبارك الله[68]:

المجيدري ولد حب الله اليعقوبي ت 1205هـ
الطالب أحمد بن محمد رار التنواجيوي ت 1210هـ
الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي ت 1219هـ
المختاربن بونه الجكني ت1220هـ
الشيخ سيد المختار الكنتي ت 1226هـ
حبيب الله ولد القاضي الإجيجبي ت 1240هـ
غالي بن المختار فال البصادي ت 1240هـ
حرمة ولد عبد الجليل العلوي ت 1243هـ
أحمد بن العاقل الديماني ت 1244هـ
عبد الله ولد سيد محمود الحاجي ت 1250هـ
سيد عبد الله ولد الحاج ابراهيم العلوي ت1255هـ
سيد محمد بن إعلي العلوشي الدواودي ت1256هـ
الطالب أحمد ولد إطوير الجنه الوداني الحاجي ت1265هـ
إدييجه الكمليلي ت 1270هـ
صالح بن عبد الوهاب الناصري ت 1271هـ
محمد (ولد الطلبة) اليعقوبي ت 1272هـ
أحمد الصغير المسلمي ت 1272هـ
محنض بابه بن اعبيد الديماني ت 1277هـ
الشيخ سيديا الكبير الانتشائي الأبييري ت 1284هـ
محمذ فال بن متالي التندغي ت1287هـ
سيد محمد بن سيد أحمد بن حبت الغلاوي ت 1288هـ
الشيخ محمد فاضل بن مامين القلقمي 1288هـ
محمد امبارك اللمتوني ت 1290هـ
الشيخ محمد المامي اليعقوبي من أهل بارك الله ت1292هـ
أوفى بن أجفغ منصر الشمشوي ت 1299هـ

---

[68] استقينا هذه الأمثلة من كتاب "بلاد شنقيط .. المنارة والرباط" للخليل النحوي.

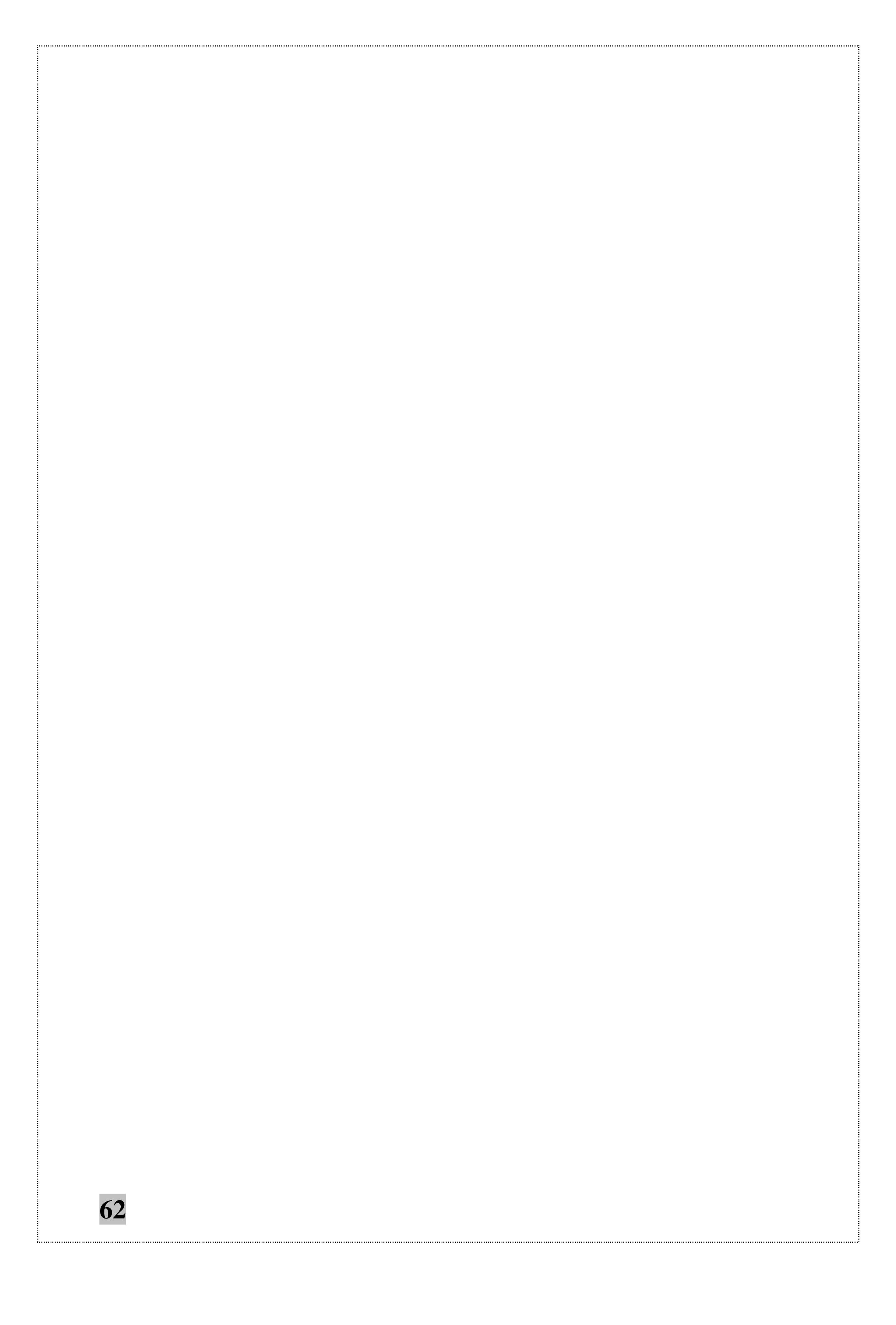
محمد ولد محمد سالم المجلسي ت 1302هـ

7 الجيل السابع ... ودخول المحتل

لقد ظل الأوروبيين بمختلف شعوبهم يتربصون الدوائر بالبيضان بدءا من القرن التاسع الهجري؛ يهدفون إلى احتلال بلادهم (بلاد الصمغ العربي) والنفوذ منها إلى بلاد السودان (بلاد الذهب). وأبطل الله كيد مختلف أجناسهم من برتغال وهولنديين وألمان وانكليز وأسبان وفرنسيين وردهم لقرون عديدة على أعقابهم خاسرين. ولما حانت بداية القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي، ليقضى الله أمرا كان مفعولا، تمكن الفرنسيون والأسبان من الدخول إلى مجالات البيضان، لتحقق سنة من السنن الإلهية في الكون[69]:
لما دبت الخلافات والفتن في داخل المجتمع البيضاني المسلم في نهاية القرن الثالث عشر، سلط الله عليهم عدوا للإسلام من خارجهم في بداية القرن الرابع عشر[70].

[69] راجع "التفسير الشرعي للتاريخ" في هذه الفترة عند: محمد الحسن ولد الددو، محاضرة "تاريخ الدعوة الإسلامية في موريتانيا"، شريط مسموع، متوفر على مواقع ألكترونية عديدة.

[70] يقول ولد حامد رحمه الله في جزء التاريخ السياسي من موسوعته: "سادت الفوضى والنهب والحرب بين القبائل. وفي صدر القرن 14هـ (أواخر 19 الميلادي) ازداد الطين بلة ولا سيما في بلاد الترارزة التي اجتاحتها الغارات. فجنحت طائفة من رؤسائها إلى تدخل فرنسا لتهدئة البلاد وضمان الأمن".



ملحق أول تابع لمسار تاريخ البيضان الموريتانيين:

تاريخ بني حسان قبل موريتانيا

العناصر:

1 الجيل الأول .. أسلاف بني حسان

ملاحظة حول المراجع في الهامش[71].

1.1 نسب بني حسان

قبائل بني حسان منحدرة من قبائل المعقل العربية. والمعقل يرفعون نسبهم[72] إلى الجعافرة، نسبة إلى جعفر بن أبي طالب[73] رضي الله عنه (توفي سنة 8هـ).

2.1 الجعافرة

أستشهد جعفر بن أبي طالب، الملقب بجعفر الطيار، في غزوة مؤتة سنة 8هـ.
وقد أعقب جعفر الطيار تسعة أولاد.
لثلاثة من أولاده عقب هم: جعفر الأصغر، ومحمد الأكبر، وعبد الله الأكبر[74] ومن هؤلاء نشأ الجعافرة وانتشروا.

---

[71] المراجع، التي رجعنا لها في هذا البحث، كثيرة؛ نذكر منها على سبيل المثال: تاريخ ابن خلدون؛ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى للناصرى؛ مقال للمؤرخ التونسي محمد المرزوقي (منازل الهلاليين في الشمال الإفريقي)؛ أثر القبائل العربية في الحياة المغربية لمصطفى أبو ضيف أحمد؛ قبائل المغرب لعبد الوهاب بن منصور؛ مقال للأستاذ محمد المختار ولد السعد (موريتانيا في العهد الحساني)؛ الرسالة الغلاوية للشيخ سيد محمد الكنتي، بتحقيق الأستاذ حماه الله ولد السالم؛ بحث قيد النشر حول تاريخ بلاد شنقيط للباحث الحسين ولد محنض.

[72] صح أن روايتهم حول نسبهم كانت كذلك، وذلك من خلال ما ذكره ابن خلدون(ت808هـ) في مقدمته، وإن لم يسلم هو بذلك. لكن لأن الأصل أن الناس مصدقون في أنسابهم، نحن نجنح هنا إلى اثبات الأصل الجعفري لهم، وعليه نفرع في السياق التاريخي، إن احتجنا لذلك. ويمكن مراجعة بعض ما رد به علماء عديدون من الشناقطة على مقولة ابن خلدون وأثبتتوا به جعفرية بني حسان في جزء الجغرافيا (ص 100 – 103) من موسوعة ولد حامد.

[73] جعفر بن أبي طالب، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أستشهد في غزوة مؤتة بأرض الشام سنة 8 هـ، وقد لقبه الناس بعد استشهاده بجعفر الطيار، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حزن عليه حزنا شديدا رأى فيما كشف الله له أن جعفرا له جناحان يطير بهما في الجنة مع الملائكة وهما مضرجان بالدم وقد أبدله الله يدان خيرا من يديه التي فقدَ.

ثم أن بني جعفر كانوا في أول عهدهم حول المدينة المنورة، ويبدو أن معظمهم ظل هناك حتى القرن 4هـ.
"وفي أواسط القرن 4 هـ وقع خلاف حاد مسلح بين بني علي وبني جعفر الطالبيين جميعا حول إمارة الحجاز، أدى في النهاية إلى نشوب حرب بينهم كانت سببا في نزوح طائفة كبيرة من بني جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إلى صعيد مصر"[75].

3.1 المعقل

المعقل هم حلقة الوصل بين الجعافرة الأولين وبني حسان الأخيرين.
رأينا أن طائفة كبيرة من الجعافرة وصلت إلى صعيد مصر في أواسط القرن 4 هـ. وإلى هذه الطائفة تحديدا أمكن إرجاع أصل المعقل، بعد أن جمع المحققون في مسار تاريخهم بين رواية المعقل بأن أصلهم جعافرة وبين ما ورد في المصادر التاريخية من ذكر للجعافرة في صعيد مصر في ما حول بداية القرن 5 هـ.

1.3.1 المعقل .. حلفاء لبني هلال

كان المعقل في صعيد مصر قد انحازوا إلى قبيلة بني هلال العربية القحطانية[76] وصاروا يدا واحدة معهم، حتى لتذكر بعض المصادر التاريخية أن نسابة بني هلال يستسهلون أن يعدوهم منهم[77]؛ وقد شرحنا كيف ثبت أنهم جعافرة، وهم إنما كانوا من الهلاليين مجازا بحكم تحالفهم معهم.

---

[74] تلخيصا من فصل بين أيدينا حول الجعافرة مصور من كتاب "موسوعة القبائل العربية – بحوث ميدانية وتاريخية"، محمد سليمان الطيب.

[75] نقلا عن كتاب: إشراقة اللؤلؤ والمرجان باثبات جعفرية وشرف بني حسان، ومثالية أمراء بني عثمان (آدرار). لمؤلفه الأستاذ الباحث المصطفي بن حبيب الرحمن. ونذكر أننا ما يوافق مقتضى كلام الأستاذ المصطفى في كتاب الاستقصا.

[76] ذكر ابن خلدون في تاريخه أن المعقل كانوا قد انحازوا إلى بني هلال من قديم؛ وذكر كذلك أنه لما هاجر المعقل مع الهلاليين نحو الشمال الإفريقي، نزل المعقل في الجزء الغربي من مجالات الهلاليين.

[77] ذكر ابن خلدون في بعض سياقات الحديث عن المعقل أن نسابة بني هلال يعدون المعقل منهم، كما ذكر الرواية الأخرى التي للمعقل أنفسهم حول جعفريتهم؛ ولم يسلم ابن خلدون في تاريخه بأي من الروايتين، بل أبدى رأيا له خاصا حول نسبهم. وقد سبق أن بينا كيف حسمنا لأنفسنا الخلاف حول نسب المعقل،

2.3.1 المعقل ضمن قبائل الموكب الهلالي

في ما حول سنة 443 هـ، والمعقل في صعيد مصر، وهم في حلف مع بني هلال، ومع بني هلال بنو سليم أخوتهم، حدث أمر مهم في تاريخ بلدان الفضاء المغاربي كلها(ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، الصحراء الغربية، موريتانيا)؛ إنه بداية هجرة هذه القبائل الثلاثة (بني هلال، وبني سليم، والمعقل) انطلاقا من صعيد مصر مغربين، مستهدفين السيطرة على القيروان (في دولة تونس الحالية)؛ وعلى إثر تلك الهجرة انتشروا عبر سياق تاريخي يمتد عبر قرون عديدة في مختلف أرجاء ما يعرف اليوم بالمغرب العربي، وكان لهم أثر كبير في ما وصلت إليه اليوم بلدان هذه المنطقة من التعرب.
هذه الهجرة تشتهر باسم "التغريبة الهلالية". ونسبت إلى بني هلال على سبيل التغليب فقط، وإلا فالمعقل وبنو سليم عاشوا معهم أحداثها. بنو هلال كانوا فعلا هم رواد تلك التغريبة، وأوفر القبائل الثلاثة المشاركة فيها عددا؛ كما أن اسمهم اشتهر بالارتباط بما عرف بعد ذلك بالآداب الهلالية، وهي آداب شعبية لهم طبق الآفاق ذكرها على إثر تغريبتهم تلك، ويذكرون فيها أخبارا وبطولات كثيرة لهم.

3.3.1 وصول المعقل إلى نواحي ملوية وتافيلالت

إنطلاقة قبائل الموكب الهلالي كانت حين أغرى العبيديون بالقاهرة هذه القبائل بالهجرة إلى افريقية (تمثلها اليوم دولة تونس)، حيث وعدوهم بحكمها وبخيراتها، إن هم أسقطوا حكم المعز بن باديس (من بني زيري) في القيروان. وكان المعز بن باديس هذا في أول عهده مواليا للعبيديين (وهم شيعة في الأصل)، لكنه بعد فترة قرر الانفصال بافريقية عن الولاء لهم، متجها بها نحو مبايعة الخلافة العباسية السنية سنة 438 هـ.

***

وصلت قبائل الموكب الهلالي إلى إفريقية وكانت لهم مع المعز وقائع؛ وتمكنوا سنة 449 هـ من الاستيلاء على القيروان. وتمكن مراجعة باقي تفاصيل صراعاتهم مع الزيريين، ومع الحماديين، ثم مع الزنانيين بعد ذلك، في مظانها من كتب التواريخ.

***

المعقل –موضوع حديثنا- من ثَمَّ نزحوا عن إفريقية مع فرع الأثبج من الهلاليين ووصلوا معهم إلى ضواحي الزاب[78] (في شرق دولة الجزائر الحالية).

***

ظل المعقل على العموم أوفياء لحلفهم مع الهلاليين، وظلوا يشايعون مختلف فروعهم طيلة التغريبة.

فأثبتنا لهم ما أثبتوه لأنفسهم من الجعفرية؛ وإنما نسوق رواية الهلاليين هذه لما لها من دلالة واضحة على عمق صلة والتحام المعقل بهم.

[78] إقليم في الشرق الجزائري: ماحول مدينة بسكرة الحالية.

وعندما وصل مد التغريبة إلى بلاد المغرب الأقصى (تقريبا تمثلها اليوم أراضي دولة المغرب)، نزل المعقل بآخر مواطن الهلاليين من جهة الغرب، في نواحي ملوية ورمال تافيلالت.
هذه النواحي المذكورة (ملوية + رمال تافيلالت) تقع بمصطلح جغرافيا اليوم في الجزء الشرقي من المغرب، ممتدة من قرب الشاطئ المتوسطي في الشمال في اتجاه الجنوب إلى حيث بدايات المجال الصحراوي، بموازاة مع الحدود الجزائرية المغربية.
وصول المعقل إلى تلك النواحي كان في أواسط القرن السادس الهجري، في عهد الموحدينن وربما قبل الأربعينيات من ذلك القرن بقليل[79].

2 الجيل الثاني .. وفيه دوران تسمية بني حسان

كان المعقل عند وصولهم إلى المغرب قليلي العدد، "يقال إنهم لم يبلغوا المائتين"[80]؛ و"إنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم ..."[81]؛ فقد انضم مثلا إلى المعقل بعض الهلاليين أحلافهم القدماء، وفي محط رحلهم الجديد ملوية وتافيلالت كان المعقل في جوار مباشر مع بطون كثيرة من قبيلة زناتة.
المعقل مع مرور الزمن عفوا وكثروا وأنبتوا في صحاري المغرب الأقصى، فعمروا رماله وتغلبوا على فيافيه.

***

وازدادت جموع المعقل أكثر بعد انتقال زناتة المغرب إلى الأمصار والمدن مع قيام دولهم[82]؛ فتفرد المعقل بالبيداء وملكوا قصور زناتة بالصحراء، مثل قصور السوس وتوات وتامنطيت ووراكلان وتاسبييت وتكورارين. وكل منها يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وعيون، وأكثر سكانها من زناتة، فرض المعقل عليهم الأتاوات؛ وصارت لهم جباية يعتد بقيمتها.

***

---

[79] لأننا نجد في المراجع إشارة إلى أنهم "أشتركوا في ثورة محمد بن هود على الموحدين في السوس سنة 541هـ"، حسب ما أورد الدكتور محمد المختارولد السعد في مقاله المتخصص بعنوان "موريتانيا في العهد الحساني".

[80] كذا في تاريخ ابن خلدون.

[81] نقلا عن ابن خلدون أيضا.

[82] نقصد قيام دولتين لزناتة في ظروف زمنية متقاربة في صدر القرن 7 هـ: دولة بني عبد الواد بتلمسان بدء من يغمراسن الأول (تولى 633هـ)؛ ودولة بني مرين بفاس بدء من أبي يوسف يعقوب (تولى 656هـ).

وتشكل الفضاء المعقلي الكبير حول بطون رئيسية ثلاثة، هي: بني حسان، بني منصور، بني عبيد الله[83]؛ وهناك بطون ثلاثة أخرى تذكرها المصادر التاريخية كذلك في عداد المعقل: الثعالبة، الشبانات، الرقيطات.

***

أما عن فترة دوران تسمية بني حسان تحديدا، بحيث أصبحت علما على بطن من المعقل، فإن قرائن عديدة تشير إلى أن ذلك كان في صدر القرن السابع الهجري.

***

ظل بنو حسان مع باقي إخوتهم، يشغلون من مجالات المعقل ناحية ملوية الشمالية إلى بلاد الريف[84]، وذلك حتى سنة 651هـ، حين بدا لبني حسان الانتقال غربا إلى السوس الأقصى (جنوبي مدينة أغادير الحالية، مما يلي المحيط)، بعد أن استصرخهم منشق عن سلطة الموحدين، اسمه علي بن يدر[85].

3 الجيل الثالث .. في السوس الأقصى

في سنة 651 هـ، وبنو حسان هناك في الركن الشمالي الشرقي من بلاد المغرب الحالية (نواحي ملوية وبلاد الريف)، استنجد بهم علي بن يدر –كما أسلفنا-، ودعاهم لنصرته ومحالفته، فالتحقوا به، وقفا أثرهم بعيد ذلك إخوتهم الشبانات، من المعقل كذلك[86]. و قد

---

[83] بعض المراجع –كابن خلدون- تستخدم أحيانا لفظ "ذوي" بدل "بني" للتعبير عن البطون المذكورة.

[84] نشير هنا إلى أنه من المتصور جيدا –على عادة القبائل البدوية العربية آنذاك- أن بني حسان كانوا في الشتاء ينتجعون أكثر في اتجاه صحاري المغرب الواقعة جنوبييهم، ثم يعودون من مشاتيهم إلى مواطنهم في الشمال.

[85] ورد عند ابن خلدون ما يلي: " ... كان أبو محمد بن يونس من علية وزراء الموحدين من هنتاتة وكان المرتضى قد استوزره ثم سخطه وعزله سنة خمسين وستمائة وألزمه داره بتامصلحت وفر عنه قومه وحاشيته وقرابته. وكان من أهل قرابته علي بن يدر من بني باداس ففر إلى السوس وجاهر بالخلاف سنة إحدى وخمسين ونزل بحصن تانصاصت سفح الجبل حيث يدفع والي السوس من درن وشيده وحصنه وتغلب على حصن تيسخت من أيدي صنهاجة وشيده وأنزل فيه ابن عمه حمدين. ثم تغلب على بسيط السوس وجأجأ ببني حسان من أعراب المعقل من مواطنهم من نواحي ملوية إلى بلاد الريف فارتحلوا إليه وعاث بهم في نواحي السوس ".

[86] كانت منازل بني حسان والشبانات وأحلافهم كما في النص التالي، نقلا عن ابن خلدون:" ... وأرض السوس مجالات لكزولة ولمطة. فلمطة منهم مما يلي درن وكزولة مما يلي الرمل والقفر. ولما تغلب المعقل على بسائطه اقتسموها مواطن فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن. وصارت قبائل لمطة من أحلافهم وصارت

كان ابن يدر هذا عاملا لدولة الموحدين بتارودانت بالسوس الأقصى، وأراد أن يستغل ضعف الموحدين في هذه الفترة ويقيم إمارة مستقلة، وكان الموحدون في تلك الفترة قابعين تحت هجمات طلائع دولة بني مرين، التي ستخلفهم في ملكهم.

***

بذلك يكون قد حصل لدينا العلم بوصول بني حسان إلى السوس الأقصى في سنة 651 هـ.

بنو حسان بعد وصولهم إلى السوس الأقصى، صار شيوخهم ينزلون في بلد نول، في منطقة واد نون المعروفة اليوم، قرب مدينة قلميم المغربية، أما جموع عامتهم، فظلت تتحرك في مجال يمتد من البحر المحيط غربا إلى وادي درعة شرقا. وفي نواحي درعة كان الطرف الشرقي من مجال بني حسان ملاصقا أو متداخلا مع الطرف الغربي من مجال إخوتهم بني منصور، وتحديدا مع مجال فرع أولاد الحسين من بني منصور[87].

فلذلك ظل بنو حسان بعد انتقالهم إلى السوس الأقصى، يمثلون الحدود الغربية للفضاء المعقلي الكبير، وجزء لا يتجزأ منه؛ وكانت كتب التواريخ تعنيهم في بعض الأحيان عندما تتحدث عن المعقل[88].

كزولة من أحلاف ذوي حسان. والأمر على ذلك لهذا العهد (أي القرن 8 هـ) وبيد الله تصاريف الأمور. ...".

فائدة: الحلف المذكور لكزولة مع بني حسان، يقال أنه هو أصل تشكل قبيلة تكنه الصحراوية، القاطنة اليوم في ما حول وادي نون، وأنها اليوم حلفان: الأول – آيت بله (عثمان) (وأصلهم من كزولة)؛ والثاني- أيت الجمل (وأصلهم من بني حسان). ويقال أن آيت بله ينتسبون إلى عبد الله بن ياسين. والله أعلم. فائدة أخرى: لقد قاومت جزولة سيطرة بني حسان على مجالاتها بالسوس الأقصى، ووقعت بينهم أثناء ذلك حروب؛ هذه الحروب "استلحم" فيها بنو حسان بعض جزولة، فلعل ذلك هو أصل فئة "اللحمه". وإذا علمنا أن جزولة من صنهاجة، وأن كلمة صنهاجة كانت قديما –بدون تحرج- مرادفة لكلمة صناكة، فيمكننا أن نتصور أن المهزومين المستلحمين من جزولة لقبوا بصناكة، تمييزا لهم عن جزولة "المسالمة" التي دخلت مع بني حسان في أحلاف يقدرها الحسانيون، كالحلف الذي كان نواة لتشكل قبيلة تكنه.

[87] اتصال المجال المعقلي بهذه الصورة التي ذكرنا، يؤيده نص ابن خلدون، الذي يذكر في سياق الحديث عن المعقل في عهده (القرن 8هـ): المعقل "لهذا العهد (يعني القرن 8هـ) من أوفر قبائل العرب، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى؛ مجاورون لبني عامر بن زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان؛ وينتهون إلى البحر المحيط".

[88] نود أن نشير إلى أن غالب إطلاق اسم المعقل –كما لاحظنا- ينصرف إلى أولاد أبي الحسين من بني منصور من المعقل. والسبب في ذلك ربما يرجع إلى أن أولاد الحسين، هؤلاء، كانوا يشكلون غالب بني منصور؛ الذين كانوا بدورهم هم أوفر بطون المعقل عددا. يضاف إلى ذلك أن أولاد الحسين مجالاتهم كانت تشمل نواحي تافيلالت؛ وتافيلالت منطقة كانت لها دائما عبر التاريخ أهمية خاصة، من حيث أنها كانت فيها

***

أحداث الفترة التي كان فيها بنو حسان لا يزالون مرتبطين بالسوس الأقصى سنقتطف منها للقارئ ما له علاقة بالحراك الاجتماعي بوجه خاص[89].

***

665هـ بنو حسان يفدون على الواثق بالله الموحدي في فترة تواجد له بالسوس:

في البيان المغرب لابن عذاري المراكشي أن الواثق بالله أبوفارس، في آخر عهد الموحدين، تحرك نحو السوس لإصلاح شأنه، وإرغام علي بن يدر على الدخول في طاعته. ولا نهتم في هذا السياق بما جرى من مد وزجر في محاولاته تلك، بقدر ما يهمنا هنا البحث في دلالة نصين وردا عند ابن عذاري:

النص الأول: أنه في تلك السنة 665هـ "وفي عاشر شوال ودع (أي الواثق بالله) أشياخ الساقية الحمراء والوافدون من بني واوزجيت وغيرهم وانصرفوا بحفاظهم إلى بلادهم[90]".

هذه إذا إشارة إلى الساقية الحمراء وإلى أشياخ وافدين منها. يستوقفنا هذا النص لأن مراجع عدة تنسب إلى ابن عذاري أنه ذكر *" أن بني معقل كانوا قد اجتازوا الساقية الحمراء سنة 664هـ"* .

لقد راجعنا كثيرا كتاب ابن عذاري في السياقات والصفحات المحال عليها، للأحداث ما بين 664هـ و665هـ، ولم نجد ما ينص على اجتياز بني حسان للساقية الحمراء في هذه الفترة، بل نكاد الآن نجزم أن في الأمر توسعا لبعض الباحثين في استنطاق نص ابن عذاري أعلاه، فوقع في وهم، نقله عنه من نقله من الباحثين من بعده. النص كما ترى ليس صريحا في أن الأشياخ المذكورين كانوا من بني معقل؛ فليس استخدام لفظ "بني" مشيرا بالضرورة إلى قبيلة عربية معقلية، بل إن المسمى "واوزجيت" يشير إلى خلاف ذلك.

النص الثاني لابن عذاري: *" وفي السابع والعشرين (=من ذي الحجة سنة 665هـ) وفد على الواثق بالله خلق كثير من المعقل، بأموالهم وعيالهم، وخرج العسكر للقيا هم[91]* . هذا النص الثاني لابن عذاري يدل أكثر على أنه لازال للمعقل التصاق وثيق بالسوس.

مدينة سجلماسة، التي عرفت كمركز تجاري أساسي، على الساحل الشمالي للصحراء، ومن سجلماسة كانت تسير القوافل التجارية من وإلى بلاد السودان.

[89] استخدمنا بهدف قنص النصوص –التي سنوردها هنا– طريقة البحث الإلكتروني، ومرجعنا لكتب التاريخ كانت نسخة البرنامج المكتبي "الجامع الأكبر للتراث الإسلامي"، من شركة العريس للكمبيوتر، الإمارات. وكل النصوص على ما نذكر كانت مقتبسة من تاريخ ابن خلدون.

[90] ص 466. البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (القسم الثالث: تاريخ الموحدين). ابن عذاري. دار كريماديس للطباعة. سنة 1960.

[91] ص 469. البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (القسم الثالث: تاريخ الموحدين). ابن عذاري. دار كريماديس للطباعة. سنة 1960.

نقول: إن المعقل –كما نعتقد- لم يبدؤوا بطرق الساقية الحمراء إلا بعد حوالي قرن من التاريخ المذكور في هذين النصين. وسيؤكد لنا ذلك نص نحسبه صريحا بهذا الشأن، سنصل إليه قريبا بإذن الله.

***

668هـ وبداية المشاكل مع بني يدر:

كان بنو حسان قد حالفوا علي بن يدر، كما قلنا، وساعدوه في تثبيت إمارته في وجه أطماع الموحدين.
ثم بعد ذلك:
"لما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين، استبد علي بن يدر بملك السوس؛ واستولى على تارودنت، وإيفري، وسائر أمصاره وقواعده ومعاقله؛ وأرهف حده للأعراب (المقصود: بنو حسان والشبانات) فزحفوا إليه، وكانت عليه الدبرة، وقتل سنة ثمان وستين (668هـ)".

***

أول الحسانيين وصولا إلى موريتانيا أبهنضام من بني عبدالله بن حسان:
يظهر لنا أن اضطراب الوضع في السوس الأقصى خلال هذه الفترة (بحر القرن 7هـ)، كان وراء انطلاق الرجال الخمسة، الذين هم الأجداد المؤسسون لتشمشه، القبيلة الزاوية الشهيرة؛ انطلقوامن تارودانت إلى آدرار في موريتانيا. وكان ضمن هؤلاء الرجال الخمسة، من رحم الحسانيين وبني عمومتهم، أبهنضام، حفيد عبد الله بن حسان. وهذا الرجل هو الذي انحدرت من عقبه قبيلة اليعقوبيين الشمشوية المعروفة اليوم (إديقب، وأهل بارك الله). والذي تشير إليه قرائن الأحوال أن بني عبد الله بن حسان يومها، كانوا قد انزووا عن بقية بني عمومتهم من الحسانيين، واتجهوا أكثر نحو ما سيعرف لاحقا بالشيم الزاوية[92].

***

686هـ أحد الخارجين على السلطان المريني يحتمي ببني حسان والسلطان المريني أبو يعقوب يثخن فيهم:

"... ثم ارتحل السلطان (=أبو يعقوب يوسف الذي تولى من 685هـ إلى 706هـ) في رمضان من سنته إلى مراكش، لتمهيد أنحائها وتثقيف أطرافها؛ واحتل بها في شوال؛ واعتمل النظر في مصالحها.
ونزع خلال ذلك طلحة بن يحيى بن محلى البطوي إلى بني حسان من المعقل، وخرج على السلطان، ودعا لنفسه. وعقد السلطان لمنصور ابن أخيه أبي مالك على العساكر، وعهد له بولاية السوس، وسرحه لاستنزال الخوارج، ومحو آثار الفساد. وارتاب بمكان أخيه عمرة فغربه إلى غرناطة، فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها. فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب وغزا عرب المعقل (=بني حسان)، وأثخن فيهم؛ وقتل

[92] راجع بهذا الخصوص: نصوص من التاريخ الموريتاني للشيخ محمد اليدالي، مع تحقيق الأستاذ محمذن ولد باباه؛ بيت الحكمة قرطاج. 1990.

طلحة بن محلى في بعض حروبهم، لثلاث عشرة من جمادى سنة ست وثمانين". ثم نهض السلطان في رمضان لغزو المعقل (=على ما يبدو أولاد الحسين من بني منصور) بصحراء درعة بما أضروا العمران وأفسدوا السابلة. وسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الفرسان. ومر على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن. وأدركهم بالقفر، نواجع فأثخن فيهم بالقتل والسبي. واستكثر من رؤوسهم، فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس. وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوال".

***

686هـ السلطان المريني أبو يوسف يثخن ثانية في بني حسان ويحاربهم:

" ... أثخن فيهم (= في بني حسان) يوسف بن يعقوب (= بعبارة أخرى أبو يعقوب بن أبي يوسف) ثانية، سنة ست وثمانين، وحاربتهم جيوشه أيضا أيام لحق بهم بنو كمي من بني عبد الواد وخالفوا على السلطان فترددت إليهم العساكر واتصلت الحروب".

***

فرقة من البرابيش تصل إلى موريتانيا :

يرجع بعض الباحثين انزياح بني حسان إلى الصحراء الغربية، ومنها إلى موريتانيا، تحديدا إلى هذين الحدثين الأخيرين سنة 686هـ؛ وفي بعض الكتابات أن المرينيين شردوا بني حسان في الصحراء.

والذي ظهر لنا من الدراسة المعمقة للمسارات المختلفة التي سلكها بنو حسان إلى وداخل موريتانيا، واستندنا في ذلك إلى نصوص عدة، لعل أشهرها نصوص الشيخ محمد اليدالي؛ ما يظهر لنا إذا هو أن فرقة واحدة، وواحدة فقط، ألجأتها ضغوط المرينيين إلى أعماق الصحراء. وقد كانت من البرابيش. لقد وصلت هذه الفرقة، فعلا إلى أعماق الصحراء، وظلت مع أنباط القبلة لفترة طويلة، وشاركت لخبابشة ولعزيزات منهم نمط حياتهم[93]؛ وذلك كله قبل أن يحين زمان دخول كبريات المجموعات الحسانية إلى موريتانيا، الذي سيتم لاحقا في القرن التاسع الهجري.

***

حال السوس سنة 776هـ:

" ... ورجع السوس إلى حاله (أي من الاضطراب). وهو اليوم[94] ضاح من ظل الدولة، والعرب يقتسمون جبايته، ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة، قبائل الجباية.

---

[93] السياق التاريخي الذي وردت فيه إشارة إلى قدم تواجد البرابيش مع لخبابشة ولعزيزات من أنباط القبله، تمكن مراجعته عند الشيخ محمد اليدالي، في كتاب: نصوص من التاريخ الموريتاني للشيخ محمد اليدالي، مع تحقيق الأستاذ محمذن ولد باباه؛ بيت الحكمة قرطاج. سنة 1990. ص 63.

[94] هذا النص ورد عند ابن خلدون؛ ونحن نفسره بأن السوس بقي تابعا للسلطان المريني حتى سنة 776هـ. ذلك أننا نجعل كلمة "اليوم" في كلام ابن خلدون حول السوس مقابلة لهذا التاريخ. وسبب ذلك أن ابن خلدون كان قد بدأ في تأليف كتابه إبان انعزاله في قلعة ابن سلامة بالمغرب الأوسط بدء من هذه السنة (776 هـ)؛ فهي بذلك أول تاريخ محتمل لما يؤرخ حوله. وابن خلدون بدء من هذا التاريخ ظل يضيف إلى

والظواعن منهم يقتسمونهم خولاً للعسكرة مثل كزولة مع بني حسان وزكرز ولخس من لمطة مع الشبانات هذه حالهم لهذا العهد" .

***

بنو حسان كانوا في نهاية القرن الثامن الهجري
لا يتجاوزون الساقية الحمراء جنوبا:

في نهاية القرن الثامن الهجري(سنة 776هـ فما بعدها) كانت الساقية الحمراء لا تزال هي منتهى ما يصل إليه بنو حسان جنوبا؛ كما يؤكد ذلك النص التالي لابن خلدون:

" ... وهذا الوطن قبلة جبال درن، ذو عمائر وقرى ومزارع وفدن وأمصار وجبال وحصون؛ يخترقه وادي السوس، ينصب من باطن الجبل إلى ما بين كلاوة وسكسيوة، ويدفع إلى بسيطه، ثم يمر مغرباً إلى أن ينصب في البحر المحيط؛ والعمائر متصلة حفافي هذا الوادي ذات الفدن والمزارع وأهلها يتخذون فيها قصب السكر. وعند مصب هذا الوادي من الجبل في البسيط مدينة تارودانت. وبين مصب هذا الوادي في البحر ومصب وادي ماسة، مرحلتان إلى ناحية الجنوب، على ساحل البحر؛ وهنالك رباط ماسة الشهير، المعروف بتردد الأولياء وعبادتهم. وتزعم العامة أن خروج الفاطمي منه. ومنه أيضاً إلى زوايا أولاد بنو نعمان، مرحلتان في الجنوب كذلك، على ساحل البحر؛ وبعدها على مراحل مصب الساقية الحمراء، وهي منتهى مجالات المعقل في مشاتيهم" .

وفي سياق آخر لدى ابن خلدون، أن بني حسان لعهده *" ينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من جدالة ومسوفة ولمتونة*[95] .

4 الجيل الرابع .. على مشارف موريتانيا

1.4 بنو حسان مطلع القرن التاسع الهجري

كتابه، وينقحه، حتى قبيل وفاته (قيل استمرت مراجعته له حتى 792 هـ، وقيل بل حتى 799 هـ). والمراحل الإجمالية لتأليف مقدمة بن خلدون، هي ثلاث: مرحلة قلعة ابن سلامة (776 – 780 هـ)، مرحلة افريقية (780 هـ - 784 هـ)، مرحلة القاهرة (784 هـ - قبيل وفاته). وتوفي ابن خلدون بعد ذلك سنة 808 هـ.

[95] ملاحظة: نحن شخصيا لا نحمل محمل الجد، هذا التفصيل من ابن خلدون، حول من كان بنو حسان يلقونهم هنالك في الرمال؛ ذلك أننا لم نلمس، ونحن نقرأ السياقات المختلفة، التي تحدث فيها ابن خلدون عن الملثمين، أنه كان فعلا على إطلاع واسع بما يجري في مجالاتهم؛ ويظهر لنا أنه، إنما اعتبر أن مواطن الملثمين لا زالت لعهده على ما كانت عليه أيام المرابطين؛ ولقد سقطت دولتهم سنة 541هـ، كما علمتَ.

يورد الباحث الحسين ولد محنض، في بحث له –قيد النشر- بعنوان "تاريخ بلاد شنقيط"، أنه مع حلول القرن التاسع الهجري كان بنو حسان يشغلون المنطقة الممتدة ما بين إكيدي الشمالي إلى المحيط الأطلسي. ويعني ذلك بعبارة أخرى: الساقية الحمراء + إيكيدي الشمالي الواقع شرقيها.
وهو بذلك يعزز ما لدينا من تصور بأن بني حسان كانوا لا يزالون إجمالا على مستوى الساقية الحمراء (=حوالي خط العرض 27° شمالا)، ثم نفهم من رأيه إضافة إلى ذلك أن بني حسان مع حلول القرن التاسع الهجري كانوا قد توسعوا في انتشارهم أكثر نحو الشرق: من الساقية الحمراء في اتجاه إيكيدي الشمالي.
وأورد المختار ولد حامد، في التاريخ السياسي، ص 80، أن بني حسان قبل دخولهم إلى الصحراء الموريتانية "نزلوا أولا إيكيدي"[96].
فبنو حسان الآن معسكرون هناك، في أقصى الشمال الشرقي من البلاد الموريتانية.

2.4 دخول بني حسان إلى موريتانيا .. وتموقعهم

المراجع التاريخية المحلية تثبت لنا أن القرن التاسع الهجري تحقق فيه لبني حسان دخول الأراضي الموريتانية. وفي اجتهادنا الشخصي بعد مقارنة معلومات تلك المراجع أن بني حسان دخلوا على النحو التالي:
بداية.. أصبح بنو حسان آنذاك منقسمين إلى خمس وحدات حربية: أولاد دليم، لودايه، لبرابيش، الرحامنه، أولاد أعمُرُ. ثم كانت للودايه منهم أربعة أجنحة: أولاد رزق، أولاد اعروق، أولاد الناصر، أولاد عثمان بن مغفر.
ثم.. دخلت وحداتهم الحربية إلى الأراضي الموريتانية بطرق مختلفة، في ثلاث مجموعات.

***

المجموعة الأولى:

وتشمل أولاد رزق، ومعهم أولاد اعروق، ومعهم كذلك أولاد داود بن عمران من بني عثمان بن مغفر. هذه المجموعة الأولى تمكنت بسهولة من دخول البلاد، ووصلت في صدر القرن 9 هـ إلى القبله: أولاد رزق حالفوا قبيلة تندغة الزاوية، والباقون ربما كانوا قد والوا بعض أنباط القبله (الصنهاجيين) من أهل العسكرة.
وجد أولاد رزق أمامهم فرقة من لبرابيش، تلك الفرقة التي سبق وأن ذكرنا ظروف اتصالها بأنباط القبله في القرن السابع الهجري، ولما جاء أولاد رزق قاموا بإزعاج هذه الفرقة عن مجال سيطرتهم بالقبله، فاتجهت نحو الشرق، لتلتحق فيما بعد بباقي

---

[96] المقصود هنا هو إيكيدي الشمالي، الذي طرفه الموريتاني في ولاية تيرس زمور، شرقي بير أم اكرين، وطرفه الآخر بالجزائر؛ وليس المقصود طبعا إيكيدي الذي في ولاية الترارزة.

البرابيش. وكذلك أزعج أولاد رزق بني عمومتهم أولاد اعروق، الذين أتوا في مجموعتهم، فتوجه أولا اعروق نحو شرق البلاد الموريتانية.

***

المجموعة الثانية:

وفيها كل من: أولاد الناصر، ولبرابيش، وأولاد أعمر؛ هؤلاء فتح لهم أولاد الناصر مجال الدخول إلى موريتانيا عبر دخولهم في حلف شهير مع سيد امْحمد الكنتي الكبير:
بداية ذلك ما أورده "صاحب الغلاوية"[97] من أن سيد امحمد الكنتي الكبير نشأ في أخواله من إبدوكل (=من لمتونة من صنهاجة)، وهم يومئذ متغلبون على الصحراء ومن فيها إلى نواحي السودان. ثم ارتحل مغاضبا لأخواله.
ثم في سياق آخر أنه، بعد رجوعه من رحلته لطلب العلم، استوطن "*الصحراء ما بين تيرس إلى الساقية الحمراء*" بمن معه من تلامذته. ولعلنا تبسيطا يمكن أن نعبر عن المقصود هنا بنواحي ما يعرف اليوم ببير أم اكرين، فهي ينطبق عليها ذلك، مع أنها في الحقيقة إلى تيرس أقرب.
ثم في الغلاوية أيضا ما معناه أن سيد امحمد كان هناك محترما مكرما عند بني حسان من جهة، وعند القبائل المرابطية اللمتونية من جهة أخرى (=من داخل الأرض الموريتانية).
ثم ترد عند المختار ولد حامد، ناقلا عن صاحب الغلاوية بتصرف، قصة هزيمة أولاد الناصر ومن حالفهم من الحسانيين لإبدوكل، وفيها:
.."فورد عليه (=سيد محمد) غزاة من أولاد الناصر –وقد بلغتهم مغاضبته لأخواله- وطلبوه أن يدعو الله لهم بملك لمتونة (= دولة إبدوكل)، "فقال دعوت الله عليهم بذهاب الدولة، وإيهان الصولة، فأجابني فيهم. (...) وتألب بنو حسان –بمن انضاف إليهم- فصبحوا لمتونة وهم غارون. فانتدب لقتالهم من يليهم من الأحياء، واشتغل من عداه بأشغالهم، استهانة بشأنهم واستخفافا بصولتهم. فهزموا من يليهم لأول حملة، وركبوا ظهورهم مع من وراءهم ممن لم يستعد لحربهم، فهزموهم هزيمة لم تبق منهم على مجتمع، وأبقوا منهم البقايا المدعوة (باللحمة)، ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه[98]".
ورغم أن هذه القصة تصور تغلب أولاد الناصر على إبدوكل كأنه تم سريعا، فإن روايات أخرى تقول إن الحرب دامت 20 سنة.
كانت هذه الحرب في صدر القرن التاسع الهجري في رأي لبعض الباحثين[99]، وربما في عجزه كما في رأي للبعض الآخر[100].

---

[97] الرسالة الغلاوية. لسيد محمد بن سيد المختار الكنتي. تحقيق حماه الله ولد السالم. طبعة معهد الدراسات الإفريقية بالرباط.

[98] المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص 80.

[99] هذا رأي للدكتور حماه الله ولد السالم: نتذكر أن ذلك هو مضمون بعض كتاباته.

[100] هذا رأي للباحث الحسين ولد محنض: كما في بحثه قيد النشر تاريخ بلاد شنقيط.

بعد سقوط إبدوكل أصبح الطريق سالكا أمام أولاد الناصر، ولبرابيش، والرحامنة، وأولاد أعمر، ليتقدموا من ثمَّ شيئا فشيئا ويتوطنوا المناطق الشرقية من البلاد الموريتانية.

***

تنبيه:

أولاد دليم لا ندري إن كانوا قد شاركوا في حرب إبدوكل. والمهم أنهم اتجهوا إلى الصحراء الغربية، وأنهم بعد فترة دخلت منهم مجموعات إلى موريتانيا، هم اليوم من سكان مناطقها الشمالية.

***

المجموعة الثالثة:

وهم جناح أولاد عثمان بن مغفر[101]، أو على الأصح الباقون منه، بعد رحيل أولاد داود بن عمران منهم ضمن المجموعة الأولى؛ هؤلاء لم يشاركوا في الحرب، وقد بقوا في نواحي إيكيدي حتى أواخر القرن العاشر الهجري، ثم انتقلوا منه إلى تازيازت، واتجهوا بعد ذلك إلى أرض القِبله.

3.4 رابط إلى مسار "تاريخ البيضان الموريتانيين"

ما أن إكتمل دخول بني حسان إلى موريتانيا في أواخر القرن التاسع الهجري، حتى بدأت المراجع تتحدث في نفس الفترة عن سيطرتهم سياسيا على معظم البلاد الموريتانية.

كانت المنطقة التي تلي المحيط الأطلسي تحت سيطرة لودايه (والمقصود بهم فرع أولاد رزق تحديدا)، وتليهم من جهة الشرق منطقة البرابيش، ثم بعد ذلك منطقتان للرحامنة وأولاد أعمر. ونذكر أن أولاد دليم كانوا حينها متمركزين في الصحراء الغربية (في إقليم وادي الذهب أساسا).

***

انتهى المراد إيراده من تاريخ بني حسان؛ وبخصوص تاريخ بني حسان بعد دخولهم إلى موريتانيا على القارئ الرجوع إلى مسار "تاريخ البيضان الموريتانيين" بدء من مطلع القرن العاشر الهجري.

---

[101] يورد الباحث الحسين ولد محنض في بحثه "تاريخ بلاد شنقيط"، أن بني عثمان بن مغفر لم يشاركوا في حرب إبدوكل. ويفسر ذلك بأنه كان لبعض أولاد عثمان بن مغفر خؤولة من إبدوكل، يعني بذلك الذين سيعرفون لاحقا بأولاد الصناكيه.



ملحق ثاني تابع لمسار تاريخ البيضان الموريتانيين:

المجموعة البيضانية: الحراطين

تنبيه

نحن لن نتمكن هنا من كتابة تاريخ متكامل لهذه المجموعة البيضانية، بل إننا فقط سنبوب على ما أمكننا جمعه من معلومات.

وعسى أن يكون هذا المبحث بمثابة لبنات تأسيسية تُبنى عليها بحوث أخرى، تتناول الموضوع بشكل أعمق.

العناصر:

1 الأصول الأولى
2 نشأة تسمية "الحراطين"
3 الفوج الأخير من الأرقاء
4 ليس كل الحراطين .. أصولهم من الموالي
5 كلام حول التسميات المختلفة
6 الحراطين في عرف المجتمع البيضاني هم من البيضان
7 إلغاء الرق رسميا من موريتانيا

1 الأصول الأولى

لو غصنا في أعماق التاريخ بنحو ثلاثة عشر قرنا لوجدنا أنفسنا عند جيل البيضان الأول، صنهاجة أهل بلاد إنبية، وقد من الله عليهم لتوهم بوصول نور الإسلام إلى بلادهم، ولرأينا بين ظهرانيهم مجموعة من الأرقاء يسمونهم تْكُرنْ[102].
ولرأيناهم كذلك وقد بدأت جهودهم تتجه نحو التمكين لدين الله بفتوحات في من حولهم من أمم الزنوج.

***

ثم لو نظرنا إلى أولئك الصنهاجيين بعد نحو قرن من إسلامهم، فسنجد أنه قد صارت في عدادهم مجموعات سودانية مختلفة، تشترك معهم في وحدة الدين واللغة، ولم يعد عليها أي رق، لكنها مع ذلك بقيت تساكن مختلف المجموعات الصنهاجية وتواليها؛ هؤلاء هم أول جيل من الموالي المعتقين، وقد استحدث لهم الصنهاجيون اسم "هرْضَنَنْ"، بعد ما دخل مفهوم العتق إلى نظامهم الاجتماعي بفضل تعاليم الإسلام.
ذلك أنَّ الإسلام لم يأت من أجل أن يبقى بعض الناس أرقاء لبعض، ولذلك اشتملت تعاليمه على حلول متعددة لفك وضعية الرق أينما وكلما وجد.
من الرق ما يكون موجودا في المجتمعات قبل إسلامها، ومنه ما يطرأ بالتلازم مع جهاد شرعي لها بعد إسلامها. وفي كل الحالات كانت تعاليم الإسلام الداعية إلى العتق كفيلة بتحرير أجيال الرقيق الأصلي والمتجدد. ثمّ بفضل نظام الولاء في الإسلام يلتحم المعتقون بنسيج ذلك المجتمع المسلم؛ فـ"الولاء لحمة كلحمة النسب"، كما في الحديث[103].
مثل ذلك هو ما كان يحصل في المجتمع البيضاني في جيله الأول من صنهاجة:
منذ بدأ الصنهاجيون بعد إسلامهم يجاهدون يسعون في فتح أمم الزنوج، كان المجتمع البيضاني كلما ازداد بأفواج جديدة من الأرقاء (تكرنْ)، يمضون في وضع الرق فترة يحسن خلالها إسلامهم وإسلام ذويهم، ثم تبدأ عملية التحول إلى معتقين (هَرضَننْ).

2 نشأة تسمية "الحراطين"

---

102 كذا نجدها عند المختار ولد حامد في تعليقه على نص فالنتين فرناندس. وتستعمل بالتوازي معها كلمة "أوبَّيَنْ". ولنا محاولة في مستقبل الصفحات لتوضيح الفرق بين الإطلاقين.

103 روى ذلك الحاكم في مستدركه على الصحيحين، وابن حبان في صحيحه، وغيرهما. ونص رواية الحاكم في الحديث رقم 8106 كما يلي: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب عودا على بدء ، ثنا الربيع بن سليمان ، ثنا الشافعي ، أنبأ محمد بن الحسن ، عن أبي يوسف ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الولاء لحمة كلحمة النسب لا تباع ولا توهب » « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

قدم بنو حسان إلى موريتانيا في القرن التاسع الهجري وتم تعريب كلمة "هرضنن" الصنهاجية لتصير بالحسانية حراطين[104]، وتحور مفردها "أهرضنْ" إلى "حرطاني".

---

[104] هذا الرأي بأن كلمة "حراطين" الحسانية أصلها من هرضنن الصنهاجية، هو الراجح لدينا. وفي أصل كلمة "حراطين" أقوال أخرى:

القول الأول: إنما تحريف لكلمة "حراثين"، ويستند قائلو ذلك إلى وجود فئة اجتماعية بالمغرب تسمى بالحراطين، لازالت تشتغل بالزراعة ("الحراثة"). قلت: ونعلق على ذلك من جهتين، من جهة أولى: أن تسمية هرضنن لا مانع أن تكون قد تحورت إلى لحراطين وبنو حسان لا يزالون آنذاك في المغرب. ذلك أنه كانت هناك مجموعات صنهاجية كثيرة في المغرب، ويُتصور جيدا أن تسمية الموالي بـ "هرضنن" كانت شائعة بينهم؛ منها مثلا قبيلة جزولة، التي تحالف كثير منهم -بمواليه وعبيده- مع بني حسان أيامهم في السوس الأقصى. ولا يبعد بعد ذلك أن يكون من بين الموالي المعتقين في المغرب من بدؤوا باحتراف الزراعة (الحراثة) لكسب قوتهم. ومن جهة ثانية: أن كلمة الحراثين أصلها عربي واضح؛ والذين يمكنهم أن يكونوا قد سموا بعض سودان المغرب بالحراثين هم عرب المعقل من حسانيين وغيرهم لا الناطقون باللغات البربرية، فإذا كانوا سموهم بلهجة معقلية (حسانية أو غيرها) بالحراثين وتوطنت هذه التسمية في الحسانية، فما الذي يمكن أن يكون قد دعا من بعد ذلك إلى تحريفها إلى كلمة حسانية أخرى هي لحراطين، أليس الأرجح أن تكون التسمية الأولى قد استمرت كما هي، ثم ألم يكن من المتوقع -لو كان تحريف الحراثين إلى الحراطين جرى داخل الحسانية نفسها- أن يحرف المفرد "حراثْ" إلى حراطْ مثلا، بدل حرطاني.

القول الثاني في تأصيل مسمى الحراطين: غن حرطانِ، الذي هو مفرد الحرطين، أصله تحريف لكلمة "حر ثان"، أي أنه بهذا الفهم حر من الدرجة الثانية. قلت: يظهر لي والله أعلم بخصوص هذا القول أنه نشأ في عهد حديث نسبيا، ولا يبدو لي إلا أنه تكلف في تأصيل الكلمة. لو قبلنا فرضا أن المجتمع البيضاني -بعد مقدم الحسانيين طبعا وانتشار الحسانية- كان يطلق على المحرر من الرقيق "حر ثان"، فما الذي دعاهم إلى إبدال الثاء تاء -كما هو فعل بعض الأعاجم عند نطق العربية- في حين أن الثاء تنطق بسهولة في اللسان الحساني. ثم أن إبدال التاء -كمرحلة ثانية- إلى طاء ليس من عمل كل البيضان الموريتانيين، بل بعضهم يعيب ذلك. ولماذا لا نجد من يستعمل لحراطين بلفظ "لحراتين" مثلا بدون ابدال التاء طاءا رغبة في الفصاحة؟. إن القول بأن حرطان أصلها من "حر ثان" يمكن أن يكون تطور على النحو التالي: بدأ الأمر بكتابة كلمة لحراطين باللغة الفرنسية في شكل "Haratines"، بعد دخول المحتل الفرنسي إلى موريتانيا، المفتقر إلى الطاء في لغته (الفرنسية)؛ ثم بدا لبعض الناس أن يعتبروا حراتين بالتاء هي الأصل، ثم قرر أولئك أن يكون مفردها حرتان جاء من تحريف "حر ثان" بإبدال الثاء تاءا، قياسا على فعل كثير من الناطقين بمختلف اللغات الإفريقية. فالأمر كله يمكن أن يكون فعلا حديثا نسبيا، كما رأيتَ.

3 الفوج الأخير من الأرقاء

لئن كنا في الوقت الراهن لا يحضرنا السند الوثائقي الكافي لتتبع المسار التاريخي لتشكل الحراطين ونمو أعدادهم في نسيج المجتمع البيضاني، فإنه لا يفوتنا على الأقل أن نذْكر أن جهاد الحاج عمر الفوتي، ضد وثنيي البنبارة في عجز القرن الثالث عشر الهجري كان مما أدى إلى استرقاق كثير من البنبارة ودخولهم عبر مقايضات بين الفوتيين والبيضان إلى الأراضي الموريتانية، ليكونوا بذلك آخر فوج من الأرقاء يفد على المجتمع البيضاني.

4 ليس كل الحراطين المعاصرين .. أصولهم من الموالي

يذهب بعض الباحثين المحليين إلى أن هناك مجموعات عديدة من الحراطين لم تنسبغ عليهم هذه الصفة لأنهم موالي معتقون، بل لأنهم فقط كانت سحنهم داكنة وكانوا مساكنين للحراطين في أحيائهم.

سمعنا مثل هذا الرأي من الباحث الحسين ولد محنض، كما اطلعنا عليه في مقال إلكتروني مُوقع باسم الدكتور حماه الله ولد السالم.

ونجد عند هذين الباحثين كمثال على الحراطين، ممن ليسوا في الأصل من الموالي المعتقين، اسم "أغرمانْ"، الذين يعتبرونهم شعبا قديما من شعوب المنطقة[105].

5 كلام حول التسميات المختلفة

يظهر لنا أن مستويين من التسمية للأرقاء كانا موجودين في الصنهاجية قديما :

- المستوى الأول، هو تسمية" ئكرنْ"؛ وهي بمثابة اسم جنس وتحيل على محامل انتقاصية غالبا. تسمية "ئكرن" كانت هي التسمية الأقدم، فيما يبدو.
- وفي المستوى الثاني من التسمية يقال في المفرد للذكر "آبَـيْ"، وللأنثى "تـابَـلْ"؛ ويقال في الجمع "أوبَّـيَـنْ". ومسميات هذا المستوى الثاني يبدو أنها

ونقول بعد ذلك كله أن الرأي الراجح في نظرنا ما أثبتناه في المتن. والله أعلم.

[105] نحن نوافق الباحثين ولد محنض وولد السالم الرأي في أن أغرمان اندمجوا في عداد الحراطين؛ لأنهم كانوا ذوي سحنة داكنة، ولما صاروا من متكلمي الحسانية لم يعدوا من السودان المجاورين. ونرجح أن اغرمان أصلهم من اغرمنطين الذين كانوا قديما ملوك غانة. وللفائدة فإن تسمية أغرمان كانت تاريخيا دائرة كذلك في محيط الولف، حيث تطلق على فئة من نبلائهم.

حلت محل التسمية الأولى، وكانت هي المتداولة أكثر في الخطاب العادي، حتى عهد قريب، حين استُغنيَ عن كل تلك التسميات.

أما الموالي المعتقون فكانوا يسمون "هرضنن"-كما أسلفنا-، الواحد منهم "أهَرْضَن".
تلك –إذا- كانت هي مستويات التسميات قديما في الصنهاجية.

***

بعد مقدم الحسانية، أصبحت هناك ثلاث تسميات متداولة بين البيضان، هي: العبيد، والحراطين، والسودان.

أما التسميتان الأوليتان الحراطين والعبيد ففي الإطلاق العادي لهما تعني كلمة لِحْراطينْ الموالي المعتقين، وتعني كلمة لِعْبيدْ من لا يزالون أرقاء. و قد كان يحصل أحيانا عن حسن قصد أن يسمى طرف الحي البيضاني تأدبا بخيام لحراطين ولو حوى بعض الأرقاء، أو يسمى تغليبا بالعبيد إذا كان الأرقاء فيه أكثر من الموالي. كما كان يحدث أحيانا أن يسيء بعض متكلمي الحسانية فيصف حرطانيا بأنه من العبيد، ساعيا إلى الانتقاص من شأنه؛ ونحن كلنا عبيد لله، وويل للظالمين، وسيجزي الله المتقين.

وأما التسمية الثالثة (السودان) التي كانت مستخدمة في البلاد بعد مقدم الحسانية فهي ملتبسة تحتاج إلى إيضاح، وذلك ما سنحاوله في ما يلي.

بداية نعيد إلى ذهن القارئ ما كان لنا معه من اصطلاح في محور "التمهيد" من هذا البحث، حيث أوضحنا أن مفهوم البيضان يعني لدينا مطلق متكلمي الحسانية، في حين يعني مفهوم السودان في مقابل ذلك جيران البيضان من المسلمين ممن يستخدمون لغات أفريقية مختلفة في تخاطبهم اليومي.

لكننا لو تفحصنا استعمال كلمة "السودان" لدى البيضان، لوجدناها تطلق أحيانا لتعني القبائل الإفريقية المجاورة، كما تطلق أحيانا أخرى لتعني الحراطين أو العبيد.

والذي يمكننا تفسير هذه الظاهرة به هو أن كلمة السودان كانت تستعمل أحيانا لتؤدي معنى إيجابيا خاصا، إنها كانت –في نظرنا- تعني نحوا من "ذوي البشرة الداكنة الطيبين". وهي وفق هذه الدلالة كانت تنصرف إلى كل المساكنين أو المجاورين للبيضان من ذوي البشرة الداكنة، ممن أريد التحدث عنهم بإيجابية. لذلك فإن كلمة السودان كانت فعلا تطلق أحيانا على الحراطين أوالعبيد أو على مجموعهما، وهي حينئذ توظف لأجل أن يحملها السامع محملا إيجابيا. ومن أمثلة ذلك وجه استعمالها في هذا القاف المشتهر:

حسك قايلْ عنْ حوت الهيهْ مخل للسـودانْ اتبـانْ
يوكـ بالسـودانْ ابلدْ فيهْ .ماينكشـفُ فيه البيظانْ

كما ورد في المناظرة الشهيرة من موروث الشعر الحساني بين الأديبين امحمد ولد هدار الأحراكي والعم (المعروف بلعميم) ولد أحمدو فال العلوي، والتي يرجع تاريخها إلى بدايات القرن الرابع عشر الهجري (بدايات العشرين الميلادي) [106].

---

[106] هذه هي الرواية المشتهرة لهذا القاف، كما سمعناها مرة بصوت الأديب محمدن ولد سيد ابراهيم رحمه الله. وقد اختار مخرجو مدونة محمدن ولد سيد ابراهيم في الشعر الحساني "تهذيب الأفكار في أدب الشعر الحساني المختار" الجزء الثالث، ص 3، أن يكون هذا القاف على النحو التالي:

تلك إذًا كانت حالات فضل فيها البيضان استخدام كلمة "سودان"، للتعبير بها عن بني ثقافتهم من الحراطين.
أما عندما نرجع إلى مصطلح الخطاب اليومي، فإن البيضان كانوا يستخدمون تسميتي لحراطين ولعبيد ليعنوا بهما –على التوالي- الموالي والأرقاء؛ بينما كانوا –كما لا يزالون إلى اليوم- يسمون جيرانهم ومخالطيهم الأفارقة من ذوي البشرة الداكنة مباشرة بالمسميات الحسانية لقبائلهم: لكور، التُّكارير، إيفلان، سرغلات أو آسوانك، ... الخ.

6 الحراطين في عرف المجتمع البيضاني هم من البيضان

لقد أوضحنا آنفا في سياق بهذا المسار حول البيضان الموريتانيين أن الدلالة الثقافية لمفهوم البيضان على مطلق متكلمي الحسانية ترجع جذورها إلى حوالي القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي). ولقد صارت منذ ذلك الحين فئتا الموالي والأرقاء في عداد البيضان.
وكان ذوو الجاه في الحراطين دائما يعدون أنفسهم من البيضان، وهو الذي دأب عليه جمهورهم حتى يومنا هذا.
على أن نسبة الحراطين صراحة إلى البيضان ربما لم تترسخ كواقع محسوس إلا بعد الاستقلال وبدايات الوعي بضرورة فك وضعية الرق ومعاملة الحراطين اجتماعيا وثقافيا على قدم المساواة مع الآخرين من بني مجتمعهم وثقافتهم.
في ذلك العهد، وقبل صدور مرسوم إلغاء الرق رسميا في البلاد، كتب الأستاذ محمذن ولد باباه، وهو من ذوي التجربة الراسخة في قضايا الاجتماع البيضاني، كتب موثقا اندراج الحراطين حضاريا تحت مسمى البيضان؛ فقال:
*"البيضان –تطلق على سكان البلاد الشنجيطية من غير السودان، المتميزين بمعالم حضارية خاصة من لغو وهندام ونظام حياة وأخلاق واجتماعيات. ومع اختلاف أصولهم العرقية منهم ما يسمى **بالاحراطين**، أي الموالي والعبيد، من أصل زنجي، ومنهم المجموعات الصنهاجية البربرية. ومنهم قبائل العرب المعروفة، فانصهر الكل في بوتقة الحضارة الإسلامية العربية، فاتحد بحكم الدين واللغة والنظام الاجتماعي والشعور الوجداني والذوق الفني، <u>ومدلول البيضان على هذا الأساس يطلق في النهاية</u>*

حسك كايل عن حوت الهيه   مُـخل لاغرمان إيبان

يغير اغرمان ابلد فيـه   مشاهد عن فيه البيظان(؟)

وهدف الناشر من ذلك كما يبدو هو الحرص على تبرئة محمد بن هدار –رحمه الله–، قائل هذا القاف، من تهمة جرح مشاعر "السودان". لكننا نحسب أن امحمد المعروف باللباقة ما كان ليجرح شعور أحد من أهل عصره، وعبارات القاف الأصيلة تظهر جلية –وفق لغة عصر امحمد– مدى تلك اللباقة، فهو اختار خصيصا مفهوم "السودان"، ذي المحامل الإيجابية في عصره.

على كل الناطقين باللهجة الحسانية من واد نون شمالا إلى نهر السنغال جنوبا إلى النيجر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا (اتراب البيضان)، فدلالة البيضان إذا مدلول حضاري بمعنى الكلمة الواسع لا يخضع للاعتبارات العرقية، ولا يقتصر على سكان دولة موريتانيا في حدودها السياسية المعترف بها دوليا" [107].

واليوم تعتبر مسألة اندراج الحراطين مع بني ثقافتهم الآخرين تحت مظلة مفهوم البيضان متكلمي الحسانية من المسائل البديهية، بعد أزيد من ربع قرن من إلغاء الرق رسميا في البلاد.

7 إلغاء الرق رسميا من موريتانيا

قام في السبعينات من القرن العشرين الميلادي جدل علمي كبير حول مشروعية الرق الموجود في موريتانيا:

جدل دار حول أصله - هل حصل بطرق شرعية؟

وحول واقعه العملي عبر التاريخ - هل روعيت فيه الضوابط الشرعية؟.

وقامت بالتوازي مع ذلك دعوات تناضل من أجل فك وضعيته.

***

الدولة الموريتانية حسمت الجدل، وأثلجت صدور المناضلين، وذلك بإصدار اللجنة العسكرية للخلاص الوطني برئاسة المقدم محمد خونا ولد هيدالة قرارها التاريخي رقم 234-81 في الـ 09 نوفمبر 1981 بإلغاء الرق[108] في عموم البلاد الموريتانية[109].

---

[107] ص 132، هامش 87. نصوص من التاريخ الموريتاني للشيخ محمد اليدالي. تحقيق: محمذن ولد باباه. بيت الحكمة. قرطاج. تونس. 1990. وقد كنا أوضحنا في هامش في محور "التمهيد" من هذا البحث أن الأستاذ ولد باباه لابد أن يكون قد انتهى من إعداد تحقيقه على نصوص اليدالي قبل سنة 1981، تاريخ إلغاء الرق؛ ثم لم يُنتبه بعد ذلك إلى حذف كلمة "العبيد" من السياق عند تقديم الكتاب للنشر سنة 1990.

[108] نقلا عن الباحث برام ولد اعبيدي. "التشريع للرق .. خدمة لاستمراره". مقال منشور في موقع الراية الألكتروني تحت الرابط:

http://www.rayah.info/browse.php?comp=viewArticles&file=article&sid=2491

109 ملاحظة: لقد سجلت بعد ذلك القرار حالات من استمرار الاسترقاق في البلد، كما كشف عن ذلك المناضلون من أجل إلغاء بقايا الرق. وقد أضحى الخطاب العام لدى السياسيين في البلد منذ 2005

ومثل ذلك في الدولة الموريتانية الحديثة انجازا هاما على الصعيد الاجتماعي.

***

ولقد خلد الموريتانيون هذا الإنجاز الاجتماعي الهام في نصوصهم الأدبية؛ فإلى ذلك يشير العلامة الأديب المؤرخ المختار ولد حامد رحمه الله، في إحدى مقطوعاته الشعرية الظريفة في معرض التحذير من البيع بدين، فيقول:

ما كل مبدٍ لرأي رأيه جكنـــي   والحق أبلج لا يخفى على فطنِ
لا تبتعنْ بسوى نقد فإن بنـــي   ذا الدهر بين كريم عاطل ودني
أما الكريم فعيب أن تداينـــه   والغير ليس على شيء بـمؤتمنِ
والدين غايتـه استرقاق صاحبه   **والرق مذْ زمـن ألغته مــورتنِ**

***

وبعد ما تحققت –والحمد لله- مصلحة هذا البلد منذ زمن بإلغاء الرق نهائيا بين أفراد مجتمعه، وجرى لاحقا تجريم متابعة الاسترقاق، يحتاج الموريتانيون اليوم بعد استحضار أخوتهم الدينية، وتوحد لغتهم الرسمية العربية، واتحاد الهوية الثقافية لجمهورهم، يحتاجون إلى زيادة تماسكهم الاجتماعي، متبعين في ذلك هدي الإسلام.
قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).
وفي مسند الإمام أحمد:
حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ الْجُرَيْرِيُّ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ ثُمَّ قَالَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ وَلَا أَدْرِي قَالَ أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ (مسند الإمام أحمد: حديث 22391).

***

وإني بدوري مبلغكم هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أبلغتُ؟ اللهم فاشهد.

***

لو عدنا إلى سياق المجتمع البيضاني، فقد عرف هذا المجتمع دائما إنصاف المتميزين خلقيا من بين أفراده، وإنزالهم المنزلة اللائقة بهم، كما نجد الشواهد الحية على ذلك في أشعار القوم بالحسانية.

متجها اتجاها جديا نحو محو بقايا الرق نهائيا، وفي هذا الإطار تأتي على سبيل المثال مصادقة البرلمان سنة 2007 على قانون لتجريم متابعة الاسترقاق في البلد.

يقول مثلا الأديب أحمد يوره ولد الشيخ محمد أحمد التندغي، وفق ما أورده الأديب البشير بن فتى في مدونة له في الشعر الحساني (ص 139)، وكان ذلك قريبا من عهد استقلال البلد، يقول أحمد يوره إذن شائدا بخصال السيد عمار الحرطاني الأبييري:

لحرارْ ألعبيد امنْ ابعيدْ قالُ عنك معروف اسعيدْ
محدَّك من لعبيدْ اتزيدْ فالرفعَ راصكْ كل انهارْ
والِّ عاقبه درْتْ افليْدْ الحريَّ وابــرودْ الجارْ
واتمعليم أقلت لكـريدْ معناه عنك يـعمَّـارْ
اكبيلْ أعدَّل منْ لـعبيدْ واليومْ أعدَّل منْ لحـرارْ

***

كما نجد مثالين آخرين، في نفس المدونة المذكورة، للأديب محمدو السالم بن الشيخ محمد عبد الرحمن التندغي يشيد فيهما بالسيد معط ملان الحرطاني.

أولهما (ص 120):

معطَ ملانَ حدْ جـاهْ يجبرْ لحسانْ إخَصرُ
وُ معطَ ملانَ لَاعطاهْ مـا يقدر حدْ إخصرُ

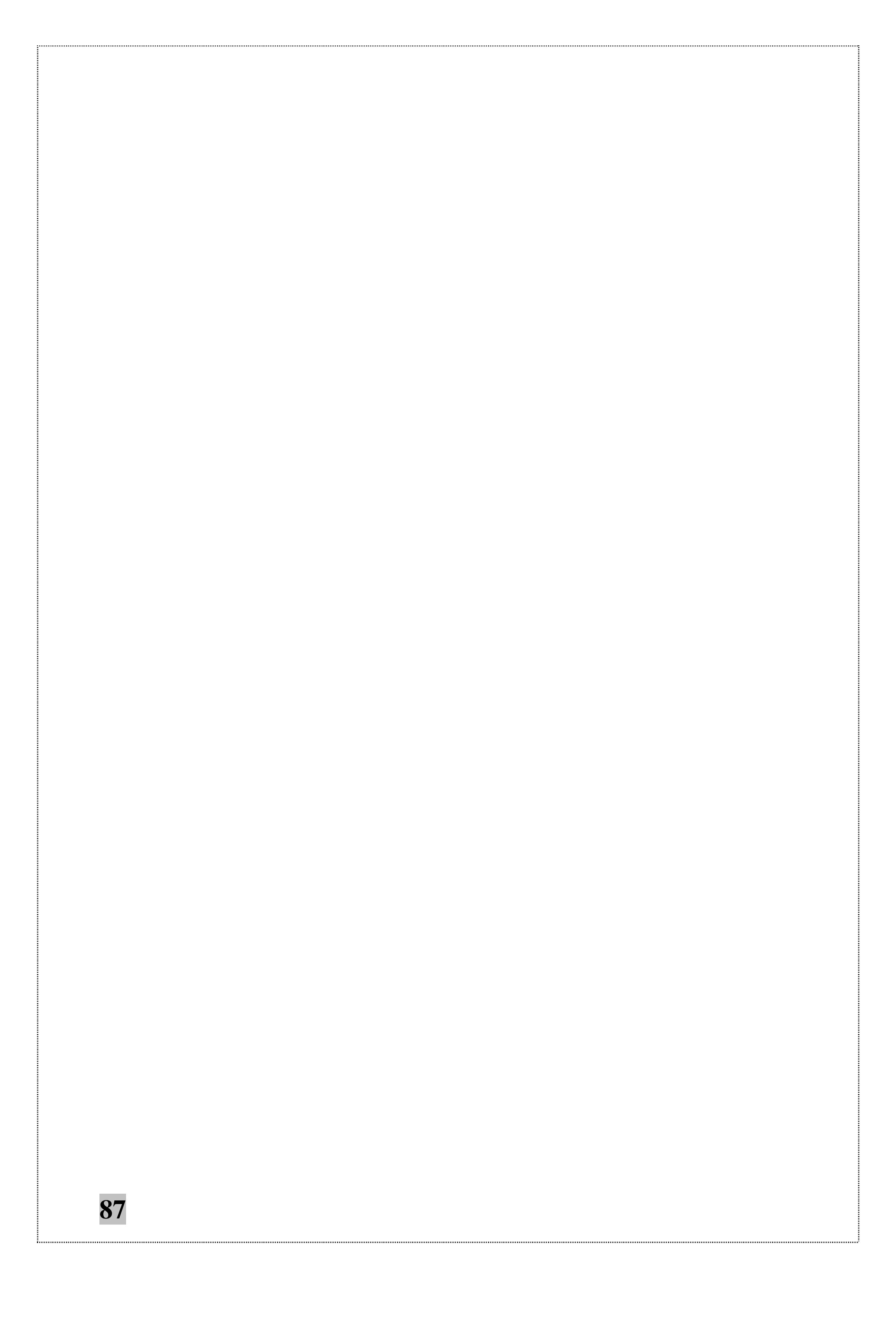
وثانيهما (ص132):

معطَ ملانَ كل انهارْ يعجبنِ فعلُ بعدْ آنَ
وُ مـعطَ ملانَ للخطَّارْ ألَّا منْ معط مـلانَ

قلت: من الطريف في هذه النصوص وجود إشارة رمزية إلى نوع من تطييب الخاطر من طرف هذين الأديبين من مسمى قبلي ذي أصل صنهاجي (جيل البيضان الأول) لذينك الفتيين النبيلين من الحراطين (من جيل البيضان المعاصر).

***

والله يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه.



المسار الثاني: تاريخ السوننكى الموريتانيين

1 الجيل الأول: أحفاد الجرميين

أورد المختار ولد حامد رحمه الله (التاريخ السياسي، ص 39) نقلا عن كتاب تاريخ السودان للسعدي ما يلي:
"(قيمع) هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، ودار إمارته (غانة) هي مدينة عظيمة في أرض (غانة). قيل إن سلطنتهم كانت قبل البعثة، فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا، وبعد البعثة اثنان وعشرون، وعدد ملوكهم (44)، وهم بيضان الأصل".
ويعلق ولد حامد في هامش على العبارة الأخيرة (وهم بيضان الأصل) بقوله:
"قد يستأنس لهذا بأن كلمة (سراغولي السوننكية) معناها الرجل الأبيض".
قلت: وقد وجدت أثناء أبحاثي منسوبا إلى الخوارزمي (ت 236هـ) ما نصه:
"غانة قوم يسمون إغرمنطين".
وجدت ذلك في كتاب بعنوان "الوثنية والإسلام"، لمؤلفه ك مادعو بانيكار، ترجمة وتحقيق أحمد فؤاد بلبع، ص74. وفي تخريج ذلك ينص المحقق على أنه جاء في كتاب صورة الأرض، تحقيق هانس فون مزيك، فيينا، أدولف هولز هوزن 126 الصفحة 101؛ وهذا يعني أن المحقق يؤكد نسبة ذلك إلى الخوارزمي، ولعله اطلع على ذلك النص بنفسه. وقد أضاف المحقق من عنده ما نصه: "المقصود بالإغرمنطين هنا شعب الغارمنطيس، وهم من البيض".
قلت: والغارمنطيس (Garmentes) هؤلاء ذكروا في الكتب الرومانية قديما، فقد ذكرهم بطليموس في كتاب جغرافيته الشهير. ومن المعروف اليوم أن عاصمة ملكهم الرئيسية كانت جرمة Garma في أرض ليبيا الحالية، حيث تجرى اليوم أبحاث حول آثارهم.
ومن ليبيا كان الجرميون -وهكذا أسميهم انسجاما مع بعض المراجع العربية الحديثة- يسيرون تجارات لهم عبر الصحراء؛ ولقد توطن بعضهم نواحي الجنوب الشرقي الموريتاني[110]، وفيه أسسوا مملكة آوكار[111]، المشهورة بمملكة غانة[112].

---

[110] ينسجم لدينا هذا التصور مع إيحاء إحدى الروايات السوننكية حول أصل تشكل مملكة غانة القديمة، المعروفة لدى السوننكى أيضا بأسطورة مملكة واكَاذُو (بكاف معقودة)، تقول تلك الرواية الأسطورية إن بضعة رجال بقيادة زعيمهم (ديابي) شقوا طريقهم عبر الصحراء قادمين من مصر (ويقال أسوان تحديدا ومنها الاسم أسوانك) إلى أن وصلوا إلى نواحي الجنوب الشرقي الموريتاني، حيث استقر بهم المقام في النهاية وكانت بداية مملكتهم. إذن فهناك إجمالا ترسيخ للرأي بتشكل الأسرة المالكة في مملكة غانة من سلالة قوم من البيض،

ولقد اختلط الجرميون بالزنوج، ومن اختلاطهم بهم نشأ السوننكى المعروفون اليوم.

***

لقد كانت مملكة آوكار قائمة في المنطقة في صدر الإسلام، كما يتبين من نص السعدي أعلاه.

ولقد اشتهرت هذه المملكة تحت مسمى مملكة غانة، نسبة إلى عاصمتها التي كانت تسمى كذلك عند الجغرافيين العرب. ومن أسمائها عند أهلها قُـنْـبِ.

كما كان لعاصمة غانة في مراحل زمنية لاحقة اسم آخر هو كمبي صالح، و"يعتقد الآن أن أطلالها هي التي اكتشفت في شرق موريتانيا على بعد 70 كلم جنوب شرق مدينة تمبدغه (في الولاية الأولى)"، كما ذكر المختار ولد حامد في التاريخ السياسي.

2 الجيل الثاني: أهل غانة المسلمة

لم يتأكد إسلام ملوك غانة إلا بعد قيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري. لكن مع ذلك تؤكد لنا المصادر التاريخية أن مملكة غانة كان فيها قبل عصر المرابطين حضور مهم للمسلمين، ممن توطنوها فيما يظهر على إثر نمو النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها بدء من القرن الثاني الهجري. ونعلم مثلا من كتاب الجغرافي

انتقلوا قديما من شرق القارة الإفريقية مغربين، إلى أن استقر بهم المقام حيث كانت عاصمة غانة القديمة (كومبي صالح).

[111] في البكري (ق 6 هـ): "ذكر غانة وسير أهلها – وغانة سمة لملكهم، واسم البلد أوكار ...". و اسم "آوكار" لازال إلى اليوم يطلق على منطقة جنوب شرقي تكانت، وهي المقصودة هنا. وفي شمال شرقي بوتلميت، في ولاية الترارزة منطقة أخرى، اسمها كذلك آوكار.

[112] نحن نورد هنا ما ترجح لدينا بإنصاف. ونعي مع ذلك أنه قد وجد من مثيري الفتن من أراد استغلال البحوث التاريخية حول السكان القدماء للأراضي الموريتانية من أجل طرح تساؤلات من قبيل من هم الأولى من بين سكان موريتانيا المعاصرين بمختلف نواحي الأراضي الموريتانية، قاصد بذلك إثارة النزعات العرقية بين أبناء الشعب الموريتاني. وملخص رأينا في هذه المسألة أن الحدود الدولية الحديثة هي عبارة عن واقع اصطلح العقلاء من البشر على قبوله، على رغم اختلاف القوميات داخل شتى الأقطار. وإذا كان المحتل، الذي رسم مثل تلك الحدود، لم يكن همه أصلا أن ييسر على الناس صلة أرحامهم ولا أن يسهل الاتصال بين المنتسبين منهم إلى ثقافة واحدة، فعلى العقلاء اليوم قبول أوضاعهم القائمة كضرورات تنظيمية، ونحن المسلمين حالنا –والحمد لله– كله خير، ونحن مأمورون بالتعاون بيننا مع اختلاف مشاربنا الرحمية والثقافية ومأجورون على ذلك. ونعم بالإسلام وكفى به هوية جامعة.

البكري أن أكثر معاوني ملوك غانة ووزرائهم كانوا من المسلمين، بل لقد كان في قصر الملك مسجد مخصص ليصلي فيه ضيوفه من المسلمين.
وفي اعتقادنا أن تلك الجالية المسلمة لابد أن تكون قد قامت قولا وعملا بواجبها في الدعوة إلى الإسلام، وأثرت على السوننكى، فأسلم منهم من اسلم.
وقد ذكر البكري كثيرا من أحوال غانة في أواسط القرن الخامس الهجري (دون ذلك نحوا من سنة 460هـ)؛ ومن ذلك أن ملكهم لعهده كان اسمه تنكامنين، الذي لا يبدو أنه كان حينها قد أسلم، اللهم إلا إذا كان يكتم إيمانه.

***

أما بعد قيام سلطة المرابطين بفترة وتحديدا بعد رجوع أبي بكر بن عمر من المغرب وبدء شأن إمارة آل عمر المرابطية في الصحراء سنة 465هـ، فإن اتحادا من مختلف قبائل الدعوة المرابطية من صنهاجية وسودانية، تمكن بعيد وفاة أبي بكر بن عمر، في عهد الأمير محمد بن يحي بن عمر، في سنة 469هـ، من إزاحة الحكم الوثني بغانة.

***

وتولت الحكم في مختلف أقاليم غانة قيادات مسلمة، كان لها بعد الله تبارك وتعالى الفضل في عموم الإسلام على السوننكى في غانة.
وتذكر مصادر عديدة أن أهل غانة كانوا بعد إسلامهم من أكثر المتحمسين لنشر الإسلام بين الزنوج. وقد أسلمت على أيدي ملوكهم أمم الزنوج المجاورة لهم، ويعزى إلى تجارهم (إديولا) حمل رسالة الإسلام إلى كثير من دول الغرب الإفريقي.

***

وقد اشتهرت بعد فتح غانة من طرف المرابطين من بين الأقاليم التي كانت تتشكل منها مملكة غانة الأقاليم التالية:
1- إقليم واكادُو (كما يسمى في الرواية الشفوية للسوننكى)، هو الإقليم الرئيسي والوصي سياسيا على باقي أقاليم غانة، وهو الذي كانت فيه العاصمة قنبِ، كما أنه الإقليم الذي ظل باقيا بمسمى غانة عند إطلاقه. ويخبرنا الإدريسي (صدر القرن 6هـ) بأن ملوك غانة لعهده كانوا من بني صالح الشرفاء الحسنيين. وقد كان ابن حوقل (ق4) قد ذكر قبيلة باسم بني صالح ضمن قبائل صنهاجة الخلص، أي من غير المختلطين في أنسابهم بالسودان وفق تعبيره، فلعلهم هم بنو صالح الحسنيين هؤلاء، كانوا حلفاء لصنهاجة[113]، ومنهم أخذت كمبي صالح تسميتها. ولا يبعد أن يكون أهل غانة –بعد إسلامهم- رحبوا بتولي بني صالح عليهم ولاية عامة حبا لهم وثقة بهم نظرا لنسبهم الشريف.

---

[113] من المعروف أن الأدارسة في المغرب أصيبوا بنكبات كبيرة في المغرب في صدر القرن الرابع الهجري على يد موسى بن أبي العافية، ودخل بعضهم إلى الصحراء حيث الصنهاجيون. ومن المعروف كذلك أن الصنهاجيين كان لهم منذ أمد بعيد تقدير خاص لآل البيت. ولذلك فإن انضمام بني صالح (وهم بنو عمومة الأدارسة، وربما كانوا معهم بالمغرب أصلا) إلى الصنهاجيين، وإنزالهم لهم منزلة الخلص منهم، أمر وارد جدا.

2- إقليم زافنو (زافون كما تسميه المصادر العربية)، وقد أصبح لإقليم زافنو في عهد ما بعد الفتح المرابطي دور مهم، فقد بدأت حاضرة زافنو في لعب الدور الذي كانت تلعبه أوداغست في فترة خضوعها للحكم الغاني قبل قيام دولة المرابطين؛ فكانت زافنو بذلك البوابة التجارية إلى بلاد السودان[114].
3- إقليم صوصو، إلى الجنوب من إقليم واكادو، وقاعدته آنذاك مدينة صوصو، حيث قرية Sosso اليوم، ومنه انطلقت فيما بعد غزوات الصوصو التي ستكتسح أجزاء كبيرة من أقاليم غانة.
4- إقليم ديارا، ويقع إلى الجنوب الشرقي من إقليم زافنو، حيث Diarra اليوم.
5- إقليم ترنكا، وهو إلى الجنوب الغربي من إقليم زافنو، وهو حيث ذكر البكري ترنقة، وحيث Tringa اليوم.

***

وقد كان ملك زافنو (زافون) أكثر ملوك الأقاليم الغانية صلة بالمرابطين، نظرا للعب مملكته دور البوابة إلى بلاد السودان كما أسلفنا، واستمر ذلك الحال في ملوك زافنو حتى في ما بعد سقوط دولة المرابطين على ما نفهم من كلام ياقوت الحموي (ت 626هـ). يقول الحموي عن زافون، وعن ملكها، وعن علاقته بالملثمين، الذين يقصد بهم المرابطين:
" زافون – بعد الفاء واو ساكنة ونون- ولاية واسعة في بلاد السودان المجاورة للمغرب ومتصلة ببلاد الملثمين. لهم ملك ذو قوة، و فيه منعة، وله حاضرة يسمونها زافون. وهو يرتحل، وينتجع مواقع الغيوث. وهكذا كان الملثمون قبل استيلائهم على بلاد المغرب ... وورد هذا الملك في بعض الأعوام إلى المغرب حاجا على أمير الملثمين –ملك المغرب اللمتوني الملثم- فتلقاه أمير الملثمين راجلا، ولم ينزل ملك زافون له عن فرسه.
قال من رآه بمراكش يوم دخوله إليها: وكان رجلا طويلا، أسود اللون حالكه، متنقبا، أحمر بياض العينين كأنهما جمرتان، أصفر باطن الكفين كأنما صبغتا بالزعفران، عليه ثوب مقطوط، متلفع برداء أبيض، دخل مصرَ أمير المسلمين راكبا، وأمير المسلمين راجلا بين يديه".
وفي نظرنا أن تواضع أمير المرابطين بمراكش لملك زافون ومجاراته له في طباعه تؤكد من ناحية ما ذكرناه من قوة ملك زافنو، وتكشف من ناحية أخرى عن متانة العلاقة التي تربط بينه وبين المرابطين.

***

أما ملوك واكادو من بني صالح فكانت لهم الولاية العامة على مختلف الأقاليم، ولهم اعتماد كبير لتسيير التجارة عبر الصحراء على ملك زافنو المجاور للمرابطين ووثيق الصلة بهم كما بيناه. وكان بنو صالح ملوك واكادو محترمين من طرف جيرانهم: نظرا لنسبهم الشريف كما أسلفنا.

---

114 يتحدث الإدريسي في كتابه (أنس المهج وروض الفرج) عن 50 مرحلة ما بين غانة وسجلماسة، محطاتها كما يلي: غانة – ترنقا- زافون- تازكيت- نيرزت- أزقي- تاغجست- نول- درعة- سجلماسة.
وقد ذكرت زافون عند الزهري (صدر القرن 6هـ)، وعند ياقوت الحموي (صدر القرن 7هـ).

ويظهر أن بني صالح قرروا بعد فترة قصيرة الانزياح عن عاصمة غانة الأولى قنبِ، التي أصبحت منذ توليهم الحكم تعرف بكمبي صالح، في اتجاه الجنوب الشرقي، لينشئوا عاصمة أخرى على نهر النيجر؛ فقد ذكر الإدريسي أن "ملك غانة من ولد صالح .. بنى قصره على النيل في عام عشرة وخمسمائة (510هـ)".
وكان صاحب غانة، والمقصود به عند إطلاقه في هذا العهد هو ملك واكادو، لا يزال قويا في بدايات القرن السابع الهجري، ففي سياق يُفهم أنه متعلق بسنة 620هـ، من كتاب "التاريخ المنصوري"، من تواريخ الموحدين الذين خلفوا المرابطين على ملكهم بالمغرب، ما نصه:
"**وأولاد عبد المؤمن يهادنون صاحب غانة ويهادونه وهو ملك السودان** والبرابر يهدون إليهم الخيل البلق تسمى عندهم الحبارية والجواري الروم والثياب الأشكري ويهدون هم لأولاد عبد المؤمن عوضها التبر في أرقاب الجمال ويسيرون درق اللمط وحمار الوحش والزرافات والخدم والبوجيات ... سنة إحدى وعشرين وستمائة. كان الغيث ...".

***

ويذكر في كتب التواريخ، كتاريخ ابن خلدون مثلا، أن أمة الصوصو هاجمت غانة واستولت على ملكها. والتاريخ المذكور لذلك هو بدايات القرن السابع الهجري. ومما يرتبط بذلك عمار بيرو (=إيولاتن بلسان مسوفة بعد ذلك وهي ولاتة اليوم) سنة 611هـ على إثر انزياح السوننكى إليها سعيا للسلامة من هجمات الصوصو (راجع مثلا ولد حامد، التاريخ السياسي، ص62). وقد تفرق كثير من السوننكى على إثر تلك الهجمات في نواحي أخرى عديدة فدخلوا في مجالات من حولهم من الشعوب.
لكن فيما يظهر لنا أن الصوصو إنما استولوا فقط على الأجزاء الغربية من أراضي غانة، متمثلة في أعالي أراضي واكادو، حيث العاصمة القديمة كمبي صالح، وإقليم زافنو وأقاليم أخرى مثل ديارا، بينما استمر حكم بني صالح في إقليم واكادو، لما رأينا من أن أهل غانة كان لا يزال لهم حكم سياسي مستقر في سنة 620هـ، وهو-كما نرى- حيث عاصمتهم الثانية على نهر النيجر.
الصوصو بهجماتهم تمكنوا من التحكم مرحليا في الجزء الأهم من نشاط غانة الاقتصادي، من خلال سيطرتهم في زمن صعودهم ذلك على إقليم زافنو البوابة الجنوبية للتجارة عبر الصحراء، وصاروا بذلك أهم قوة في منطقتهم.
لكن بني صالح ملوك غانة بإقليم واكادو بدؤوا يعدون العدة لتنشيط محور تجاري بديل عن زافنو: محور ينطلق من عاصمتهم على نهر النيجر مارا ببيرو ثم بأراضي مسوفة إلى سجلماسة، وبدؤوا من أجل ذلك بتوطيد علاقتهم أكثر بمسوفة لدلالة وحماية التجار الخارجين من بلادهم والوافدين إليها[115].

***

وبعد ذلك بعقود كان الصالحون (=بنو صالح) لا يزالون ملوك غانة، ففي الصفدي ناقلا عن ابن سعيد (كتب في بحر هذا القرن السابع وتوفي 685هـ) في كنوز المطالب:

[115] تلك جهود ستقطف ثمارها دولة مالي الإسلامية التي بدأ صعودها بدء من سنة 636هـ.

"للصالحين ملك متوارث **إلى الآن** بغانة من بلاد السودان في أقصى غرب النيل".[116].

***

لم يدم طويلا صعود مملكة الصوصو، ولا تعايش مملكة غانة معها إلى جوارها من جهة الشرق، فسرعان ما بدأت طلائع دولة مالي تظهر، فصعدت قوة عسكرية من أهل مالي بقيادة سنجاطه (=ماري جاطة بلسان أهل مالي) لتهزم الصوصو سنة 636هـ في وقعة تشتهر في الرواية الشفوية تحت اسم وقعة كرينا، وتحول الصوصو وغانة إلى إقليمين من أقاليم دولة مالي؛ يقول ابن خلدون:

"ثم إن أهل مالي كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك، واستطالوا على الأمم المجاورين لهم، فغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم –من ملكهم القديم، وملك أهل غانة- إلى البحر المحيط من ناحية الغرب".

***

ولقد ذكرت غانة بوصفها أحد أقاليم مملكة مالي، كما أورد القلقشندي ت 821هـ صاحب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، ناقلا عن العمري ت 749هـ صاحب

---

[116] ملاحظة: ابن سعيد المغربي (ولد 610 وتوفي 685هـ) –ومثله كثير من المؤلفين العرب– هو جغرافي وليس مؤرخا؛ فما يذكره المؤلف ذو التخصص الجغرافي عند الحديث عن مكان ما ولم يربطه بتاريخ محدد لا يتعلق بالضرورة بتفاصيل أو حوادث في نفس عهد المؤلف، وإنما، لأنه ينقل عن مصادر سابقة، قد يتعلق الأمر –وهو فعلا كذلك في كثير من الأحيان– بتفاصيل وحوداث سابقة لعهده بزمن طويل. لكن استخدام ابن سعيد المغربي لعبارة "إلى الآن" يدلنا على أن الأمر فعلا يتعلق بتفاصيل مرتبطة بأيام تأليفه لكتابه، أي على الأرجح ما بين منتصف القرن السابع إلى سنة 685هـ تاريخ وفاته. أما عن موقع غانة وأنها على نهر النيجر فهو واضح من إحداثيات العرض والطول التي يعطيها لغانة ابن سعيد نفسه في كتابه الثاني والأكثر شهرة (صورة الأرض). أما قوله عن موقع غانة أنها بأقصى غرب النيل فلا ينفي أن المقصود به هو هذه العاصمة (العاصمة الثانية لإقليم واكادو على نهر النيجر)، وذلك لقرينتين نبسط لك تفاصيلهما: أولا–إن نهر النيجر ونهر السنغال هما في فهم الجغرافيين القدماء نهر واحد يسمونه النيل، بل إن نهر النيل المعروف اليوم ونهر النيجر ونهر السنغال في فهمهم كلها من أصل واحد، ففي فهمهم ومصطلحهم أنه يوجد جبل اسمه جبل القمر شمال خط الاستواء يخرج منه نيلان: نيل مصر (=نهر النيل المعروف اليوم)، ونيل آخر مغرب (=نهر النيجر + نهر السنغال) إلى أن يصب في البحر الغربي (=المحيط الأطلسي)، فموقع غانة بالنظر إلى مجموع النيلين المشرق والمغرب هو فعلا في أقصى غرب النيل. والقرينة الثانية– هي أن ابن سعيد جغرافي يهتم بمجموع الأرض وما عليها من يابسة وبحار، فإذا فكرنا وفق منظوره الخاص، وهو يرى غانة على النيل، ذلك النيل الطويل في فهمه الذي يخترق "ما نسميه نحن اليوم بالقارة الإفريقية" من شرقها إلى غربها، نفهم وصفه لغانة بأنها في أقصى غرب النيل.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، والذي بدوره كان يكثر العزو إلى معاصره الدكالي الذي زار بلاد السودان كما نفهم:

"*... ونقلَ (=صاحب مسالك الأبصار) عن الشيخ الدكالي أنه (=صاحب مالي) ليس بمملكته من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة، وهو كالنائب له وإن كان ملكا. وكأنه إنما بقي اسم الملك على صاحب غانة دون غيره لعدم انتزاعها منه والاستيلاء عليها استيلاء كليا (= هنا استنتاج من القلقشندي). فقد قال في التعريف (= أي صاحب مسالك الأبصار): وأما غانة فإنه (=صاحب مالي) لا يملكها وكأنه مالكها يتركها عن قدرة عليها، لأن بها وبما وراءها جنوباً منابت الذهب. وذكر ما تقدم من أن بلاد منابت الذهب متى فشا فيها الإسلام والأذان عدم فيها نبات الذهب وصاحب مالي يتركها لذلك لأنه مسلم وله عليها إتاوةٌ كبيرة مقررة تحمل إليه في كل سنة*".

ويظهر لي أن معنى ذلك أن أهل مالي فاوضوا ملك غانة على أن يفسح لهم مجال إدارة التجارة عبر الصحراء بتخليه عن عاصمة ملكه التي على نهر النيجر، مقابل أن يستمر له لقب الملك ويسندوا إليه الإشراف على الحصول على الذهب من مناجمه لما له من تجربة عريقة في ذلك وفي التعامل مع الوثنيين الذين يخرج ذلك الذهب من بلادهم، فانتقل ملك غانة للاستقرار في جهة الغرب من إقليمي مالي والصوصو شمال مناجم الذهب قرب نهر السنغال، وتوجه بعض قواد غانة إلى منطقة جلف أو سنغانة كما

كانت تدعى آنذاك[117]. كما توجه البعض الآخر إلى بلاد البيضان: مباشرة أو بعد قضائه مدة من الزمن مع التكارير على نهر السنغال[118].

***"

أحدث شاهد حي لذكر غانة نجده في أواخر القرن الثامن الهجري، فقد قابل ابن خلدون "عثمان فقيه أهل غانة" في أواخر القرن الثامن الهجري، مما يدل على استمرار سلطة لغانة حتى ذلك العهد؛ يقول ابن خلدون:

" .. وأخبرني الشيخ عثمان فقيه أهل غانية وكبيرهم علماً وديناً وشهرة، قدم مصر سنة تسع وتسعين (=799هـ) حاجاً بأهله وولده ولقيته بها فقال إنهم يسمون التكرور زغاي ومالي أنكاريه .."

كما ذكر ابن خلدون في سياق آخر أن أهل غانة منكرون أي يكون لأحد ملك عليهم غير الصوصو، والمقصود بذلك طبعا قبل أن تصبح غانة والصوصو تابعتين لمالي كما أوردنا له آنفا. ولعله حدثه بذلك الشيخ عثمان المذكور.

***

وبعد ذلك سقطت مملكة مالي، التي كانت تتبع لها غانة، في القرن التاسع الهجري، ولم نجد لغانة ذكرا بعد ذلك، لا في عهد آل سني على، وهم الذين خلفوا مالي على ملكها، ولا في عهد الأساكية من بعدهم.

***

---

[117] لدينا ثلاث معلومات تدلنا على توجه بعض قواد غانة إلى منطقة جلف:

الأولى .. تشير إلى أن جلف آنذاك كانت تدعى سنغانة وينسجم ذلك بروعة مع ما سنفصله بإذن الله في تاريخ الولف الموريتانيين حول سنغانة (=صنغانة) ونشأة جلف. يهمنا هنا في هذه النقطة إيراد ما نقله صاحب صبح الأعشى ناقلا عن صاحب مسالك الأبصار: "وذكر في مسالك الأبصار: أن هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليماً وهي: غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانة وبانبغو وزرنطابنا وبيترا ودمورا وزاغا وكابرا وبراغودي وكوكو ومالي". قلت: فهناك ذكر سنغانة ضمن الأقاليم الأربعة عشر لدولة مالي الإسلامية المعروفة لدى المصريين آنذاك ببلاد التكرور.

الثانية .. هي أنه ثبت اليوم وجود الألقاب واكادو وزافنو ضمن أسماء الأجيال العلية من ملوك باول أحد أقليم مملكة جلف.

الثالثة .. ورود مسمى أغرمان بين الولف كاسم لفئة اجتماعية من نبلائهم؛ وأغرمان كما نظن ليسوا سوى أغرمنطين أوائل ملوك غانة كما بينا في بداية هذا المسار.

وستتعزز هذه القرائن عند ورودها بإذن الله في سياقها المناسب في مسار تاريخ الولف.

[118] هناك من قبائل موريتانيا من تتشابه سلاسل النسب لديه مع سلسلة نسب بني صالح ملوك غانة، كما أن هناك قبائل موريتانية أخرى معروفة تقول بانتسابها إلى بني صالح ملوك غانة كما تنص على توجه أسلافها بداية إلى التكارير على النهر، قبل أن يستقر بهم المقام في فضاء البيضان.

يبقى أن نلخص رأينا حول المنحدرين من ملوك غانة عبر أزمنتها المختلفة:

- الجيل الأول هم ملوك غانة في فترة ما قبل فتح المرابطين لها، وهم المنحدرون من الجرميين (اغرمنطين)؛ هؤلاء ومعهم القادة أيام ملكهم هم أسلاف لشعب السوننكى كما نعرفه اليوم. ومن أحفاد اغرمنطين أيضا: أغرمان الذين أصبحوا في عداد الحراطين، وكذلك أغرمان الذين هم طبقة من "نبلاء" الولف.
- الجيل الثاني هم ملوك غانة في فترة ما بعد فتح المرابطين لها، وهم الصالحون (بنو صالح) ملوك غانة. وإلى هؤلاء تنتسب إليوم قبائل موريتانية معروفة، ينص بعضها على مرور أسلافه بالتكارير على النهر، قبل أن يستقر به المقام في بلاد البيضان.

3 شواخص من تاريخ السوننكى بعد ذلك

فيما يلي شواخص لتكملة التأريخ للسوننكى من بعد أيام غانة إلى اليوم:

أ) أسر من أهل غانة :

من موسوعة حياة موريتانيا، جزئي الجغرافيا والتاريخ السياسي، نلخص ما يلي:

- سمارى: خارجون من غانة سنة 1240 في عهد سنجاطة (أي ما حول سنة 636هـ) وهم من أقدم سرغلات كيدي ماغا.

الأسر: كنديكا، وتنجا، بنو كمارا، كيتا، جابيرا، سيسى، ...من أهل المملكة المعروفين بـ "تنكاليمو". و يذكرون أن أصلهم من واكـادكـو (قلت: كذا في ولد حامد، وفي الروايات الشفوية تسمى مملكة غانة بمملكة واكـادو كما رأينا).

- كذلك سيسى أصلهم من واكادكو (!)، وهم طلبة.
- - سخنا وأصلهم من جافنو بمالي. قلت: جافنو هي زافنو.

ب) القدماء في كيدماغه :

سيسى (طلبة)، سخنا (طلبة)، جابيرا، كيتا، جاوارا، كسما، كنديكا، سماري، ...

ج) كـنكـارة :

توجد إلى اليوم طائفة من السوننكى تسمى كـنكـارة، ذكرتها المراجع في بدايات القرن الخامس الهجري في الجنوب الموريتاني، فهم الذين استشهد الأمير اللمتوني محمد بن تيفاوت في بلادهم قائدا حملة ضد السودان[119].

---

[119] أورد ولد حامد في التاريخ السياسي ص 26 في هامش على كلمة (قنقارة): وقنقارة طائفة من السرغلات. وقد ذكر لي صديق اسمه الشيخ أعمر في لقاء معه بأنغولا سنة 2006، أن بعضا من قنقارة

د) تجار آزير[120]:

عرف لتجار آزير حضور كبير خلال القرون 7هـ- 9 هـ[121] في مدن القوافل الصحراوية مثل: ولاته، تيشيت، ودان، شنقيط.
ونهض تجار السوننكى ومسوفة بأعباء تلك التجارة حتى نتج عن ذلك اللسان المعروف بـ "كلام آزير" وهو لهجة سوننكية – صنهاجية مشتركة: 70% مفردات سوننكية، 30% ألفاظ بربرية وقد سهل ذلك من التبادل التجاري بين الساحل السوداني والساحل الصحراوي.
قلت: من أسميناهم هنا بتجار آزير يمكننا أن نعتبرهم جزء من فئة تجار السوننكى المعروفين بأديولا. وفي ظني أن أديولا هم الذين اشتقت من اسمهم كلمة "جولات" الحسانية التي تطلق في منطقة الشرق الموريتاني على التجار جالبي البضائع، كما فهمت من بعض شواهد الشعر الحساني.

(=كنكارة بكافات معقودة) هؤلاء هم اليوم بأحد أحياء كيهيدي. والشيخ أعمر شخص واسع الاطلاع بخصوص القبائل، ومن أهل تلك المنطقة.

120 مضمون هذه الفقرة منقول عن الأستاذ الدكتور حماه الله ولد السالم، في مقال منشور على الانترنت. ومصطلح تجار آزير الذي نتبناه مثل الدكتور حماه الله نريد له أن يعبر عن تجار من أصل سوننكي لكنهم ثقافيا مزدوجو الثقافة (صنهاجية – سوننكية).

121 في بداية القرن السابع الهجري كانت هجمة الصوصو التي أدت إلى انزياح بعض السوننكى شمالا إلى بيرو. فعمر السوننكى بيرو، وبدأت تشاركهم مسوفة في السكن بها وبالتقري في قرى حولها. وفي منتصف القرن الثامن أصبحت بيرو وضواحيها تسمى إيولاتن بلسان مسوفة، كانت كذلك حين زارها في ذلك العهد الرحالة ابن بطوطة.

المسار الثالث: تاريخ الهالبولارن الموريتانيين

1 الجيل الأول: أهل تكرور وأهل سلى

1.1 انطلاق تجارة الذهب من تكرور

أول ما ذكرت المصادر التاريخية كلمة تكرور كانت تعني مدينة على ضفاف ما يعرف اليوم بنهر السنغال، قريبا من مدينة بودور السنغالية الحالية، فقد ذكرها البكري (ق5هـ) في ما نصه:

" ... ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة (= من جهة الشرق) على النيل (= نهر السنغال) مدينة تكرور أهلها سودان، وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم ...".

***

نتيجة البحث الذي أجريناه تشير إلى أن مدينة تكرور كانت معروفة قديما، على الأقل منذ القرن الثاني الهجري، نستند في ذلك إلى استنطاقنا لشاهد شعري ورد في ديوان الإمام الشافعي:

يبدو أن الإمام الشافعي رحمه الله سمع بتكرور وبتبر (=ذهب) قادم منها قبل وفاته سنة 204هـ؛ ذلك أن الأبيات التالية منسوبة إليه في ديوانه (نقلا عن ديوان الإمام الشافعي ج1/ص47، ضمن النسخة الإلكترونية من المكتبة الشاملة):

أمطري لؤلؤاً جبالَ سـرنديـ ـبَ وَفِيضي آبارَ تكرورَ تِبْرَا
أَنَا إنْ عِشْتُ لَسْتُ أعْدَمُ قُـوتاً وَإذا مـتّ لَسْتُ أعْدَمُ قَبْرَا
همتي همَّةُ الملوكِ ونفـسي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُـفْرَا
إذا ما قبعتُ بالقوتِ عمـري فَلِمَاذَا أزورُ زَيْداً وَعَمْـرَا

ويظهر لنا من سيرة الشافعي أنه سمع بتكرور بعد وصوله إلى مصر سنة 199هـ.

بما يمكن معه أن نفترض أن أمر ذهب تكرور اشتهر بين المسلمين وصار مضرب المثل في القرن الثاني الهجري، قبل أن تصبح الشهرة في القرون الموالية من حظ ذهب غانة.

والذي نفسر به اشتهار ذهب تكرور قديما هو أن استجلاب الذهب من تكرور كان من أول أنشطة التجارة عبر الصحراء التي انخرط فيها تجار

المسلمين[122]، بعد الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي. ولقد استمرت أولوية التجارة إلى تكرور عند التجار المسلمين مدة من الزمن، قبل أن تتمكن مملكة غانة بعد ذلك من احتكار الذهب.

---

122 حسب استقرائنا فإن الذهب الذي في بلاد الزنج وما يرافقه من تجارات أخرى كان، قبل انخراط تجار المسلمين في التجارة عبر الصحراء، يصرف إلى الشمال الإفريقي عبر ثلاث مسارات تتنافس وتتفاوت في مستوى نشاطها:

-مسار غربي تشرف عليه مملكة قديمة لأكنون تسمى قنورية (راجع مسار الولف الموريتانيين)، ويمر بمحاذاة الشاطئ الأطلسي من مصب نهر السنغال إلى قاعدة تجارية قديمة بالساقية الحمراء تسمى بلسان أكنون (الجناوية وفق تعبير الإدريسي) قوقدم (=كوكدم).

-مسار أوسط يقع فيه شراء الذهب من زغاوة على النهر، وهم شعب قديم كانوا على نهر السنغال حيث أصبحت تكرور بعد ذلك قبل أن ينزاحوا إلى الشرق قرب ما يعرف اليوم ببحيرة التشاد، وعندما يشتري التجار الذهب من زغاوة تسير به قوافلهم عبر مجالات لمتونة وملوكهم إنبية ليصلوا إلى كوكدم، والتي تسمى بلسان لمتونة (البربرية وفق تعبير الإدريسي) آزقي.

-مسار شرقي يربط مابين منطقة انحناءة نهر النيجر وبين الشمال الإفريقي، ويرعاه الجرميون (الجرامنت)، والذين قادهم الانخراط في رعاية تلك التجارة إلى تأسيس مملكة غانة الشهيرة.

وقد أدى التنافس بين مملكة قنورية على المحور الغربي من جهة وبين لمتونة وزغاوة على المحور الأوسط إلى حروب مستمرة من لمتونة وزغاوة ضد قنورية، قادت إلى غلب قنورية وتفرقهم في من حولهم من الشعوب، كما تنص عليه رواية الإدريسي.

ونشأت في بلاد زغاوة على النهر قاعدة تجارية مهمة لاستقبال الذهب من بلاد الزنج، تلك هي تكرور.

ثم أن ولاة المغرب من قبل الأمويين، لما أرادوا فتح الصحراء وبلاد السودان، أنفذوا سراياهم سالكين طريق المحور التجاري الغربي، مستعينين بمعلومات التجار بالمغرب، واخترق الفاتحون منطقة الساحل الموريتاني وقد أصبحت حينذاك خاضعة لملوك لمتونة (إنبية) بعد ما آلت إليهم من يد قنورية، ووصل الفاتحون المسلمون إلى النهر، كما جاء في مختصر فتوح البلدان للبلاذري:

"قال المشتري بن الأسود: غزوت بلاد إنبية من السوس الأقصى فرأيت النيل (=نهر السنغال) بينه وبين البحر الأجاج (=المحيط الأطلسي) كثيب من رمل، يخرج النيل من تحته .. "(نقلا عن ولد حامد).

ثم بدأ التجار المسلمون بسلوك المحور الغربي والاتجار مع أهل تكرور على النهر.

وعلم ولاة المغرب من قبل الأمويين عبر تجار المسلمين بأخبار مملكة غانة التي كانت شرقي تكرور، وكانت تكرور خاضعة لها في ذلك العهد بعد جلاء زغاوة عنها إلى الشرق، أو كانت تكرور على الأقل على تنسيق كبير مع مملكة غانة. ولاة المغرب قاموا على إثر ذلك بإنفاذ جيش إلى مملكة غانة، عسكر على الحدود

ومما ساعد في اضمحلال دور تكرور لصالح غانة ما قام به الفهريون في المغرب في أيام عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري (127هـ - 138هـ) من إنباط آبار على الطريق بين وادي درعة (بجنوب المغرب الحالي) وبين أوداغست وغانة، لتكون سبيلا لنشر الإسلام عبر تجارة المسلمين إلى بلاد السودان.

***

وفي النهاية أدى إلى فقدان تكرور لمكانتها كمركز من مراكز جلب الذهب ما كان بعد سقوط الدولة الأموية سنة 138هـ من بناء الخوارج من بني مدرار لمدينة سجلماسة سنة 140هـ؛ فتحولت تجارة الذهب في الفترة التي أعقبت ذلك إلى المحور المنطلق من غانة، مارا بقاعدة الصنهاجيين التجارية أوداغست، في اتجاه سجلماسة.
ومع ذلك بقي لتكرور ولمدة قرون بعد ذلك دور مهم في شبكة التجارة عبر الصحراء، خاصة لتصريف الملح القادم من مملحة آوليل على الشاطئ الأطلسي إلى بلاد الزنج.

2.1 انطلاق الفلان من سلى

أ) التعريف بسلى والتأريخ لإسلام أهلها:
تكلم البكري (ق 5هـ) عن مدينة سلي مباشرة بعد كلامه عن مدينة تكرور مخبرا بإسلامهم، فقال:
".. وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سِلى، وهي مدينتان على شاطئ النيل أيضاً **وأهلها مسلمون أسلموا على يدي وارجابي رحمه الله**. وبين سلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوماً في عمارة السودان القبيلة بعد القبيلة. وملك سلى يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم إلا مسير يوم واحد".
ويعلق المختار ولد حامد، في الجزء السياسي، ص 32، هامش 6، بما نصه:
"يظن أنها (=سلى) قريبة من قرية باكل الحالية".

ب) ذكر البكري لـ "الفامان" و "الهنيهين":
يقول البكري (ق5هـ):
".. وببلاد غانة قوم يسمون بـ**الهنيهين** من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا

الشمالية لها، قبل أن تتقطع به السبل هناك على إثر ما شهدته الأوضاع بالمغرب من اضطراب بدء من سنة 122هـ ومن انشغال المسلمين بالمغرب بذلك. وهذا الجيش المذكور هو الذي عناه البكري (ق 5هـ) في قوله" ... وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم، فهم بيض الألوان حسان الوجوه. وبسلى أيضاً قوم منهم يعرفون بالفامان.".

ينكحونهم، فهم بيض الألوان حسان الوجوه. وبسلى أيضاً قوم منهم يعرفون بـ**الفامان** ..".

ج) رأي بأن الفامان و الهنيهين عند البكري هم في الحقيقة "الفلان" و"الهنهنب":

يعلق المؤرخ المختار ولد حامد –رحمه الله- في جزء"التاريخ السياسي"، ص 39، في هامش على كلمة الفامان بقوله: "يقول نسابو الفلان أن أصلهم بيض، وعليه فيحتمل أن تكون (الهنيهين) تحريف (هنهنب) (كنهنب) لقبيلة منهم ..".

قلت: ومما يمكن به الجمع بين نصي البكري وولد حامد هو القول بأن الهنهنب، الذين هم من حفدة الجيش الإسلامي الذي أنفذه بنو أمية إلى بلاد السودان في صدر الإسلام، كانوا في عهد البكري طائفتين:

-طائفة بسلي بقيت محافظة على عقيدتها رغم انقطاع أسلافها لقرون عديدة[123] عن المحيط الإسلامي، لتظهر هذه الطائفة بعد ذلك وتتقوى بعد إسلام عموم أهل سلى على يد وارجابي ملك تكرور. ولتكون هذه الطائفة هي أصل الفلان.

-طائفة أخرى، تابعة لمملكة غانة، كانت أيام البكري قد اضمحل فيها الإسلام وشاعت الوثنية، فصاروا على دين أهل غانة كما يظهر من حالهم.

ثم يمكن أن نتصور بعد ذلك أن طائفة الفلان صار اسمها علما على كل الهنهنب، حتى بعد تجدد إسلام طائفة الهنهنب التي بغانة، وأن ذلك من فضل الله على الفلان من أهل سلى لتمسكهم بالإسلام لقرون عديدة أكثر من باقي الهنهنب.

ولنصل إلى الوضع القائم اليوم، حيث صارت تسمية الفلان هي الأكثر شيوعا، وبقيت تسمية الهنهنب موجودة كذلك كمسمى لإحدى المجموعات في عداد الفلان.

وليعني ذلك في النهاية وبعبارة اخرى أن الهنهنب والفلان المعاصرين أصلهم من نسل الفاتحين المسلمين[124]، وليسوا من أب واحد، وليس الهنهنب فرعا من الفلان.

والله أعلم بحقيقة ما كان.

ذلك إذًا رأي حول أصل نشأة الفلان، نرى مسوغات كافية لتبنيه.

وإنه مما ينبغي ذكره أن المصادر اختلفت كثيرا حول أصول الفلان، ولكنها –حسب اطلاعنا- مجمعة على أن الفلان أصلهم من منطقة نهر السنغال، ويرد فيها الحديث عن أصول عربية للفلان؛ فرأينا من هذه الناحية ليس بصوت نشاز.

ونود أن ندعم رأينا حول أصل الفلان أكثر بما سمعناه مرة من أحد الشيوخ من متقني الصنهاجية. فالصنهاجيون يسمون الفلان: فـلَّنْ، مفردها أَفُلٌّ؛ وقد قال ذلك الشيخ أن أفلٌّ

---

[123] لم ينص البكري على أن من اسماهم بالفامان (=الفلان في رأينا) ظلوا على إسلامهم، لكنه أيضا لم ينص على أنهم تحولوا إلى الوثنية كما قال عن الهنيهين (=الهنهنب في رأينا) التابعين لغانة الذين نص على أنهم أصبحوا على دين أهل غانة؛ فنحن نلتمس للفامان (=الفلان) الذين بسلى ولا يخضعون لسلطة كاسحة مثل غانة أن يكونوا قد وفقهم الله للبقاء على عقيدة الإسلام.

[124] إضافة: مما يجدر التنبيه عليه ما ذكره البكري من وجود موضع قرب سلى يسمى "صحابي".

أصلها بمعنى اتركه، وأن ذلك قد قيل لبعضهم إبان حرب كانوا طرفا فيها في سالف الدهر، ومنه نشأت تسميهم على ذلك النحو. هذا ما قاله ذلك الشيخ.
ومن الجدير بالذكر أن الشعوب كثيرا ما تكون أسماؤها الشائعة فعلا ناشئة عن تسميتها بها من طرف شعوب مجاورة، تميزهم بها عن غيرهم، وليس الحال أنهم دائما هم من يشيعون أسماءهم بأنفسهم. فليس بغريب إذًا أن يكون اسم الفلان ناشئا عن تسمية الصنهاجيين لهم "فلنْ"، لاسيما وأن الفلان قديما كانوا مباشرة مجاورين للصنهاجيين.
ومن المفيد أيضا أن نعلم أن الروايات الشعبية في أغلب الأحيان إنما تقدم إيحاءات فقط، ولا يؤخذ ما فيها حرفيا.
لدينا إذًا وفق كلام الشيخ متكلم الصنهاجية الإيحاء بأن الفلان "تركوا"؛ وهم فعلا – حسب الرأي الذي تبنينا أعلاه- ترك أسلافهم بين الزنوج وتقطعت بهم الأسباب. كما لدينا إيحاء بنشوء التسمية في ظروف حرب، وأسلاف الفلان هم جزء من جيش جاء إلى هناك بنية الجهاد والفتح؛ فمن هذا المنظور أيضا ينسجم كلام الشيخ المذكور مع ما تبنيناه.
ثم نقول زيادة على ذلك إن الفلان أنفسهم يستخدمون لفظ بُلَّ، لتمييز بعضهم عن بعض، كقولهم بلَّ فوته وبلَّ جير؛ وبُلَّ يسهل إرجاعها إلى فُلَّنْ الصنهاجية، ذلك أن قلب الفاء باءًا شائع عند بعض الفلان كما علمنا؛ ومن أمثلة ذلك قولهم "تبسيرُو" بمعنى علم التفسير.
وقلْ مثل ذلك في المفرد "بُـلُّو"، (الفلاني)، فإنه يتأتى بسهولة إرجاعه إلى "أَفُلُّ" الصنهاجية. والله أعلم.

د) بعض روايات الفلان حول نسبهم

للفلان روايات كثيرة حول نسبهم.
ولو كان الحال أن للفلان رواية واحدة متواترة، لما سمحنا لأنفسنا أصلا بالكلام حول نسبهم بغيرها. لكن في ظل اختلاف الروايات، فإننا حاولنا بلورة رأي لنا، كما رأيتَ.
إن جل روايات الفلان –حسبما اطلعنا عليه- تحيل إلى الانتساب إلى جد عربي.
فمن تلك الروايات مثلا ما نقله آدم عبد الله الآلوري في كتاب له بعنوان "تاريخ نيجريا[125]"، ولا ندري فيها ما المقصود تحديدا بالروم[126]:
- يعزو الآلوري (ص 129) للسلطان محمد بللو في كتاب إنفاق الميسور قوله:
"أما الفلانيون فأصلهم مزيج أمهم من تورد وهي من قبائل الروم وأبوهم عربي وهو عقبة بن نافع الصحابي الذي تزوج ببج مغ وأنجب أربعة أولاد وهم دعت وباس وواي ورعرب وقد قتل عقبة في بلاد البربر وخلف بنيه عند أمهم فشبوا وتكلموا بلسان غير لسان أبيهم وأمهم".
– ويعزو الآلوري (ص 132) مثل هذا القول أيضا للعلامة عبد الله بن فودي:

[125] تاريخ نيجريا. آدم عبد الله الآلوري. دار مكتبة الحياة. بيروت 1965.

[126] أنظر هل المقصود بالروم أغرمنطين (الجرمنت)، الذين هم بيض وتناسلوا في بلاد الزنج، ومن أحفادهم كما ذكرنا –بمصطلح أهل اليوم-: السوننكى وأغرمان الذين في لحراطين والولف.

"والقول بأن الفلانيين مزيج من الروم والعرب رواه العلامة عبد الله بن فودي عن أجداده حيث قالوا إن عقبة لما فتح المغرب سار حتى لقي قوما من الروم يدعى ملكهم برمندانه[127] فلما دعاه إلى الإسلام وأسلم تزوج عقبة ابنته المسماة بج مغ[128] فجاءت بأربعة أولاد".
وهناك روايات أخرى تتحدث عن قدوم أجداد (أو جد) الفلان من مصر.
ويمكننا أن نحاول تفسير هذه النماذج من روايات الفلان تفسيرا يُستأنس به لوجاهة الرأي الذي تبنينا، من دون أن يكون همنا هو إبدال تلك الروايات برأينا:
لقد أشرنا آنفا، في معرض حديثنا عن بدء التجارة من تكرور، إلى وصول جزء من جيش الفتح الإسلامي إلى الحدود الشمالية لمملكة غانة، بعد رأينا قبل ذلك وصوله إلى مصب نهر السنغال. وعند ما نعلم أن الطلائع الأولى للفتح الإسلامي دخلت إلى الصحراء سنة 116هـ بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أو ابنه عبد الرحمن، كما قال ولد حامد[129]، فإننا نجد في ذلك إحالة على أبناء عقبة بن نافع، وفي ذلك خيط ذهني يبرر ورود عقبة بن نافع في روايات الفلان. أما حول ورود مصر في روايات الفلان، فيمكن أن نقول: إن جيش الفتح، الذي رأينا أن الأسباب تقطعت به في بلاد الزنج هو قادم من المغرب. وبما أن ذلك الجيش كان تأكيدا من أصول مختلفة، فربما كان فيه بعض المصريين، خاصة أن فتح المغرب كله تم أصلا انطلاقا من مصر، بعد فتحها سنة 19هـ على يد عمرو بن العاص.

هـ) انتشار الفلان انطلاقا من سلى
رأيُنا إذًا -كما حرصنا على تأصيله- أن الفلان هم حفدة الفاتحين المسلمين، وأنهم كانوا بسلى حيث ذكروا في كتاب البكري تصحيفا باسم الفامان، وأن حركة تجديد إسلامية قامت فيهم في القرن 5 هـ بعد إسلام وارجابي، ملك تكرور الذي يتبعون له، وعلى إثر تلك الحركة ترسخ إسلامهم.
والفلان -كما يعرف من تاريخهم- تفرقوا بعد ذلك في شتى البلاد، دعاة إلى الله تعالى.
واليوم ينتشر الفلان في كل بلدان جنوب الصحراء من موريتانيا غربا إلى السودان شرقا، وفي العمق الإفريقي إلى شمال نيجيريا والكاميرون[130].

---

[127] برمندانه اسم تلقب به عدد من ملوك مالي. يقول ابن خلدون عن مالي ما معناه أن أول من حج من ملوكهم برمندانه. وقد أشار مؤلف معاصر (طرخان)، في كتاب درس فيه بعمق تاريخ مملكة مالي، إلى تكرر برمندانه كاسم لعدد من ملوك مالي في أجيال مختلفة. قلت: لينظر هل برمندانه كانت ببساطة تعني الملك بلغة أهل مالي القديمة، ويكون المقصود هنا أحد الملوك، وربما ملك من أغرمنطين.

[128] لاحظ معي أن مغَ بالسوننكية: الملك، مع ما بيناه من أن السوننكى أحفاد أغرمنطين.

[129] الموسوعة، جزء التاريخ السياسي، ص 22.

[130] وقد قابلت شخصيا بعض أماثلهم بنيجريا والكاميرون، وشدني إليهم تعلقهم باللغة العربية.

و) أسماء الفلان اليوم

تطلق على شعب الفلان اليوم أسماء عدة، يبالغ بالقول إنها تزيد على المائة، ما بين أسماء أطلقتها عليهم الشعوب المجاورة لهم، وبين أسماء لبعض قبائلهم أو أحلافهم عممت، وبين أسماء أطلقوها هم على أنفسهم، ثم هناك الترجمات المختلفة، إلى غير ذلك.

ومما نذكره من الأسماء التي اطلعنا عليها بالارتباط مع الفلان:

الفلاني، فُلَّنْ، إيفلانْ، فله، الفلاته، الفولبي، Peul ، بُلّ، فلبَ، بولار، هالبولار،....

ولقد اخترنا ببساطة اسم الفلان.

الفلان الموريتانيون يعيشون إلى جنب إخوتهم وبني ثقافتهم التكارير في نفس المناطق.

ولإجمال الفلان والتكارير الموريتانيين تحت مسمى واحد نستخدم مصطلح "الهالبولارن". وهو اصطلاح عندنا ذو طبيعة مرحلية، لا مانع من تغييره إذا تبين عدم مناسبته كمصطلح جامع للفلان والتكارير معا[131].

3.1 حكم عائلة جاعوكا الفلانية في تكرور

مقتضى ما في روايات لدى الهالبولارن أن عائلة فلانية، هي عائلة جاعوكا (Dia ogo)، تحالفت مع مكونات عرقية[132] من غير سكان تكرور وأقامت أول حكم بتكرور. وقد قدر مترجم تاريخ فوته إلى الفرنسية –وفق ما نقل عنه ولد حامد رحمه الله- أن مملكة جاعوكا قامت ما بين سنتي 850م و1000م، وهو ما يوازي تقريبا الفترة الواقعة بين 236هـ و 391هـ.

---

[131] فائدة: نجد في جزء الجغرافيا من الموسوعة للمختار ولد حامد رحمه الله سياقين حول الفلان: في ص 30 تكلم عن السوننكى والتكارير والفلان، فعد التكارير هنا مستقلين عن الفلان. وفي ص 107 تحت عنوان "قبائل الفلان" عدد خمس أقسام اجتماعية: 1–توروديه، 2–فله أو الفلان، وهم البداوة 3–سبه أو الحربيون، 4–جاونبه، 5–جاجبي. وما لا حظناه هو أن جاونبه وسبه على الأقل هم من التكارير، كما تشير إليه مراجع أخرى حول فوتا تورو؛ ومن هذا نفهم أن لكلمة الفلان –عند ولد حامد– اطلاقين: إطلاق عام كاسم جامع للفلان والتكارير معا، وذلك معنى إجماله الفئتين تحت مسمى "قبائل الفلان"؛ وإطلاق خاص على القسم 2 من الأقسام التي ذكر، وسماهم أيضا فله.

[132] لعل وصول تلك العائلة الفلانية إلى الملك عبر تحالف لها مع مكونات من خارج وسطها هو ما لم تتهيأ معه الظروف ليقوى أكثر نبض عقيدة الإسلام، بعد ما كنا قد التمسنا بقاءه في الفلان منذ وصول أسلافهم إلى تلك النواحي في أيام الفتح الإسلامي وإلى أن يسر الله فشو الإسلام فيهم من جديد في القرن الخامس الهجري.

وقد اعتمد النشاط الاقتصادي لهذه المملكة بشكل أساسي على الحدادة وتصدير الصناعة التقليدية، فيما يروى.

4.1 إسلام أهل تكرور

دخل الإسلام إلى مدينة تكرور وما حولها من البلاد، في بدايات القرن الخامس الهجري؛ فقد ذُكر أن ابن حزم في الأندلس سمع بإسلامهم في نحو من سنة 430هـ، واستبشر به[133]. لقد كانت بداية إسلام أهل مدينة تكرور على الراجح مع إسلام ملكهم، الذي وجدنا أخباره عند البكري:
" ... ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل مدينة تكرور، أهلها سودان؛ وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، **حتى وليهم وارجابي بن رابيس؛ فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها؛ وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة (432هـ)؛ فأهل تكرور اليوم مسلمون** ".
والحمد لله على نعمة الإسلام.

5.1 أهل تكرور مع المرابطين

بعد خروج المرابطين من رباطهم مع بداية الأربعينيات من القرن الخامس الهجري، التحق بهم لبي بن وارجابي، أمير تكرور، الذي خلف والده على الملك بعد وفاته سنة 432هـ. وقد ذكر في عداد قواد جيش المرابطين يوم حاصرتهم جدالة في جبل لمتونة (جبل آدرار) سنة 448هـ:
" ثم رجعت جيوش بني جدالة إلى يحيى بن عمر فحاصروه في الجبل، وذلك سنة ثمان وأربعين، وهم في نحو ثلاثين ألفاً. وكان مع يحيى أيضاً عدد كثير، وكان معه لبّي بن ورجابي رئيس تكرور، وكان التقاؤهم هناك بموضع يسمى تيفريلى بين تاليوين وجبل لمتونة. فقُتل يحيى بن عمر رحمه الله وقتل معه بشر كثير، وهم يذكرون أنهم يسمعون في هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات، وهم يتحامونه ولا يدخله أحد ولا أخذ منه سيف ولا درقة ولا شيء من أسلحتهم ولا ثيابهم. ولم يكن للمرابطين بعد كرة إلى بني جدالة".
ذلك ما أورده البكري الذي كان يكتب قريبا من سنة 460هـ..

***

وتحتفظ الذاكرة الجمعية لقبائل التكارير إلى اليوم بمظاهر من أهمية حدث الانضمام إلى المرابطين عند أسلافهم، فقد قال المختار ولد حامد رحمه الله، وذلك في معرض حديثه

[133] نجد هذه المعلومة حاضرة في ذهننا، ولم نتذكر بعد المصدر الذي اطلعنا عليها فيه.

عن الجزيرة التي كان فيها المرابطون قبل انطلاقهم، والتي اختلفت الأقوال حول موقعها، هل هي في المحيط أم في النهر:
"أما الحكايات الشعبية لقبائل التكارير فتقول إنها جزيرة قريبة من مدينة بودور السنغالية"[134].
وبدون الحاجة إلى نقاش صحة رواية التكارير هذه من عدمها، فإنها على كل حال ترمز إلى ما كان للانضمام إلى المرابطين من أهمية كبيرة عند أهل تكرور قديما، وعند أحفادهم من بعدهم، ليحتفظوا بهذه الرواية حية في ذاكرتهم الجمعية نحوا من عشرة قرون[135].

***

مما سبق يتضح لنا إذًا أن إمارة تكرور كانت في حلف خاص مع المرابطين.
طبيعة العلاقة السياسية التي سادت بعد ذلك بين إمارة تكرور وإمارة المرابطين في الصحراء هي مما ليس لنا حوله رأي جازم. ونكتفي هنا بتقرير أنها كانت مرابطية قلبا.
فهل قالبا كذلك؟: الله أعلم.

2 الجيل الثاني: أهل سلطنة التكرور

1.2 نصوص مهمة للإدريسي ولابن سعيد

بعد جيل أهل تكرور المرابطين، جاء الجغرافي الإدريسي (ق6هـ) ليعطينا معلومات مهمة عن إمارة التكرور في عصره.
ثم جاء بعد ذلك الجغرافي ابن سعيد المغربي (7هـ)، فأفادنا بمعلومات أخرى حول إمارة التكرور. وابن سعيد يتضح من كتابه أنه قد اطلع على ما كان الإدريسي قد كتبه قبله، وعلى ما كتبه قبل الإدريسي أبوعبيد البكري في القرن الخامس الهجري.

***

سنسمي الحكم في تكرور في هذه المرحلة من حياته ب "سلطنة التكرور"، وقد توسع نفوذ سلطنة التكرور بعد إسلام أهل تكرور وأهل سلى خارج حدود المدينتين تكرور وسلى.

---

[134] الموسوعة، جزء التاريخ السياسي، ص 45.

[135] راجع في مسار البيضان الموريتانيين في معرض الحديث عن دولة المرابطين محاولة لنا هناك للجمع بين الروايات المختلفة حول مكان الرباط عند كل من البيضان والولف والتكارير.

إذًا، في المباحث الموالية -بإذن الله- سنسلط الضوء على جوانب من تاريخ سلطنة التكرور في القرنين السادس والسابع الهجريين، استنادا إلى نصوص الإدريسي وابن سعيد.

2.2 ذكر مقزارة السودان

ذكر الإدريسي (ق 6 هـ) شعب مقزارة عدة مرات. ففي شاهد أول نجد عنده ما نصه:
" ... وفي هذا الجزء الذي رسمناه من المدن اوليل وسلى وتكرور وبريسى ودو وموره، وهذه البلاد من أرض **مقزارة** السودان ...".
ويذكر مقزارة في سياقات أخر، فيقول مثلا:
"... وبلاد لملم تتصل من جهة المغرب بأرض **مقزارة** ومن جهة المشرق بأرض ونقارة ومن جهة الشمال بأرض غانة ومن جهة الجنوب بالأرض الخالية وكلامهم كلام لا يشبه كلام **المقزاريين** ولا كلام الغانيين ..." .
ثم ذكر ابن سعيد مفزارة.
ولقد تعدد ورود اسم هذه القبيلة عند الإدريسي بلفظ "مقزارة"، بينما وردت مرة واحدة فقط عند ابن سعيد بلفظ "مفزارة"؛ ولعل ذلك يجيز لنا أن نعتبر أن لفظ مقزارة عند الإدريسي هو اللفظ الصحيح[136]، وأن لفظ مفزارة عند ابن سعيد تصحيف له. يقول ابن سعيد:
" ... وأول ما يلقاك على غربي النيل من مدائن التكرور مدينة قلنبوا وهي فرضة مشهورة وكانت في زمن أبي عبيد البكري للكفار. وأما في عصرنا فما على شاطئ النيل من بلاد التكرور مدينة إلا وقد دخلها الإسلام. وجميعها لسلطان التكرور، وقاعدتها على جانبي النيل اسمها تكرور فيها عرفوا، ونسلهم يقال له **مفزارة (=مقزارة!)**. وهم قسمان قسم يحضر ويسكن المدن وقسم رحالة في البوادي وأكثر مجالاتهم في جانب النيل الشمالي ولهم في الجنوب قليل ...".

---

136 ملاحظة: لم يتسن لنا بعد الاتصال ببعض مؤرخي التكارير، لمحاولة تأصيل الاسم مقزارة (أومفزارة)؛ مع ذلك نستصوب أن لا تفوتنا الإشارة هنا إلى وجود قول، وإن لم نتثبت بعد من مستنده، بأن ملوك مانا أصلهم سوننكة (سراغولي) من نواحي انيورو بمالي الحالية. فإذا ثبت ذلك، وعلمنا أن انيورو تلك قريب منها موضع زَارَا، الذي كان فيه –بالمناسبة– غزو الأسكيا الحاج محمد لفلان دنيانكوبي من ياللب ومنهم تنكله سنة 918هـ، ثم علمنا كذلك أن الملك لدى السوننكة كان قديما يلقب مغَ (أو مقَ)، فإنه يمكننا أن نخلص إلى أن أصل اشتقاق مسمى مقزارة هو من العبارة مقَ زَارَا، أي: ملوك زارَا؛ وبعبارة أخرى يكون ملوك مانا من نسل ملوك زارا (مق زارا)، الذين كانوا تابعين لغانة، قبل أن يتحولوا عنها إلى تكرور ويتمكنوا من الوصول إلى الحكم فيها. والله أعلم بحقيقة ما كان.

3.2 في ظل الهوية المقزارية

<u>في البداية:</u>

يقودنا وصف ابن سعيد لسكان مدينة تكرور بأن "نسلهم يقال له مقزارة" إلى الاعتقاد بأن مقزارة قبيلة، بمعنى انتسابها إلى أصل واحد.

ومن جهة أخرى، فإن قوله بأن مقزارة "قسمان قسم يحضر ويسكن المدن، وقسم رحالة في البوادي" يوحي لنا بأن القرن 7 هـ شهد ميلاد ظاهرة التمايز في نمط العيش بين المجموعتين المعروفتين اليوم: مجموعة الفلان (بدو في الغالب)، ومجموعة التكارير (حضر في الغالب)، واللتين يجمعها اليوم مفهوم ثقافي موحد هو شعب الهالبولارن.

***

<u>قبيلة مقزارة .. هي أصل التكارير:</u>

نحن تأملنا في مسألة مقزارة، ورأينا أن التفسير الذي تنسجم به النصوص مع الواقع، يحملنا على اعتبار مقزارة في الأصل عائلة ملكية من سكان تكرور القديمة، تطورت إلى قبيلة، ثم إلى هوية ثقافية. وأن التكارير الموريتانيين ينحدرون من نسل مقزارة.

***

<u>تشكل الهوية الثقافية المقزارية:</u>

يصف الإدريسي المدن التابعة لحكم التكرور بأنها "أرض مقزارة السودان" أو " أرض مقزارة"، ونستدل من ذلك على أن مقزارة كانت القبيلة المالكة -إذا صح منا هذا التعبير- أوالعصبية وفق تعبير ابن خلدون، التي ارتكز عليها الحكم في سلطنة التكرور في هذه الفترة من حياتها.

كما نجد عند الإدريسي وصفا لسلطان التكرور في عصره بكثير من معالم الخيرة، وذلك في سياق قوله:

"ومن جزيرة آوليل إلى مدينة سلى ست عشرة مرحلة ومدينة سلى على ضفة نهر النيل وبشماله وهي مدينة حاضرة وبها مجتمع السودان ومتاجر صالحة وأهلها أهل بأس ونجدة وهي من عمالة **التكروري وهو سلطان مؤمر وله عبيد وأجناد وله حزم وجلادة وعدل مشهور وبلاده آمنة وادعة"**.

فهذه في نظرنا بيئة مناسبة جدا لتشكل هوية ثقافية مقزارية قوية في تلك الفترة. ويمكننا تأكيد رأينا هذا باستنطاق نص آخر للإدريسي، وفيه يقول:

"... وبلاد لملم تتصل من جهة المغرب بأرض **مقزارة** ومن جهة المشرق بأرض ونقارة ومن جهة الشمال بأرض غانة ومن جهة الجنوب بالأرض الخالية وكلامهم كلام لا يشبه **<u>كلام المقزاريين</u>** ولا كلام الغانيين **...**" .

فهذا النص يدلنا على أن كل الأراضي التابعة لحكم التكرور كانت لها نفس اللغة، وتوحيد اللغة هو أول مقدمات توحيد الهوية الثقافية.

يمكننا إذًا أن نقول إن القرن 6 هـ شهد تشكل الهوية الثقافية المقزارية.

***

مقزارة الحضر .. ومقزارة الرحل:

لقد ذكر ابن سعيد(ق 7هـ) أن مقزارة قسمان:

- "قسم يحضر ويسكن المدن"، ونسميهم مقزارة الحضر.
- و"قسم رحالة في البوادي"، ونسميهم مقزارة الرحل.

ونريد أن نتساءل عن مكان الفلان في هذا التقسيم:

- فهل الفلان ببساطة هم مقزارة الرحل الذين يعنيهم ابن سعيد (في القرن السابع الهجري)، فيكونون قد انتقلوا إلى وضع الترحال، بعد ما كان من استقرارهم في سلى في القرن الخامس الهجري عند ما ذكرهم البكري؟. هذا احتمال أول.

- أم هل أن الفلان كانوا لا يزالون في القرن السابع الهجري من أهل الحضر، وفي سلى تحديدا حيث كانوا من قبل، فتكون مقزارة الرحل التي عناها ابن سعيد هي عبارة عن فئة من مقزارة تمارس الترحال، لكنها ليست الفلان. هذا احتمال ثاني.

***

الفلان .. هم مقزارة الرحل

إن الاحتمال الأول من الاحتمالين المذكورين أعلاه هو الصواب، إن شاء الله. بمعنى أن الفلان في القرن السابع الهجري كانوا قد انتقلوا إلى نمط الترحال، بعد ما كان من استقرارهم في سلى في القرن الخامس الهجري.

ذلك أنه بعد ما تحول مسمى مقزارة أيام سلطنة التكرور من مجرد قبيلة في تكرور (هي أصل التكارير) إلى شعب ذي هوية ثقافية قوية وموحدة، يضم قبائل من أصول متعددة، من ضمنها قبيلة الفلان، أصبحت مقزارة القبيلة الأصلية مع أحلافها الحضريين تمثل مقزارة الحضر في تقسيم ابن سعيد، وأصبح الفلان في هذا التقسيم يمثلون مقزارة الرحل.

ويؤيد رأينا هذا بأن مقزارة الرحل هم الفلان ما يلي:

لقد كانت سلى في عهد البكري مدينة على ضفتي النهر (=نهر السنغال)، فهو يقول: "وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة **سِلى**، وهي مدينتان على شاطئ النيل".

أما في عهد الإدريسي فقد اقتصر العمران في سلى على الضفة الشمالية للنهر مع أنه زاد كما يفهم، بينما اضمحل في الضفة الجنوبية؛ يقول الإدريسي:

"ومن جزيرة اوليل إلى مدينة سلى ست عشرة مرحلة **ومدينة سلى على ضفة نهر النيل وبشماله** وهي مدينة حاضرة وبها **مجتمع السودان ومتاجر صالحة** وأهلها أهل بأس ونجدة وهي من عمالة التكروري (...) والبلد الذي هو فيه مدينة تكرور وهي في جنوب النيل وبينها وبين سلى مقدار يومين في النيل وفي البر ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة ...".

ومن مجموع هذين النصين نفهم:

أن أهل تكرور كانوا أهل حضر حقيقيين، همهم الرئيس نماء التجارة في مدينتهم؛ ولقد زاد عمران مدينتهم مع بقائهم في نفس المكان على الضفة الجنوبية ما بين عهد البكري (ق5هـ) وعهد الإدريسي (ق6هـ).

أما أهل سلى فإنهم تركوا عنهم الضفة الجنوبية (لأهل تكرور!)، وركزوا حياتهم على الضفة الشمالية. ولما صاروا بذلك مجاورين أكثر للصحراء وسكانها، قاد ذلك كثير منهم إلى التأثر بنمط حياة الترحال لدى جيرانهم البيضان (الصنهاجيين).
ثم بعد البكري (ق5هـ) وبعد الإدريسي (ق6هـ)، يأتي الدور على ابن سعيد (ق 7هـ) ليقول لنا:
"وأما في عصرنا فما على شاطئ النيل من بلاد التكرور مدينة إلا وقد دخلها الإسلام. وجميعها لسلطان التكرور، وقاعدتها على جانبي النيل اسمها تكرور فيها عرفوا، ونسلهم يقال له **مفزارة (=مقزارة!).** وهم قسمان قسم يحضر ويسكن المدن وقسم رحالة في البوادي وأكثر مجالاتهم في جانب النيل الشمالي ولهم في الجنوب قليل".
ولم يذكر ابن سعيد(ت685هـ) سلى بما يعني أنها قد اضمحلت لعهده.
نحن نقول:
بعد أن أعجب الفلان نمط البداوة عند جيرانهم الشماليين بدؤوا تدريجيا في هجر مدينتهم سلى، وإنه لمن ثمَّ كانت بداية هجراتهم الكبيرة الشهيرة إلى بقاع مختلفة من البلاد المجاورة، كما سنعود إليه لاحقا بإذن الله عند الكلام عن "هجرات الفلان".

4.2 حول حدود سلطنة التكرور

ورد عند الإدريسي (ق 6 هـ) ما يلي:
" ... وفي هذا الجزء الذي رسمناه من المدن اوليل وسلى وتكرور وبريسى ودو ومورة، وهذه البلاد من أرض **مقزارة** السودان ...".
ومدينة آوليل المذكورة هنا كانت عندها مملحة شهيرة، ظلت منذ زمن طويل قبل عصر المرابطين وحتى عهد قريب من أهم الممالح التي يتمون منها التجار ويصرفون ملحها إلى بلاد السودان.
وهناك احتمالات عدة حول موقع آوليل، أرجحها: أنها كانت عند المكان المعروف اليوم ب "انْ تَـرَرْتْ"، ومعناه ذو الملح، الواقع إلى الغرب من مدينة تكند الحالية (=108 كلم جنوب نواكشوط).
من خلال نص الإدريسي هذا معضدا ببعض ما في كلام ابن سعيد من بعده، نعلم أن كل المنطقة الواقعة ما بين مدينة تكرور والمحيط كانت آنذاك تابعة لحكم سلطان تكرور.
فهل امتدت حدود سلطنة التكرور شمالا، حتى ضمت إليها آوليل؟
إننا نجزم بذلك: فهو ما يدل عليه قول الإدريسي إن "آوليل و... و... من أرض مقزارة السودان". ثم أننا لا نتوقع لسلطان التكرور أن يفرط في ضم مملحة آوليل إليه نظرا لأهميتها التجارية الكبيرة، خاصة مع ضعف القبائل المرابطية في فترة ما بعد المرابطين.
ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن سلطان تكرور لم يتمكن من ضم آوليل والاستئثار بتجارة الملح إلا بعد أن أزاح أكنون (=راجع مسار تاريخ الولف) من مجال منافسته، الذين كانوا متمركزين بقاعدتهم صنغانة قرب مصب النهر في المحيط. ودليل إزاحة سلطان

التكرور لأكنون عن مجال منافسته أن صنغانة كانت في عهد البكري (كتب سنة 460هـ) عامرة، بينما لا نجد لها ذكرا عند الإدريسي (ق6هـ) ولا عند ابن سعيد بعده (ق7هـ)، مما يدل على اضمحلالها في فترة ما بين عهدي البكري والإدريسي.

5.2 ميلاد هوية تكرورية

يقول ابن خلدون:
" ثم أن أهل مالي كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك، واستطالوا على الأمم المجاورين لهم، فغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم –من ملكهم القديم، وملك أهل غانة- إلى البحر المحيط من ناحية الغرب".
ولقد بدأ صعود أهل مالي الذي يتحدث عنه ابن خلدون في عهد ماري جاطة (628هـ - 653هـ)، المعروف أيضا باسم سوندياتا أو سنجاطة.
ومع ترسخ الحكم في دولة مالي بدت ملامح إشكال مرتبط بمسمى التكرور:
كأن مسمى التكرور انتقل من ضفاف نهر السنغال حيث كان في أيام ابن سعيد (ت685هـ)، ليصبح في المصادر التاريخية من بعد ذلك علما على أمة شرقي أمة كوكو وغربي أمة كانم، مع العلم بأن المؤرخين يقصدون بأمة كوكو أهل مدينة كاو بالطرف الشرقي من مالي الحالية، وأن كانم تطلق اليوم على منطقة شمال بحيرة التشاد. لدينا مثلا النص التالي لابن خلدون (ت808هـ):
"... أولهم (=السودان) مما يلي البحر المحيط أمة صوصو، وكانوا مستولين على غانة ... ثم يلي أمة صوصو أمة مالي من شرقهم وكرس ملكهم بمدينة بني ثم من بعدهم شرقاً عنهم أمة كوكو. ثم التكرور بعدهم، وفيما بينهم وبين النوبة أمة كانم وغيرها".

ويقول ابن خلدون في شاهد آخر:
... ثم وليهم (=مالي) من بعده مولى من مواليهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة. وقال الشيخ عثمان ضبطه بلسانهم أهل غانة سبكرة وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا. وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم. وافتتح بلاد كوكو وأصارها في مملكة أهل مالي. واتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور في المشرق، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ...".
وهناك مصادر أخرى عدة تكلمت عن دولة مالي، تؤكد لنا نفس الشيء:
لقد أصبح مسمى التكرور (فجأة!) علما على أمة في الشرق البعيد، ما حول الحدود الحالية بين مالي والنيجر.
هذا إشكال؛ ونود الآن أن نحدده أكثر من خلال التساؤلات التالية :
منهم هؤلاء التكرور الشرقيون (الجديدون)؟
هل هم نفس التكرور الغربيون، انتقلوا عن بكرة أبيهم أو انتقل معظمهم من ضفاف نهر السنغال إلى الشرق؟ ثم ما الذي أدى بالغربيين إلى الهجرة شرقا؟
أم هل أن التكرور الشرقيين قوم غير التكرور الغربيين؟

وإذا كان الجواب بنعم، فلما ذا طغى ذكرهم على ذكر التكرور الغربيين؟
ثم ما الذي حدث للتكرور الغربيين؟
نحن هنا في سياق الحديث عن تاريخ الموريتانيين، سنركز فقط على التساؤل الأخير، ونهتم بالذي حدث للتكرور الذين بقوا في أراضي سلطنة التكرور السابقة (مملكة مانا)، من حيث أنهم هم أسلاف الهالبولارن الموريتانيين المعاصرين[137].
نعم، يجوز فعلا أن يكون بعض سكان سلطنة التكرور في ما حول فترة قيام دولة مالي قد انتقلوا شرقا إلى حيث صار مسمى التكرور؛ وربما كان أمامهم إخوان لهم سبقوهم إلى هناك بفترة. الله أعلم.

6.2 أخبار التكرور الغربيين أيام مملكة مالي

المهم أن بعض أهل سلطنة التكرور الأول بقوا في الغرب على ضفاف النهر، منهم انحدر "التكارير" المعاصرين، ومنهم الذين استمرت ذاكرتهم الجمعية عبر القرون محتفظة بذكر تكرور القديمة، ومنهم الفلان المنحدرون من سلى القديمة.

***

لنتجه إذًا إلى أخبار التكرور الذين بقوا في الغرب.

---

137 بخصوص الإشكالات الأخرى المتعلقة بمسمى التكرور، لنا رأي خاص وصلنا إليه بعد بحثنا لهذه المسألة ويتلخص في ما يلي: إن الإدريسي ذكر لنا أن قبيلتي زغاوة ولمتونة كانتا قديما في حرب ضد قنورية (ملوك أكنون) الذين بالساحل الموريتاني، وانتصرت القبيلتان وتفرقت قنورية، فيظهر لنا أن زغاوة بعد انتصارها مع لمتونة على قنورية وصعود دورها في تجارة الذهب وبنائها لقاعدة تجارية هي تكرور، دخلت في صراع مع مملكة غانة أدى إلى انتصار مملكة غانة، وجلاء قيادات زغاوة ومن معهم من أحلاف كقبيلة تسمى في المراجع بالتاجويين وهجرتهم جميعا عبر مجالات الصنهاجيين إلى أقصى الشرق، حيث زغاوة اليوم قرب بحيرة التشاد؛ لكن الذاكرة الجمعية للزغاويين والتاجويين ظلت محتفظة بذكر أيام تكرور والحنين إليها. كذلك فإنه لما بدأت هجرات الفلان من سلى إلى مختلف الآفاق وهم قادمون من سلطنة التكرور على نهر السنغال، وبعد ما اضمحلت بعد ذلك سلطنة التكرور بالغرب في النصف الثاني من القرن السابع الهجري تحت ضغط الصوصو ثم مملكة مالي من جهة الشرق، وضغط إمارتي بيلكه وانيرزيك في المجال البيضاني من جهة الشمال، هاجر من أهل تكرور من هاجر، وتوجه منهم إلى شرقي أمة كوكو من توجه. وحول ملتقى القرنين السابع والثامن بدأت مناطق من دولة النيجر الحالية تشهد تقمصا وإحياء لتسمية التكرور: هناك كان الزغاويون والتاجويون (أهل تكرور في سالف العصور)، وهناك من وصل إليهم من المهاجرين الجدد القادمين من سلى وتكرور.

تحدث مؤرخو فوته عن مملكة مانا[138] التي كانت قائمة بتكرور حتى 1300م (700هـ). وبما أن الممالك السودانية تنسب عادة إلى مدن أو عائلات حاكمة (سمة الملك)، فيظهر لنا أن مانا كانت هي عائلة الملك في سلطنة تكرور حتى 700هـ[139].
وترجع مقدمات اضمحلال الملك في مانا إلى أربعينيات هذا القرن السابع: مع هجمات ملك مالي سنجاطة ضد مملكة الصوصو، وانزياح كثير من الصوصو نحو مجال التكرور في الغرب.
ومع حفاظ مانا على قوام الملك إلى أيام حديث ابن سعيد (ولد 610هـ، توفي 685هـ) عن سلطان التكرور، فإنهم يبدؤوا تدريجيا يفقدون من نفوذهم مع تصاعد نفوذ الصوصو في أراضيهم. ويضاف إلى هموم ملوك مانا تصاعد دور إمارتي بيلكه وانيرزيك شمال النهر في نفس الفترة الزمنية (أواخر القرن السابع الهجري).

***

وليكون القضاء النهائي على شوكة مانا قد تم بعد ذلك مع الحملات التوسعية لملك مالي ساكورة؛ يقول ابن خلدون:
... ثم وليهم (=أهل مالي) من بعده مولى من مواليهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة. وقال الشيخ عثمان ضبطه بلسانهم أهل غانة سبكرة، وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا. وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم. وافتتح بلاد كوكو وأصارها في مملكة أهل مالي. واتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور في المشرق، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان ...".
ساكورة هذا نص ولد حامد في جزء التاريخ السياسي، ص 68، على أنه حج حوالي سنة 700هـ[140].

***

وينسجم هذا الجمع بين الروايات مع نص ابن خلدون الذي أوردناه سابقا؛ ويقول فيه، وهو يعرف بمجالات السودان لعهده (وهو في عهد مالي):

---

138 أورد المختار ولد حامد في التاريخ السياسي، ص 32، عازيا إلى "مترجم تاريخ فوته إلى الفرنسية"، أن أقدم دولة في التكرور هي مملكة جاعوكا، وقدر المترجم أنها قامت ما بين سنتي 850م و1000م، وهو ما يوازي تقريبا الفترة الواقعة بين 236هـ و 391هـ؛ ثم تلتها في الحكم مملكة مانا فيما بين 1000م و1300م، أي ما يوازي الفترة الواقعة ما بين 391هـ و700هـ..

139 تنبه: نتذكر أننا قرأنا في سياق تاريخ السوننكى عن عائلة manna أو mannamagan في حديث مرتبط بتكرور.

140 ولد حامد كان قد نقل عن ابن خلدون أن ساكورة حج في عهد الناصر. ويرى ولد حامد أن المقصود بالناصر: إما يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني (685هـ – 706هـ)، أو ناصر الدين محمد من المماليك (698هـ – 708هـ)؛ ومن ذلك استنتج ابن حامدون فيما يبدو أن حجة ساكورة كانت حوالي 700هـ.

"... أولهم (=السودان) مما يلي البحر المحيط أمة صوصو، وكانوا مستولين على غانة ودخلوا في الإسلام أيام الفتح ... ثم يلي أمة صوصو أمة مالي من شرقهم وكرس ملكهم بمدينة بني ثم من بعدهم شرقاً عنهم أمة كوكو. ثم التكرور (=الشرقيون!!) بعدهم، وفيما بينهم وبين النوبة أمة كانم وغيرها".

إذاً فالصوصو قد تحكموا في مجال التكرور الغربيين (=مما يلي البحر المحيط)[141].

ولعل ذلك فعلا هو ما أجهز على مسمى التكرور عند الغربيين على ضفاف النهر، لينفرد به الشرقيون عنهم.

[141] نتذكر أننا اطلعنا عبر مصادر –تحتاج إلى مزيد من التثبت– على معلومتين تشيران إن صحتا إلى وجاهة رأينا بانسياح الصوصو غربا بعد مهاجمة مالي لهم لينازعوا أهل مانا في ملكهم: أولاهما – أن عائلة الصوصو التي أسقطت غانة، كانت لها أصلا علاقة سابقة بأهل تكرور؛ أو قادمة من هناك. والثانية – تنص على أن الصوصو فعلا فروا إلى التكرور وحكموا هناك، حتى قضت على حكمهم مملكة جلف في منتصف القرن 14م (منتصف القرن 8هـ). والله أعلم.

7.2 ما بعد مانا؟

أوصلتنا المراجع القديمة، من روايات لجغرافيي العرب ومؤرخيهم، إلى أن الصوصو ومالي كانا سببين من أسباب سقوط سلطنة التكرور الغربيين، التي كانت تسمى أيام سقوطها بمملكة مانا حسب الرواية الشفوية.
ويبدو أن الروايات المحلية لأهل المنطقة تتحدث عن سلالة اسمها تونديون، هي التي تولت الحكم في "التكرور بدء من سنة سقوط مانا 1300م (=700هـ)، وظلت حاكمة حتى 1400م (=803هـ).
الذي بين أيدينا الآن من معلومات لا يمَكننا من فحص صحة نسبة هذه الرواية إلى أهل المنطقة. ولا يعطينا من التفاصيل غير اسم العائلة ومدة حكمها.
ولكن لا شيء أيضا ينفي احتمال أن تكون سلالة تونديون هذه من الصوصو، أو أن تكون حكمت بتنصيب لها من الصوصو، قبل أن يصبح الجميع إقليما من أقاليم دولة مالي الإسلامية.

8.2 بين قوسين: هجرات الفلان

تتحدث بعض المصادر عن هجرات للفلان في القرن الخامس الهجري، انطلاقا من من منطقة نهر السنغال نحو أعماق إفريقيا، وذكرت لهم هجرات أخرى بعد ذلك في فترات زمنية متفاوتة.
ومن الشواخص التي أمكننا جمعها للتأريخ لتلك الهجرات ما يلي:
- هناك ذكر لوصول أجداد عثمان بن فودي إلى أرض نيجيريا الحالية في القرن الخامس الهجري. أورد ذلك آدم عبد الله الآلوري عازيا إلى عبدالله بن فودي: التوردب أخوال الفلانيين، جاءوا من فوت تور. هاجر بالتوردب جدهم الحادي عشر إلى بلاد الهوسا في القرن الـ 5هـ.
- هجرة الفلان إلى ماسينا في القرن 8هـ.
- استقرار لبعض الفلان بالإمارات الهوسوية في شمال نيجريا في القرن التاسع الهجري.
- هجرة فلان من فوتا تورو إلى فوتا جالون مع علمائهم بدء من 1675م / 1086هـ.

9.2 عودة: أراضي التكرور في القرنين 8 و9 هـ

سقطت إذن مملكة مانا سنة 700هـ، وصارت أراضي التكرور بدء من مطلع القرن الثامن الهجري خاضعة لمملكة مالي الإسلامية.
كان الحكم في الفترة ما بين 700هـ و803هـ في عائلة تونديون، وقد ذكرنا أن ذلك هو مقتضى رواية تحتاج مزيدا من الفحص. والحكام في تلك الفترة على كل حال هم بمثابة ولاة على أراضي تكرور من قبل دولة مالي الإسلامية التي كانت تشهد في هذه العهد فترة صعودها.
ويبدو أن الأراضي التكروية ظلت طيلة حكم تونديون ثم لفترة بعد ذلك تابعة لمملكة مالي الإسلامية[142].
بعد سريان الضعف إلى مملكة مالي في القرن التاسع الهجري، انتفض ولاة إقليم جلف (=راجع مسار تاريخ الولف)، فرسخوا ملكهم وضموا إليهم الجزء الغربي من أراضي مالي، وأصبحت منطقة فوته من أراضي التكرور تابعة لهم.

3 الجيل الثالث .. وفيه ميلاد هوية الهالبولارن

رأينا كيف تشكلت، بدء من القرن 6 هـ، هوية جامعة لشعب المقزاريين، أهم مرتكزاتها وحدة اللغة.
ورأينا أن شعب المقزاريين كان آنذاك قد تمايز إلى قسمين تبعا لاختلاف نمط العيش:
مقزارة الحضر، وقاعدتهم تكرور.
مقزارة الرحل، وقاعدتهم سلى، فيها حلهم وعنها ترحالهم.
وقد أدى -عبر التاريخ بعد ذلك- تفاعل مختلف المكونات العرقية في المنطقة مع مظهري وحدة اللغة واختلاف نمط العيش إلى ترسخ الهوية الثقافية المشتركة مع انقسام مستمر للمكونات العرقية وفق القطبية في نمط العيش.
التمايز في نمط العيش لازال قائما إلى اليوم، والهوية الثقافية المشتركة لا زالت باقية إلى اليوم؛ هذا الشعب اليوم فئتان:
- تكارير (سمتهم الغالبة التحضر)،
- فلان (سمتهم الغالبة الترحال).
والمفهوم الثقافي الجامع اليوم لهاتين الفئتين هو الهالبولارن، ويعني متكلمي البولارية.
ولنا أن نتساءل كيف تحول هذا الشعب من تسميته بالمقزاريين، ثم التكرور من بعد ذلك في سياق ملتبس أشرنا إليه، إلى تسميته بالهالبولارن؟
نحن نعتقد أن ميلاد الهوية الهالبولارية كان مرتبطا تحديدا بفترة صعود عائلة آل تنكله الفلانية:
بدءً من صدر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) حكمت عائلة آل تنكلا الفلانية في فوته وما جاورها، ولمدة أزيد من قرنين. والذاكرة الجمعية لمتكلمي

[142] تتحدث بعض الروايات عن تقسيم المنطقة بعد تونيدون بين أربع عائلات مختلفة، أشهرها عائلة لام ترمس.

البولارية تحتفظ لنا اليوم برواية تفيد بأن أصل نشوء تسمية هالبولار أن ملكا كان يقول لكل من لم يتكلم بلغته: هال بولار، أي تكلم بلغة بولار. فغالب الظن أن ذلك الملك كان من الفلان (بلّ) من آل تنكله هؤلاء. والله أعلم.

4 شواخص من تاريخ الهالبولارن بعد ذلك

أ) مملكة آل تنكِله:

استمرت من 934هـ إلى 1184هـ، أي ما يوازي الفترة ما بين 1527م – 1770م.

كتب عنها المختار ولد حامد، في جزء التاريخ السياسي، ص222-223، ما يلي:

لقب الملك سَاتِكِي، أو سِرَاتيكي، أو سَالْتِكِي؛ بكافات معقودة.

أسس هذه الدولة كولي تنكِله[143] الفلاني الدنيانكوبي ثم اليااللبي، الذي هرب من كِاياك (بمالي) بمجموعة من قبائل الفلان (يااللبي، وُرُبِي، فَارَيْبي) عند ما غزاهم الحاج محمد في بلدة زَارَا (موضع بمالي الحالية) وقتل والده تنكله حوالي سنة 918هـ.

واستطاع كولي أن يستولي على فوته التي كانت في ذلك العهد جزءا من مملكة جلف[144]، بعد أن قتل سلطانها. فأقام فيها دولته التي توارثها بنوه من بعده. واختلفت المراجع التكرورية التي تعرضت لذكر هذه الدولة في أسماء ملوكها، وفي عددهم، وترتيبهم، وتاريخ توليهم السلطة. فهم عند الشيخ زبيرُ 24، وعند غيره 28.

وقد ذكر صاحب تاريخ السودان ستة من ملوك هذه الدولة، لكنه لم يتعرض لتاريخ حكمهم. والذين ذكرهم هم:

1- كولي تنكله مؤسس الدولة.

2- يرو (ابنه)[145].

3-كِلاجُوتَبَارا (ابن يرو). وقال عنه أنه كان رجلا خيرا فاضلا، بلغ الغاية القصوى في العدل.

4- كِات (ابن يرو أيضا).

5- صنبَ لامُو (ابن يرو أيضا). ذكر أنه ظل في السلطنة 37 عاما.

6- أبوبكر تاباكالي بن صنب لامو. قال عنه المؤلف (=السعدي) المتوفى سنة 1066هـ أنه كان في السلطنة في عهده.

ب) إمامة فوته:

---

[143] بكاف معقودة.

[144] منطقة من السنغال. والجيم معقودة.

[145] ذكر مؤرخو التكارير قبل يرو بن تنكله أخاه (لبوتنكِله) أيضا.

نقلا عن المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص 223-224:
قامت في فوته في أواخر القرن الثاني عشر الهجري دولة أئمة فوته التي أسسها الشيخ سليمان بال[146] على أنقاض دولة آل تنكله وكانت تحكم أجزاء فوته السبعة.
وامتازت هذه الدولة بنظامها السياسي الإسلامي الرفيع. فقد كان لها مجلس شورى يتألف من تسعة أعضاء ينتخبون من العائلات العريقة ذات الحنكة والخبرة.
ويقوم هذا المجلس باختيار القائد الذي يجب أن يكون نسيبا، وعلى قدر من الثقافة والأخلاق والدين، وأن يكون قد تجاوز الأربعين. وليس لأعضاء مجلس الشورى حق تولي القيادة، فمهمتهم مقصورة على اختيار القائد وعزله. كما أن القيادة لا تتوارث، ويحمل القائد لقب "إمام". ومن أشهر الأئمة: الإمام عبد القادر الذي حكم فوته نحوا من ثلاثين سنة من 1193هـ إلى 1221هـ (1779م-1806م).
وكان الإمام عبد القادر[147] على علاقة وثيقة بإمارة البراكنه. فقد حالف أمير البراكنه في حربه لأمير الترارزه اعلي الكوري يوم انكرين سنة 1200هـ، وهو اليوم الذي قتل فيه اعلي الكوري بحربة رماه بها مقاتل من جيش الإمام عبد القادر. واختلفت المراجع في أسماء الأئمة وفي ترتيبهم. وهناك أئمة أعيد انتخابهم أكثر من مرة، حتى أن بعضهم انتخب تسع مرات.

قلت: وفي بعض المقالات المنشورة على الانترنيت ما يلي:
- آخر الأئمة انتهت إمامته سنة 1880م، وتقابلها 1298هـ.
- الفرنسيون يأخذون فوتا تورو سنة 1890م، ويقابلها 1308هـ.

ج) بعض قبائل الفلان والتكارير :
نقلنا هذه المعلومات عن المختار ولد حامد، الجغرافيا، ص 107:
1) يشكل الفلان قبائل كثيرة في ماسنة من مالي، في فوتا جالو من غينيا، وفي فوته تورو على ضفتي نهر السنغال.
2) يجمعهم جميعا أربعة أجذام: أوروبة + وطابة + قريبة + جاوب.
3) من هؤلاء الأربعة تفرعت قبائل كثيرة منها: جوتنكوب + فلب جوب + فلب يرلابة + فلب هندوربي + سبيوبي + بانتنابي + ياللب؛ ومن هؤلاء (المقصود ياللب) دنيانكوبي المعروفون بأولاد تنكله. وغيرهم.
4) فلان فوته تورو. يشكلون الأقسام الإجتماعية التالية:
تورو دبه: وهم سكان القرى القائمون بالشؤون الشرعية من تعلم، وتعليم، وقضاء، وفتوى، وجهاد، وحسبة.

---

[146] سليمان بال ذهب إلى فوتا جالون للدراسة، وعاد إلى فوتا تورو. أسقطت حركته آخر سالتيكي، ودامت حركته ما بين 1184هـ - 1190هـ (1770م - 1776م).

[147] قلت، استنادا إلى مصدر آخر: إن عبد القادر كانْ، الذي هو دنيانكوبي، يرمز عهده إلى تخلي الدنيانكوبي كغيرهم من أهل فوته عن نظام ملكهم القديم (بلقب ساتيكي) إلى نظام الإمامة.

فله أوالفلان: وهم البداوة وغالب عيشهم في تنمية المواشي من بقر وغنم.
سبه أو الحربيون: وهم القدماء في فوته. وكان عيشهم من الغزو، والنهب.
جاونبه: وهم أهل الرأي والمشورة
جاجبي: وهم أهل الحرف والمهن. منهم : ما بوبي (النساجون)، ساكيب (الخرازون)، وايلوبي (الحدادون)، وايلوبه (النجارون)، وامبابي (الزمارون)، سوبالبي (صيادو السمك)، بورتابي (وهم عامة تحت سبه).
وتحت هذه الأقسام فروع كثيرة تتميز بألقابها ومراكزها الإدارية.

المسار الرابع: تاريخ الولف الموريتانيين

1 الجيل الأول: أكنون .. وقنورية القديمة

1.1 حول أكنون

نعني بأكنون ذلك الفضاء البشري الذي كان يمتد لدهور قبل الإسلام على الساحل الأطلسي، بادئا من ما يعرف اليوم بالساقية الحمراء وربما أبعد من ذلك في جهة الشمال، ممتدا عبر كل الغرب الموريتاني، وواصلا في جهة الجنوب إلى أعماق السنغال.

وقد اخترنا تسمية ذلك الفضاء البشري بـ"أكنون"، لوجود دلائل على أنهم هذا كانوا يدعون:

بداية، كان هذا هو الاسم المستخدم لوصفهم من قديم العهود من طرف جيرانهم الصنهاجيين، ولا زال هذا الوصف لهم قائما ومستخدما عند المتكلمين بالصنهاجية إلى يومنا هذا[148]. وفي الواقع أن كثيرا من الشعوب تكتسب فعلا مسمياتها من إطلاقات لجيرانها، بينما يكونون هم بينهم يتنادون مباشرة بأسماء قبائلهم وفصائلهم.

أضف إلى ذلك ما في الإدريسي من ذكر قاعدة تجارية، هي حسب ما نستنتج بأرض ما يعرف اليوم بالصحراء الغربية، قال إنها تسمى بالجناوية قوقدم وبالبربرية آزقي، والجناوية هنا حسب ما نستأنس به منسوبة إلى أكنون هؤلاء أنفسهم.

ثم لدينا أحمد بن أمدجنو الذي ذكره البكري مع يحي بن عمر من قادة المرابطين، ويبدو فعلا أن "أمد" في اسم والد هذا القائد تحريف لأحمد، وجْنو (=أكْنو بكاف معقودة) نسبة إلى أكنون، كما سبق وأن نبه إلى ذلك ولد حامد رحمه الله في جزء التاريخ السياسي من موسوعته.

وفي إطار أكنون هؤلاء سيتشكل بعيد عهد دولة المرابطين مسمى الولف كهوية ثقافية جامعة لمكونات اجتماعية مختلفة.

---

[148] قد تمت توسعة دلالة كلمة أكنون لتعني مطلق السودان؛ فهي مثل كلمة لكور الحسانية، يطلقها كل أهل ناحية على من جاورهم من السودان؛ فسكان الجنوب الغربي الموريتاني يطلقون مسمى لكور (أي أكنون عند الأسلاف الصنهاجيين لبعضهم) على جيرانهم الولف، ويطلقه أهل الجنوب الأوسط الموريتاني على جيرانهم الهالبولارن وربما التكارير منهم بشكل أخص، كما يطلق أهل الجنوب الشرقي الموريتاني مسمى لكور على جيرانهم السوننكي.

2.1 قنورية .. وعلاقتهم بأكنون

لقد فصلنا الحديث في ملحق بهذا المسار حول مملكة قنورية التي كانت قديما بالغرب الموريتاني وفق ما ورد فيه الكلام مفصلا عند الإدريسي.
وقد قادنا تحليل النصوص التاريخية إلى تبني الرأي بأن الفضاء الذي كان يشغله أكنون -كما وصفناه- شهد قبل دخول الإسلام إلى موريتانيا (قبل القرن الثاني الهجري) قيام تلك المملكة القديمة التي اشتهرت باسم مملكة قنورية. ونرى بخصوص أصل تسميتهم بقنورية أنها كانت سمة لملوكهم، فأطلقت علما على أهل تلك البلاد، وليتأمل القارئ شبيه ذلك في تسمية مملكة صنهاجة القديمة ببلاد إنبية، ومملكة آوكار ببلاد غانة. بل لا يبعد –ببساطة أكثر- أن تكون تسمية مملكة أكنون بمملكة قنورية مشتقة من نسبتها إلى مدينة قنوري التي ذكر الإدريسي أنها إحدى قاعدتين للقنورية (هما: تغيرا، وقمنوري)، بما يُزاد معه الافتراض بأن قنوري كانت العاصمة الأهم والأسبق إلى الانتشاء من القاعدة الأخرى تغيرا.

2 الجيل الثاني .. وفيه إسلام أكنون

1.2 وصول الفتح الإسلامي إلى مصب النهر في المحيط

اخترقت جيوش الفاتحين الغرب الموريتاني في بدايات القرن الثاني الهجري حتى وصلت إلى مصب نهر السنغال ولم تلق مقاومة كبيرة فيما يبدو، فقد جاء في مختصر كتاب فتوح البلدان للبلاذري ما يلي:
"قال المشتري بن الأسود: غزوت بلاد إنبية من السوس الأقصى فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من رمل، يخرج النيل من تحته .. وبلاد إنبية من السوس الأقصى على مسيرة سبعين ليلة، في براري ومفازر"[149].
نعلم من ذلك أن حركة الفتح الإسلامي وصلت إلى مصب نهر السنغال.

2.2 هل بقي بعض الفاتحين المسلمين بين أكنون؟

---

[149] نقلا عن المختار ولد حامد، موسوعة حياة موريتانيا، الجزء السياسي، ص 22، هامش 4.

تُرجع روايات تعزى إلى بعض مؤرخي الولف المعاصرين مثل آنتا ديوب (Anta Diop) أصول الولف إلى أسلاف قادمين من حوض النيل بمصر.
فإذا علمنا أن الفاتحين المسلمين قد وصلوا فعلا إلى مصب نهر السنغال كما ذكرنا، وكان من المعروف لدينا أن غزوات الفاتحين تلك في بدايات القرن الثاني الهجري هي امتداد لحركة الفتح الإسلامي التي انطلقت من مصر بعد فتحها من طرف عمر بن العاص سنة 19هـ، ثم استحضرنا أن هناك مجموعات من الفاتحين تفرقت بهم السبل في بلاد السودان، كالفئتين اللتين ذكر البكري أنهما من بقية جيش أنفذه الأمويون (=المقصود ولاة الأمويين بالمغرب) إلى غانة في صدر الإسلام، إحداهما ذكرها بأرض مملكة غانة والأخرى بأرض مملكة تكرور؛ إذا علمنا ذلك، أفلا يقرب من الذهن تصور أن الروايات حول انحدار الولف من أسلاف قادمين من حوض النيل بمصر منشؤها من بقية من الفاتحين المسلمين الذين غزوا المنطقة بدء من سنة 116هـ لتتفرق بهم السبل بين أكنون، بعد ما انقطع عليهم خط الرجعة على إثر اضطراب الأحوال في المغرب في عشرينيات القرن الثاني الهجري، وليكونوا بذلك أسلافا لشعب الولف؟
احتمال وارد كما نرى.
والله أعلم بحقيقة ما كان.

3.2 صنغانة .. قاعدة أكنون على النهر

تحدث البكري (ألف كتابه سنة 460هـ) في كتابه المسالك والممالك عن مدينة اسمها صنغانة على النهر فقال: ".. ومدينة صنغانة مدينتان على ضفتي النيل (المقصود هو نهر السنغال)، وعمارتها متصلة إلى البحر المحيط". قلت: وذلك يعني أن شقها الشمالي كان في أرض شمامه الحالية بولاية الترارزة.
يعلق المؤرخ ولد حامد في "التاريخ السياسي" (ص 31) بهامش على كلمة صنغانة، فيفيدنا بأن صنغانة ربما يكون أصلها من "**سنغن**"، ثم حرفت سنغن إلى سنغال.
قلت: ولعل ذلك هو سبب تعبير البيضان حتى وقت قريب عن أراضي جنوبي النهر باسم "إسنغان". والله أعلم.
المهم أن صنغانة أو سنغن هذه كانت مدينة في أرض أكنون، عامرة في صدر القرن الخامس الهجري.

4.2 شاهد على إسلام أكنون قبل الدعوة المرابطية

يظهر أن أكنون عموما كان الإسلام موجودا فيهم قبل انطلاق دعوة المرابطين.

دليلنا على ذلك مستوحى من استنطاق ما ورد عند البكري (ألف كتابه سنة 460هـ) من ذكر قائد من المرابطين اسمه أحمد بن أمد جنو.
لقد أشار ولد حامد رحمه الله إشارة وجيهة إلى كون "أمد" تقابل أحمد عند مختلف الشعوب السودانية، وجْنُـو تعني السوداني بالصنهاجية (قلت: هي أَكْنُـو مفرد من أكنون). فإذا كان أحمد بن أمدجنو قائدا مشتهرا من قادة المرابطين بدليل حرص البكري على ذكر اسمه فلا أقل -والراجح أكثر من ذلك- من أن يكون عمره في حدود الثلاثين، بحيث يكون مولده في الفترة ما حول مجيء ابن ياسين إلى الصحراء نحوا من سنة 430هـ ، والظاهر أنه حينها كان قد ولد في بيت إسلامي بدليل تسميته باسم إسلامي.
وإذا كان اسم الوالد نفسه اسما إسلاميا، فالقريب من الذهن أن أمد (أحمد) الأب، ولد في بيت مسلم كذلك، مما يعني أنه ولد قبل انطلاق دعوة المرابطين بعقود عدة. هذا طبعا بعد أن نكون قد ألغينا الاحتمال في أن تكون "أحمد" و"أمد" ألقاب تلقب بها الأب والإبن إلى جانب أسمائهم الأصلية بعد إسلامهم في عهد المرابطين، وهو فعلا احتمال ضعيف، لأنه لو كان الأمر كذلك لكانوا مثلا قد فصحوا اللقبين معا ولم يفصحوا أحدهم ويعجموا الآخر، و لكانوا خالفوا بين اللقبين.
يمكننا جدا أن نتصور ما يلي، والله أعلم بحقيقة ما كان:
أمدجنو الوالد نشأ في بيت مسلم من أكنون، ولعله من فصيلتهم قنورية تحديدا؛ قنورية التي كانت تسكن أماكن متفرقة من الساحل الموريتاني في تحالف مع القبائل الصنهاجية، خاصة جدالة منها، وكانت قبائل صنهاجة كما ذكرنا قد أسلمت منذ القرن الثاني الهجري، لكن التزامها بالإسلام تحت وطأة الجهل تحرف بعد ذلك في كثير من النواحي.
مع انطلاقة الدعوة المرابطية بقيادة المعلم عبد الله بن ياسين ولد لأمدجنو مولود سماه باسم فصيح هو أحمد، ليتربى أحمد في بيت من البيوت التي كانت تناصر الدعوة المرابطية، وليلتحق وهو في العشرينيات من عمره بالمرابطين ويصبح قائدا للواء من ألويتهم، لعله تحديدا لواء المرابطين من أكنون.

3 الجيل الثالث .. الولف المرابطون

1.3 ما يرويه مؤرخو الولف من أن ملوكهم القدماء من حفدة أبي بكر بن عمر

أورد ابن حامد في جزء التاريخ السياسي نصين متعلقين ببدايات شعب الولف.
النص الأول (ص 58):
"واختلفت المصادر في عدد أولاد أبي بكر بن عمر. فابن عذاري ذكر أن له ابنين هما: إبراهيم ويحي. أما مؤرخو الولف فيذكرون له ابنا واحدا وبنتين، ويقولون إن ابنه هذا

اسمه أحمد ويلقب "إنجاجان انجاي"[150]، وأن أمه فاطمة صل التكرورية، وأن ملوك جلف في السنغال ينحدرون منه.
ويقولون إن البنتين هما: "أرم بوبكر" وشقيقتها "يميكه رقية" وأن ملوك شمامة ينحدرون منهما"[151]. اهـ.
قلت: وجلف هنا هي مملكة قامت في القرن 9هـ، شملت أراضيها والو، ولنا إليها عودة بحول الله في سياقها المناسب.
النص الثاني (ص 225):
""كان للولف دولة في والو عاصمتها انجربل*، ثم انتقلت إلى اندير**. وكان ملوكها يحملون لقب ابـرَكْ" وينتخبون من ثلاث عائلات تعاقبت على الملك هي عائلات: لَـوْكَــرْ" و"تَجَيْكْ" و"جِــوْصُ".
وتزعم حكايات الولف أن مؤسس هذه الدولة هو انججان انجاي الذي يقولون عنه إنه ابن أبي بكر بن عمر اللمتوني من زوجته فاطمة صل التكرورية. كما يقولون إن العائلات التي حكمت بعده هي من أسباط أبي بكر بن عمر".
* انجربل: موقعها قريب من مدينة القوارب (روصو) الحالية على الضفة الموريتانية.
** اندير: في السنغال، جنوبي النهر.

2.3 سياق للجمع بين الروايات

ربط إمارة آل عمر لأكنون بالدعوة المرابطية:

نتصور السياق التاريخي التالي تأطيرا لروايات مؤرخي الولف:
إن أبا بكر بن عمر بمقتضى أسلوبه الدعوي الخاص تزوج –كما ذكرنا في مسارالبيضان- من التكرور، شعب لبي بن وارجابي، الذي كان مع المرابطين في جهادهم ربطا لقلوب التكرور بمشروع المرابطين الدعوي. وأنجبت له زوجته فاطمة صل ابنهما أحمد.
كما أن أبا بكر زوج بنتين من بناته لبعض خيار المسلمين من أكنون، من أهل نواحي مدينة صنغانة، تثبيتا لقلوبهم على الإسلام كذلك، وربطا لهم برسالة المرابطين الدعوية.

---

[150] ملاحظة: كان اللقب الأصيل لأحمد، الذي أطلقه عليه أبواه هو أبو الدرداء. ولأن مشروعية تكنية الولد مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك مما يدلنا على عمق الالتزام بالإسلام في البيت الذي نشأ فيه أحمد.

[151] ملاحظة: لقد ذكر ابن عذاري لأبي بكر ابنين، لم يذكرهما الولف، وذكر الولف ابنا وبنتين لم يذكرهما ابن عذاري؛ وذلك كله لا يقدح في صدق كلا الروايتين، لأن كل طرف يعتبر مصدقا في ما أثبته وغير مصدق في ما نفاه، فشهادته على النفي غير مقبولة؛ فلا إشكال من هذه الناحية.

تربى أحمد بن أبي بكر بن عمر في إمارة التكرور.

***

إمارة أحمد بن أبي بكر في صنغانة ونواحيها:

روايات مؤرخي الولف كما أوردنا أعلاه تفيد بأن مؤسس هويتهم الثقافية ومؤسس مملكتهم الأثيرة جلف، المعروف بلقبه انجحان انجاي، هو ابن لأبي بكر بن عمر، اسمه أحمد، وأمه فاطمة صل التكرورية؛ مما يعني أن أحمد كان من أهل أواخر القرن الخامس الهجري.

ومن التفاصيل الإضافية التي نجدها في رواياتهم حول أحمد بن أبي بكر أن أمرا غاظه على أخواله، فهاجر عنهم إلى والو (المنطقة التي كانت فيها صنغانة في ذلك العهد)، وفي والو وجد أحمد طوائف متغاضبة، فتمكن من الإصلاح بينها، فسعد أهل والو بذلك وأمروا أحمد عليهم. قلت: أهل والو هم في ذلك العهد بعبارة أخرى نفسهم أهل نواحي مدينة صنغانة التي ذكرها البكري في بحر القرن الخامس الهجري قرب مصب النهر في المحيط.

***

نزوح أحمد بن أبي بكر بإمارته في اتجاه الجنوب واضمحلال صنغانة:

تتابع روايات الولف بإفادتنا حول قصة تأسيس مملكتهم جلف، فتقول لنا بأنه بعد بدايتها التأسيسية كسلطة بوالو، وهو ما بيننا سببه أعلاه، اكتمل تأسيس مملكة جلف في مرحلة ثانية بعد نزوح انجحان انجاي نحو الجنوب إلى المنطقة التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم جلف، ومنها اشتقت هذه المملكة اسمها، وبحيث أصبحت والو في هذه المرحلة الثانية بمثابة ولاية من ولايات مملكة جلف.

وجمعا بين هذه الروايات الولفية وبين السياق الذي كنا فيه، نقول:

إن أحمد بن أبي بكر أو انجحان انجاي -فيما يظهر- قرر بعد فترة من إمارته على أهل صنغانة التحول بعاصمة الإمارة نحو الجنوب، وسمى قاعدة إمارته الجديدة بجلف، ويبدو أن ذلك الانزياح نحو الجنوب لوقع تحت تأثير تصاعد نفوذ سلطان التكرور على امتداد ضفتي النهر وسيطرته على مملحة آوليل الهامة بشمال النهر.

تحول عاصمة إمارة جلف نحو الجنوب، واستقطاب التكرور لغالب نشاط تصريف ملح آوليل على خط آوليل – تكرور، أديا إلى فقدان صنغانة سريعا لمقومات بقائها، فاضمحلت، ولذلك لم نجد لها ذكرا عند الإدريسي (ق6هـ)، عند ما تكلم عن آوليل وتكرور وغيرها من المدن التابعة لسلطان التكرور.

مع ذلك يبدو أن ولاة والو من طرف أحمد بن أبي بكر ظلوا يهادنون سلطان التكرور، ويبذلون ما في وسعهم لاستفادة من مرور تجارة الملح القادم من آوليل عبر مجالاتهم على النهر، طبقا للوحة التي رسمها الإدريسي للمنطقة:

"فأما جزيرة اوليل فهي في البحر وعلى مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها، ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان. وذلك أن المراكب تأتي إلى هذه الجزيرة فتوسق بها الملح وتسير منها إلى موقع النيل وبينهما مقدار مجرى فتجري في النيل إلى سلى وتكرور وبريسى وغانة وسائر بلاد ونقارة

وكوغة وجميع بلاد السودان. وأكثرها لا يكون لها مأوى ولا مستقر إلا على النيل بعينه أو على نهر يمد النيل وسائر الأرضين المجاورة للنيل صحار خالية لا عمارة فيها"
وكان من أهم ما قايض به أهل والو الملح القادم من آوليل وفق ما يفهم من السياق التاريخي لذلك العهد: العبيد، الذين يسبونهم من شعب مجاور لمملكة جلف من جهة الشرق، وهو الذي يسميه الجغرافيون العرب بـأمة "لملم"، ونصوا على أن أمتي غانة وتكرور يغيرون عليه ويسبونه.

***

حول ولاة والو من طرف أحمد بن أبي بكر:

ولاة والو من طرف أحمد بن أبي بكر هم أبناء أختيه (أرم بوبكر ويميكه رقية)، اللتين أوردنا أعلاه رواية مؤرخي الولف حول أنهما بنتين لأبي بكر بن عمر ينحدر منها أسلاف ملوك شمامه (= الجزء من والو الذي يقع شمال النهر).

3.3 رموز أخرى لتعلق الولف بالتاريخ المرابطي

ترمز الروايات –أعلاه- لمؤرخي الولف، التي تنسب أسلاف ملوك الولف إلى أبي بكر بن عمر، إلى مقدار كبير من تعلق الولف بالتاريخ المرابطي لأسلافهم.
ولدينا من الحكايات الشعبية للولف شاهد آخر لتعلق الولف بالتاريخ المرابطي، ألا وهو ما في تلك الحكايات من أن الجزيرة التي انطلق منها المرابطون هي الجزيرة التي تقوم عليها اليوم مدينة سان لويس[152]. وبغض النظر عن مدى دقة هذه الحكاية، فإنها تثبت على كل حال مدى تعلق الولف بالتاريخ المرابطي. وقد كنا في سياق الحديث عن قيام دولة المرابطين في مسار البيضان الموريتانيين قد أبدينا رأينا حول مكان الرباط في سياق موحد جمعنا فيه بين روايات كل من الولف والبيضان والتكارير.

4 الجيل الرابع: وفيه ميلاد هوية الولف .. أهل جلف

1.4 ملخص الكلام عن الجيل المؤسس لمملكة جلف

لقد استعرضنا مع القارئ السياقات المختلفة لروايات الولف التي تربط أسلافهم بالدعوة المرابطية، وتنص على انحدار الجيل المؤسس لمملكة جلف من المرابطين، سواء تعلق الأمر بإقليم جلف الرئيسي الذي استقر فيه المقام بأحمد بن أبي بكر بن عمر الملقب

[152] الموسوعة، جزء التاريخ السياسي، ص 45. وسان لويس اليوم بالسنغال، لكنها كانت مهمة في تاريخ جميع الولف من أهل شمامه (=والو)، القاطنين جنوبي النهر وشماليه.

انجحان انجاي كأب مؤسس لمملكة جلف، أو تعلق الأمر بإقليم والو ذي الأهمية الاقتصادية البالغة لما كان بمثابة الرئة التي تتنفس بها المملكة وتطل من خلاله على خطوط التجارة عبر الصحراء، حيث حكم في والو ولاة (ملوك كما تسميهم الرواية) من أسباط أبي بكر بن عمر.

2.4 ميلاد الهوية الولفية

لقد أدى استقرار الأوضاع في جلف ورضى أكنون عن حكم انجحان انجاي ومن قدموا معه من والو من نخبة قيادية في إمارته، إلى نشوء جو ثقافي متميز، انبثق عنه ترسخ لغة النخبة القيادية كلغة لكل الإمارة، وقيمها كقيم مثلى للشعب[153].
تلك كانت -في نظرنا- هي بدايات تشكل الهوية الولفية: اللغة الولفية، وشعب الولف كمفهوم يعني متكلمي الولفية.

3.4 قدوم بعض قادة أغرمان إلى مملكة جلف (صنغانة)

بداية، نود أن نشير إلى وجود قرائن على أن مملكة جلف كانت تسمى صنغانة، الاسم الذي يتطابق -كما مر معنا- مع اسم عاصمتها الأولى أيام نشأة نواة هذه المملكة بوالو (شمامه) قرب مصب النهر[154].

---

[153] من ضمن الأقوال في تفسير معنى كلمة ولف أنها تعني القادمين من ضفة النهر؛ قلت: وذلك أنسب للسياق الذي تبنيناه، بما نوضحه أكثر بقولنا إن مفهوم الولف كان يطلق في البداية على النخبة القيادية القادمة من والو مع انجحان انجاي، تلك التي رسمت بسلوكها العام معالم هوية المجتمع ثقافة وقيما، فتوسع المفهوم ليشمل كل المنتسبين إلى تلك الهوية، وصار المجتمع الأصيل في جلف -بمختلف أعراقه وأصوله- يدعى بالولف.

[154] هناك قرينتان: الأولى ما نقله القلقشندي (ق 9 هـ) مؤلف صبح الأعشى عن العمري (ق8هـ) صاحب مسالك الأبصار، وفيه: "وذكر في مسالك الأبصار: أن هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليماً وهي: غانة وزافون وترنكا وتكرور وسنغانة وبانبغو وزرنطابنا وبيترا ودمورا وزاغا وكابرا وبراغودي وكوكو ومالي".
قلت: فهنا ورد ذكر سنغانة ضمن الأقاليم الأربعة عشر لدولة مالي الإسلامية. ومن المعلوم لدينا من تاريخ دولة مالي أنها بسطت نفوذها من المحيط الأطلسي غربا إلى بحيرة التشاد شرقا، بما يعني أن مملكة جلف أصبحت إقليما تابعا لمالي. فلما ورد ذكر سنغانة أعلاه (=صنغانة) كإقليم من أقاليم مالي، رجحنا أنه هو نفسه مملكة جلف بعد أن خضعت لمالي.

في نظرنا أنه مع صعود قوة أهل مالي في ثلاثينات القرن السابع الهجري وبدء سيطرتهم على مملكة الصوصو وعلى مملكة غانة، نزح إلى مملكة جلف بعض الأعيان المنحدرين من أغرمنطين (=أغرمان)، حكام أهل غانة القديمة من أهل إقليمي واكادو وزافنو بوجه أخص. ورغم أن دولة مالي الإسلامية أخضعت جلف وأصارتها بمثابة إقليم من أقاليمها، فإن حكام جلف في مختلف المناطق استعانوا بأعيان أغرمنطين (=أغرمان) هؤلاء الوافدين إليهم لترسيخ قواعد الحكم في بلادهم أكثر من السابق، ومنهم من كانت استعانته بهم أوضح وأعمق مثل أسرة الحكم في منطقة باول. نجد برهان هذه النظرية أساسا في ما ثبت اليوم من ورود لقبي واكادو وزافنو (=جافنو) ضمن ألقاب قدماء حكام منطقة باول (المحاذية للمحيط الأطلسي) من مناطق مملكة جلف القديمة، كما نجد تأييدها أيضا في دوران مسمى أغرمان بين الولف حتى وقت قريب معبرا به عن فئة اجتماعية من نبلائهم كما يقال[155].

4.4 جلف أيام مملكة مالي

بعد قيام دولة مالي الإسلامية في القرن السابع الهجري، وبلوغها أوج توسعها مع مطلع القرن الثامن الهجري، خضعت لها جلف كما أسلفنا. وقد نص ابن خلدون على امتداد ملك أهل مالي، وهو معاصر لهم (ت808هـ)، من المحيط غربا إلى أراضي التكرور شرقا مع التنبيه على أن أراضي التكرور قد أصبحت تعني -بمصطلح ذلك العصر- نواحي بحيرة التشاد كما شرحنا ذلك في مسار الهالبولارن.

وقد كان يلي الحكم في إقليم جلف نائبا عن ملك مالي حاكم رئيسي يتبع له حكام فرعيون في مختلف أطراف الإقليم (كايور، باول، والو، سين سالوم).

القرينة الثانية: تسمية أعماق أراضي دولة السنغال عند البيضان قديما بإسنغان أو سنغن. خاطرة 1: يبدو أن البرتغاليين سموا النهر بنهر ساناغا نسبة إلى صنغانة التي كانت قرب مصب النهر في القرن الخامس الهجري أيام ذكرها البكري هناك. كما يبدو أن تسمية المحتل الفرنسي للبلاد لاحقا بالسنغال كان بنسبتها إلى النهر.

خاطرة 2: منطقة حوض النهر مما يلي المحيط كانت تسمى شمن بالصنهاجية، شمامه بالحسانية، ثم واالو بالولفية. وإلى الشمال من منطقة حوض النهر: كنار، وإلى الجنوب من منطقة حوض النهر: إسنغان.

[155] نستأنس إضافة إلى ذلك بأمرين:

أولا– لقد اشتهر محاربو باول بالخصوص من بين محاربي مناطق جلف بالشراسة والفتك، مما ينبئ عن تربي أسلافهم وفق تقاليد حربية راسخة في الدفاع عن حوزة الملك، لعل أصلها هم محاربو أغرمان القادمين من واكادو وزافنو.

ثانيا– ذكر لنا مرة بأن البيضان من سكان شمال نهر السنغال كانوا يطلقون على أعوان المحتل الفرنسي من السودان اسم "أغرمان"، مما يمكن أن يؤول بأن سكان منطقة القبلة كان يرتبط في أذهانهم إتباع تقاليد عسكرية مضبوطة بما كانوا قد عرفوه عند محاربي جنوب النهر من طائفة أغرمان الولفية تحديدا.

في القرن التاسع الهجري عند ما سرى الضعف إلى الحكم في مالي ودخلت في طور الاضمحلال، استعادت جلف استقلالها، لترجع مملكة موحدة الأطراف كما كانت، وكان قد أثرى قواعد الحكم فيها ما ذكرناه من استعانة حكامها في أيام دولة مالي بالوافدين إليهم من أعيان أغرمان (=أغرمنطين).
وبلغت مملكة جلف أوج صعودها في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، وكانت تبسط نفوذها على كل الأراضي الواقعة ما بين نهر غامبيا ونهر السنغال.

5 شواخص من تاريخ الولف بعد ذلك

بعد نحو قرن من صعودها دب داء الدول إلى مملكة جلف، ففي القرن العاشر الهجري (16م) استقلت الأقاليم الخارجية من أقاليم جلف (كايور، باول، والو، سين سالوم) وبقيت جلف نواة ضعيفة في الوسط؛ حدث ذلك بعد هجمات آل تنكلا الفلانيين على مملكة جلف من جهة الشرق والشمال الشرقي.
في تلك الظروف إذا استقل إقليم والو عن بقية جلف؛ وهو الإقليم المعروف أيضا محليا بشمامه، وهو الأكثر التصاقا بالسياق الموريتاني.
شكل استقلال والو بداية لمملكة بنفس الاسم، كانت عاصمتها في البداية في انجربل في الجهة الموريتانية من النهر، ثم تحولت من بعد ذلك إلى الجهة السنغالية من النهر لتكون بانديار، ولعل لذلك علاقة بتنامي السيطرة الحسانية -بدء من صدر القرن الحادي عشر الهجري- في منطقة ما يعرف اليوم بالترارزة.
صار الفرنسيون يدفعون أتاوة لمملكة والو بدء من 1070هـ (1659م).
وفي التاريخ السياسي لولد حامد (ص 225) أن من حكام والو:

- *فارا، الذي قتله زوايا شرببه حوالي سنة 1093هـ (=1673م).*
- *يريم كودي، صهر فارا، وقد تولى الحكم بعده. حرضه الفرنسيون ضد الزوايا فمالأ المغافرة وقتل القاضي عثمان ثالث الأئمة. ثم غزا حامية الزوايا في جلف سنة 1084هـ (=1675هـ) وأصيب بجروح مات منها.*

ويتابع ولد حامد ما أورده عن والو، فيقول:
"*وبعد الزوايا خضع الجزء الموريتاني من شمامة لأمراء الترارزة حتى الإحتلال*".
ويضيف:
"*ومن متأخري ملوك والو الملكة جنبت التي تزوجها الأمير محمد لحبيب[156] أمير الترارزة فأنجبت له ابنه اعلي[157] الذي صار أميرا بعد ذلك*".

***

وفي بعض المراجع أن الفرنسيين تمكنوا من ضم اندير عاصمة والو سنة 1273هـ (1856م).

---

[156] محمد الحبيب بن أعمر ولد المختار حكم من/ إلى: 1245هـ - 1277هـ (1829م – 1860م).

[157] اعلي بن محمد الحبيب حكم من/ إلى: 1290هـ - 1303هـ (1873م – 1886م).

ملحق تابع لهذا المسار:

قنورية .. مملكة "موريتانية" قديمة

أولا: ذكر قنورية القديمة

يحدثنا الجغرافي الإدريسي (ق 6هـ) عن شعب قمنورية، الذين هم عند ابن خلدون بلفظ قنورية وهو الذي اخترناه، ومنطقة تواجدهم قديما الغرب الموريتاني الحالي؛ يقول الإدريسي:

" *... وفيما تضمنه هذا الجزء بقية من أرض مقزارة السودان*[158] *... مع بعض ما يليها من أرض قمنورية. وأرض قمنورية منها في جهة الشمال متصلة من غربيها بالبحر المظلم وتتصل من جهة شرقيها بصحراء نيسر، وعلى هذه الصحراء طريق تجار أهل أغمت وسجلماسة ودرعة والنول الأقصى إلى بلاد غانة وما اتصل بها من أرض ونقارة التبر وأما أرض قمنورية المذكورة فكانت بها مدن للسودان مشهورة وقواعد مذكورة. لكن أهل زغاوة وأهل لمتونة الصحراء الساكنون من جهتي هذه الأرض طلبوا هذه الأرض أعني أرض قمنورية حتى أفنوا أكثر أهلها وقطعوا دابرهم وبددوا شملهم على البلاد. وأهل بلاد قمنورية فيما يذكره التجار يدعون أنهم يهود*[159] *وفي معتقدهم تشويش وليسوا بشيء ولا على شيء ولا ملك فيهم ولا ملك عليهم بل هم ممحونون من جميع الطوائف المجاورين لهم المحدقين بأرضهم. وكانت في القديم من الزمان السالف لأهل قمنورية مدينتان عامرتان اسم إحداهما قمنوري واسم الأخرى نغيرا (= تغيرا لدى ابن سعيد*[160]*)؛ وكانت هاتان المدينتان تحتويان على أمم من القمنورية وبشر كثير وكان لهم*

---

[158] مقزارة السودان هم سكان تكرور القديمة على ضفاف نهر السنغال، كما يفهم بوضوح من جغرافية الإدريسي، وقد فصل الكلام عنهم في مسار "تاريخ الهالبولارن الموريتانيين".

[159] نود هنا التنبيه على أمرين: أولا – أن الوضع الموصوف من طرف الإدريسي يرجع إلى فترة ما قبل إسلام الغرب الموريتاني. ثانيا– أن وصف يهود الذي أخبر الإدريسي أن أهل قمنورية يدعونه لا ندري إن كان يعني فعلا أن ديانتهم كانت يهودية، فقد وجدنا نصا آخر في الإدريسي يسم فيه شعب لملم في أعماق مالي بأنهم يهود،مما يعطينا الانطباع بأن وصف اليهود عند الإدريسي قد لا يعدو كونه ذا معنى انتقاصي.

[160] ورد ذكر تغيرا هذه عند ابن سعيد (ق7هـ)،كقاعدة لجدالة، على خط عرض 20°. وخط العرض 20° على الخرائط الحديثة يقطع ولاية إينشيرى في مستوى مدينة أكجوجت. وفي أكجوجت لا زالت إلى اليوم توجد مجموعة من جدالة، كما يقول المختار ولد حامد. فهذه إذًا مصادفة جيدة، توحي لنا بأن أرض قنورية كانت تمتد شمالا إلى نواحي أكجوجت، حيث نغيرا أو تغيرا هذه. وينبغي القول بعد ذلك بأن درجات العرض التي ترد عند ابن سعيد ومعاصريه من الجغرافيين تميل إلى تقريب المدن من خط الاستواء أكثر من

رؤوس وشيوخ يدبرون أمرهم ويحكون في مظالمهم وما وقع بينهم، فأفنتهم الأيام وتوالت عليهم الفتن والغارات من جميع الجهات فقلوا في تلك الأرض وفروا عنها واعتصموا في الجبال وتفرقوا في الصحارى ودخلوا في ذمة من جاورهم وتستروا في أكنافهم؛ فلم يبق من أهل قمنورية إلا قوم قلائل متفرقون في تلك الصحارى وبمقربة من الساحل عيشهم من الألبان والحوت[161] *وهم في نكد من كد العيش وضيق الحال وهم ينتقلون في تلك الأرض مع مهادنة من جاورهم ويقطعون أيامهم مسالمة إلى حين.*
وبين بلاد قمنورية وبلد سلى وتكرور طرق مجهولة الآثار دارسة المسالك قليلة السالك ماؤها غائر وعلامتها خفية وبين قمنورية (=قمنوري!) وسلى وتكرور مسير ستة عشر يوماً ومن نغيرا إلى سلى نحو من اثني عشر يوماً وكذلك منها إلى بلد ازقي من بلاد لمتونة اثنتا عشرة مرحلة وماؤها قليل يتزود لقلته من حفر يحتفرها السالكون المجتازون بتلك الأرض وفي بلاد قنورية جبل مانان ويتصل بالبحر المحيط وهو جبل منيع عالي الذروة أحمر التربة وفيه أحجار لماعة تعشي البصر إذا طلعت عليها الشمس لا يكاد الناظر ينظر إليها لشعاعها وبريق حمرتها وفي أسفله ينابيع بالماء العذب يتزود ويحمل في الأوعية إلى كل جهة.
(...)
ويلي هذه الأرض المذكورة صحراء نيسر وهي الصحراء التي قدمنا ذكرها وعليها يدخل المسافرون إلى أودغست وغانة وغيرهما من البلاد كما قلناه قبل ... ".
اهـ كلام الإدريسي.
هؤلاء إذاً هم قمنورية (=قنورية) في وصف الإدريسي لهم: كما كانوا في سالف الزمان، وكما صاروا في عهده.
لقد قام للقنورية في عهد ما ملك كبير في الغرب الموريتاني الحالي؛ فمتى كانت تحديدا فترة ملكهم ذلك؟
من ناحية أولى، نعلم أن صعودهم ثم اضمحلالهم، كل ذلك حدث قبل عصر المرابطين، بدليل أن الذين كانوا متغلبين على نواحي الغرب الموريتاني أيام قيام سلطة المرابطين كانوا جدالة.
ومن ناحية أخرى، نعلم أن سرايا الفتح الإسلامي لما اخترقت الغرب الموريتاني في بدايات القرن الثاني الهجري ووصلت إلى مصب نهر السنغال، لم تصادف القنورية قطعا وهم في فترة ازدهار ملكهم، وإلا لكان الفاتحون ذكروهم بدل ذكرهم ببلاد إنبية.
جاء في مختصر كتاب فتوح البلدان للبلاذري ما يلي:

الواقع؛ ولذلك قد تكون تغيرا هذه على خرائط اليوم أبعد قليلا نحو الشمال. وينبغي بعد ذلك ملاحظة أن قمنوري (المدينة الأخرى) قد تكون أبعد من نغيرا شمالا.

[161] تنبيه: أنظر هل في ذلك إشارة لنواة تشكل إيمراكن، الذين هم اليوم من أصول شتى. تنبيه: ذكر الرحالة فرناندس في القرن العاشر الهجري الشرميين المشتغلين بصيد الأسماك الساكنين قرب الشواطئ (الموريتانية)، مما حدا بولد حامد إلى اعتبار كلمة "الشرميين" محرفة وأصلها مشتق من شجمن بمعنى السمك باللسان الصنهاجي.

"قال المشتري بن الأسود: غزوت بلاد إنبية من السوس الأقصى فرأيت النيل بينه وبين البحر الأجاج كثيب من رمل، يخرج النيل من تحته .. وبلاد إنبية من السوس الأقصى على مسيرة سبعين ليلة، في براري ومفازر"[162].

فالذي يفهم من هذا النص أن بلاد إنبية كانت أيام حملات الفتح الإسلامي، في مطلع القرن الثاني الهجري، ممتدة حتى مصب نهر السنغال.

فهل كانت فترة صعود القنورية التي ذكرها الإدريسي سابقة للفتح الإسلامي في صدر القرن الثاني الهجري؟

أم هل أن القنورية استغلوا –بعد القرن الثاني الهجري- إحدى فترات ضعف ملوك الصنهاجيين المعروفين بإنبية ليقتطعوا منهم المجال الغربي كله، قبل أن يسترده منهم الصنهاجيون من جديد وتستقر فيه جدالة؟

نحن نعتقد أن ما ذكره الإدريسي عن مملكة قنورية كان كله قبل الفتح الإسلامي، أي قبل مطلع القرن الثاني الهجري، والعلم عند الله.

***

وملخص استفادتنا من كلام الإدريسي أنه كان يعيش على الأرض الموريتانية قديما شعب يسمى قمنورية (وصوابه قنورية على الأرجح)، وكانت له يوما ما دولة في الغرب الموريتاني، ثم -مع اضمحلال دولته- انماع في الشعوب المجاورة. وأن ذلك كله كان -كما فهمنا- قبل وصول الفتح الإسلامي إلى "الأراضي الموريتانية".

ثانيا: قنورية .. وأغرمان .. واغرمنطين

يذهب زميلنا الباحث الحسين ولد محنض إلى أن المسمون بـ"أغرمان"، كانوا قديما في الغرب الموريتاني، وأنه كان لهم فيه ملك كبير، فلعله يرى أن أغرمان هم القنورية.

أما الدكتور حماه الله ولد السالم، فقد قرأنا مقالا في الانترنت،ُموقَّعا باسمه، يُصرِّح فيه بأن أغرمان هم: قمنورية الذين ذكر الإدريسي، وهم "الجرمنت" (Garmentes) في نظره. ويضيف في مقاله المذكور بأن أغرمان أصل لكثير من الحراطين.

إذًا فهناك أقوال معتبرة بأن قنورية هم أغرمان[163].

***

ما أنسنا إليه نحن بهذا الخصوص، في ضوء الروايات المتوفرة، نلخصه في ما يلي:

1- إن "الجرمنت"، أو "أغرمنطين" كما سماهم الخوارزمي، كانوا ملوك غانة. وينص على أنهم كانوا بيضا، فهم في نظرنا أسلاف السوننكى؛ وقد نبينا وجه ذلك في مسار "تاريخ السوننكى الموريتانيين".

2- إن أغرمان لا مانع عقلا من أن يكونوا -وهم اليوم من ذوي البشرة الداكنة- منحدرين من اغرمنطين –الذين هم بيض البشرة في الأصل-، فيكون ذلك التحول في

---

[162] نقلا عن المختار ولد حامد، موسوعة حياة موريتانيا، الجزء السياسي، ص 22، هامش 4.

[163] رأينا كذلك من الباحثين الآخرين من جعل قنورية هم البافور.

لون البشرة حصل تدريجيا على إثر مساكنتهم للسودان. وتأمل شبيه ذلك في ما أشرنا إليه لتونا من انحدار السوننكى من نفس اغرمنطين المذكورين.
3- لنتساءل عن العلاقة ما بين أغرمنطين في غانة وقنورية في الغرب الموريتاني، الذين كان صعودهما في فترة متقاربة. عندنا عن أغرمنطين أنهم ملوك غانة القدماء وفق ما روى الخوارزمي وأنهم كانوا من البيض وفق تاريخ السودان للسعدي، وعندنا عن القنورية ما ذكر الإدريسي بشأن مملكتهم القديمة في الغرب الموريتاني الحالي وأنهم كانوا من السودان. فهل القنورية واغرمنطين هما نفس الشعب؟ أم أنهما شعبان منفصلان؟. نقول: يجوز فعلا أن يكون اغرمنطين والقنورية شعب واحد كما رأى الدكتور حماه الله، ويؤيد ذلك فعلا تشابه المسميين في اللفظ وتقارب فترتي صعود مملكتيهما، ولا يشوش عليه كثيرا التغاير المروي في لون البشرة لسهولة تأويله. لكننا في الحقيقة بنظرة مجملة للتاريخ الاجتماعي الموريتاني نميل اليوم إلى الاعتقاد بأن اغرمنطين والقنورية مسميان منفصلان:
أما اغرمنطين في نظرنا فنعيد ما ذكرناه من أنهم كانوا ملوك غانة القدماء في منطقة (الحوض الموريتاني) ومنهم انحدر السوننكى، ونضيف إلى ذلك أن مسمى أغرمان في نظرنا هو تحريف لاغرمنطين، فمن اغرمنطين ينحدر أغرمان الذين في عداد الحراطين، وأغرمان الذين ذكرهم لنا بعض الباحثين كفئة من الولف[164].
وأما القنورية (كما ورد اسمهم عند ابن خلدون والقمنورية عند الإدريسي تصحيف)، فلهم علاقة بأكنون (ساكني غرب السنغال وغرب موريتانيا قديما الذين ينحدر منهم الولف، وتفصيل أمر أكنون مذكور عندنا في مسار تاريخ الولف)؛ فالقنورية كما ترجح لدينا هي سمة الملك في دولة قديمة لأكنون هؤلاء.

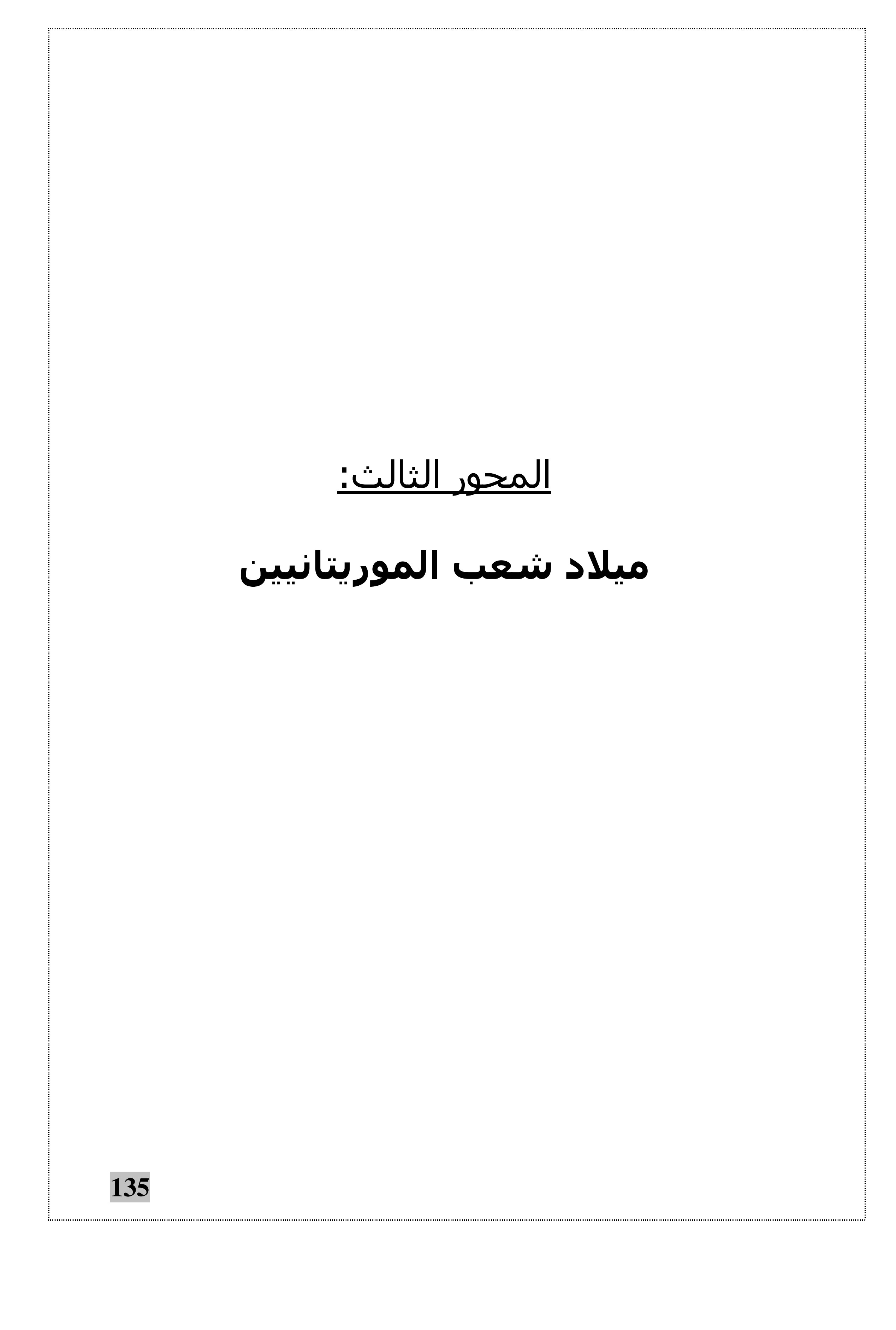
ثالثا: أحفاد قنورية .. من هم؟

لنا أن نتساءل من هم المنحدرون اليوم من القنورية.
ومما يدور بخلدنا بخصوص ذلك أن لدينا روايات موثوق بها حول قبيلة كِنار (بكاف معقودة) المعروفة اليوم بمنطقة القبلة، تفيد بأن أسلافهم كانوا قديما يسكنون منطقة تيجريت بالشمال، ثم انزاحوا تدريجيا نحو الجنوب مؤسسين إبان ذلك قصورا عديدة، البعض منها لا يزالون هم ساكنيه وإلى اليوم؛ نقل ذلك مثلا عن بعض عدولهم العلامة الشيخ سيدي بابه رحمه الله (في كتابه حول تاريخ إمارتي إيدوعيش ومشظوف). وهناك رواية القبائل البيضانية المنتسبة إلى الشريف بوبزوله، كما اشتهرت من خلال منظومة للعالم حيمد بن انجبنان رحمه الله من بني أعمر اكِدبجه من بني الشريف بوبزوله، وهي رواية تعد من حفدة الشريف بوبزوله: فالات كِنار. لذلك ففالات كنار بمقتضى الجمع بين الروايات هم سلالة شريفة عرفت بفالات واشتهرت بإضافتها إلى كِنار لسكناها

[164] سمعنا ذلك عند أستاذنا السالك ولد محمد المصطفى حفظه الله، مسئول في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، تخصصه الروايات الجمعية الشفوية.

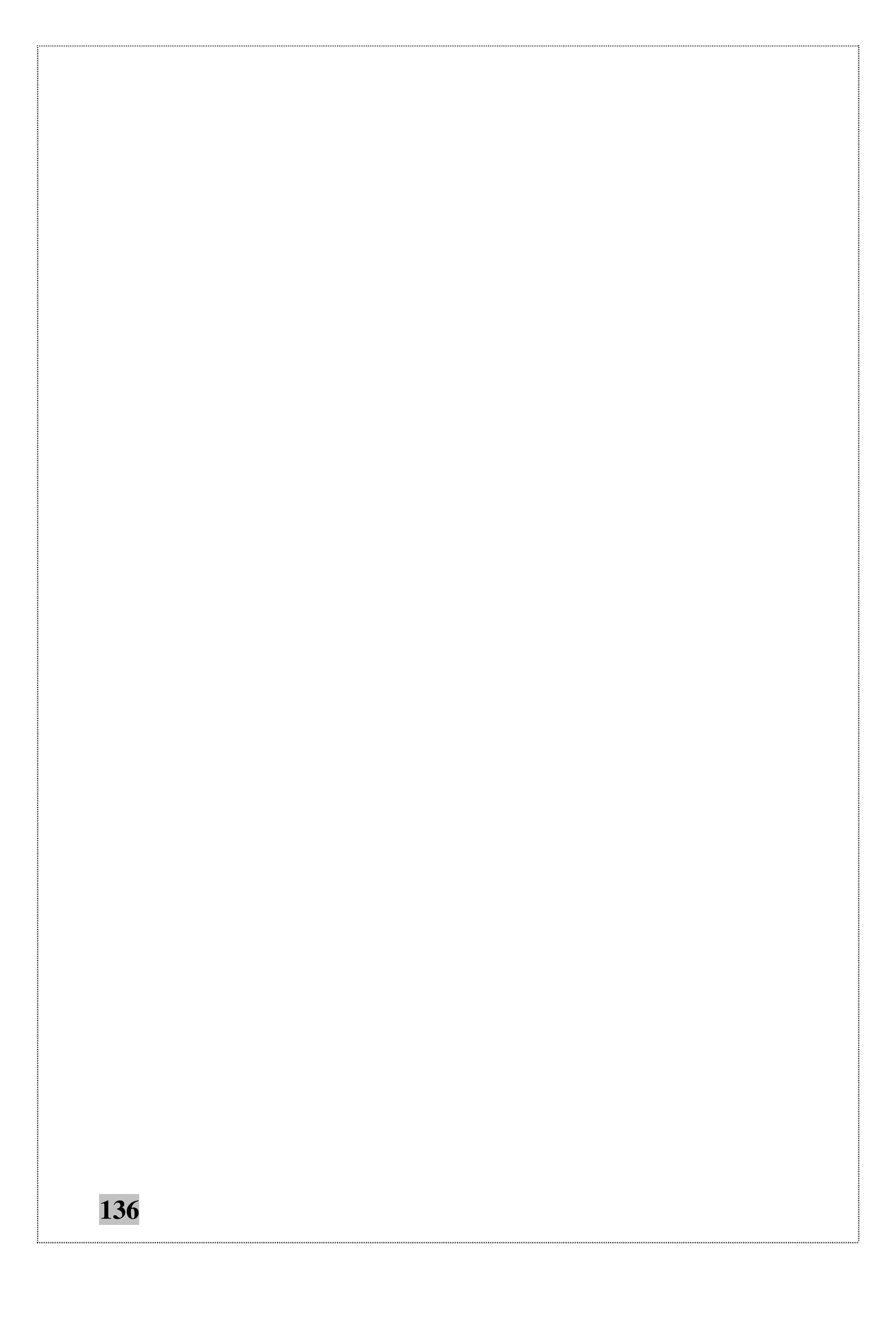
وتوطنها فيهم. ولدينا ما يرويه المختار ولد حامد رحمه الله في جزء الجغرافيا من موسوعته من أن بئر تن ابراهيم بتيجريت منسوبة إلى إبراهيم الذي هو أحد أسلاف كنار (قلت: أي أحد أسلاف فالات كِنار تدقيقا).
ورغم التوافق الكبير بين المجالين القديمين لسكن كل من شعب القنورية وقبيلة كِنار، ورغم التشابه بين اللفظين، فإننا -وفق منهجنا المقتضي أن لا نحدث عن قبيلة إلا بما تحدث به عن نفسها- لا نستعجل بالجزم بأن مجتمع كِنار المعاصر هو امتداد لمملكة قنورية القديمة، فلا بد لنجزم بهذا الطرح أن يوافق ما لدى عدول كِنار من روايات داخلية، وأن يطمئنوا إلى عدم مخالفته لرواياتهم[165].
والله الموفق لما فيه الصواب. والله أعلم.

[165] فائدة: يطلق على منطقة شمال نهر السنغال مما يلي شمامه اسم كنار وعرضها شمالا نحو من 70 كيلومترا على ما أذكر. ومن ذلك جاءت تسمية الولف للبيضان ب "نار كنار" أي البياضين القادمين من إقليم كنار، وعليه قاسوا في تسميتهم للبنانيين بنار بيروت، بمعنى البياضين القادمين من بيروت.



المحور الثالث:

ميلاد شعب الموريتانيين



1 نماذج من التاريخ المشترك

1.1 للمؤرخين كلام بناء..

عن الرئيس المختار ولد داده رحمه الله

استطرد الرئيس المختار بن داداه رحمه الله في مذكراته كلاما بليغا، قال إنه زوده به - أيام الاستقلال- المؤرخون من أمثال المختار ولد حامد رحمه الله؛ أولئك "الذين يستعرضون العلاقات بين المجموعات في الماضي بصورة بناءة ومشجعة على التعايش بين المكونات العرقية لشعبنا"، وفق تعبيره. يقول الرئيس المختار ولد داداه رحمه الله:
" وكان هؤلاء (=المؤرخون) يذكروننا بأن سكان موريتانيا بيضا وسودا ظلوا قبل دخول الفرنسيين يتعايشون بصورة طبيعية في الظروف التي كانت سائدة في ذلك العصر، وهو أمر تؤكده المصادر المكتوبة والمروية، ولم تكن الحروب التي شهدتها المنطقة حروبا عرقية. ويلاحظ مؤرخونا أن الحروب التي كانت تقوم بين البيضان والسودان تكون في الغالب نتيجة تحالف الطرفين مع مجموعة ثالثة بيضانية أو سودانية. فأهل سيدي محمود، على سبيل المثال، في العصابة وكوركول، كانوا متحالفين مع طائفة من السونينكي تارة ضد بقية السونينكي وتارة ضد بعض قبائل البيضان وأحيانا ضد تحالف مكون من المجموعتين. وفي كوركول كان النظام نفسه موجودا بين التكرور والبيضان من لتامه وأهل سيدى هيبه. وفي البراكنه كان أولاد نغماش وسكان لاو بقيادة أسرة " وان" يشكلون تحالفا مع أولاد السيد وسكان تورو بقيادة أسرة" كان" . وحدث الشيء نفسه بين هلبيه في بوكي وأولاد أحمد. وإذا اتجهنا غربا إلى الترارزه نجد أن أولاد أحمد بن دامان كانوا حلفاء للولوف في والو، وكان الزواج بين المجموعتين شائعا، ومن أشهره زواج الأمير محمد الحبيب بالأميرة جمبت أميرة والو التي أنجبت الأمير على بن محمد الحبيب أمير الترارزه فيما بعد ..." [166].

2.1 اسم موريتانيا

"في دجنبر 1899، أطلق كبولاني اسم (**موريتانيا** الغربية) ...
ثم حل هذا الاسم تدريجيا محل أسماء أخرى عرفت بها البلاد"[167].

3.1 مقاومة المحتل

---

166 نقلا عن مذكرات الرئيس المختار ولد داداه، مسودة ألكترونية متداولة، لم يبلغنا نفي صحة ما فيها.

167 نقلا عن الموقع الرسمي www.mauritania.mr، مع اختصار.

لا يحسبن امرؤ أن "تراب البيضان" "ولا كيدي ماغا" ولا "فوته" ولا "والو"، كانت غنيمة باردة للمحتل الفرنسي.
بل تُحسب لكل الموريتانيين أدوار مهمة في مقاومة المحتل بكل ما آتاهم الله من قوة[168].
لقد جاهدوه أولا بالبنادق والخناجر عيانا جهارا؛ فقد "استمرت المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي إلى سنة 1354هـ (1934م). ولا تكاد تخلو سنة من عدة أيام أو عدة غارات ضد الجيش الفرنسي أو المراكز التي تقيمها فرنسا"[169].
ثم لما قلت أعداد المحاربين وصعب التسلح، قاوم الموريتانيون المحتل مقاومة ثقافية.
وبعد ذلك نازعوه أمر السلطة على البلاد بالسياسة، حتى مكن الله لهم وأخرجوا المحتل لا يلوي على كثير.

2 الاستقلال

1.2 استقلال بالسياسة ..

عن المؤرخ المختار بن حامد رحمه الله

يقول العلامة المؤرخ المختار بن حامد رحمه الله:
في سنة 1376هـ/1945م بعد الحرب العالمية الثانية منح دستور الجمهورية الفرنسية الرابعة لبلدان ما وراء البحار حق تمثيلها في المجالس الفرنسية، فمثلت موريتانيا بنائب في البرلمان الفرنسي ومستشارين في المجلس الوطني وانتخب أحمدُ بن حرمة بن بابانا العلوي نائبا (1946-1950م)، ثم سيدي المختار بن يحي انجاي (1951-1955م)، وقد أعيد انتخابه سنة 1956هـ.
وفي سنة 1957م أحدث الدستور الفرنسي ما سُمي بالقانون الإطاري لبلدان ما وراء البحار فتأسست الحكومة الموريتانية وعلى رأسها بالنيابة الأستاذ المختار بن داداه.

---

[168] من أسماء قادة المقاومة على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ ماء العينين، بكار ولد اسويد أحمد، ، أحمد شيخو، عبدول ببكر كان، سيد بن مولاي الزين الشريف، سيد أحمد بن أحمد عيده، الحاج ممدو الأمين درامي، أحمد بن الديد، الشيخ سيدي محمد بن عبد العزيز بن إبراهيم بن حامني الغلاوي، الشيخ الولي بن الشيخ ماء العينين، محمد لغظف بن الشيخ ماء العينين، وجاها بن اعلي الشيخ، محمد المأمون بن اعلي الشيخ، محمد عبد الله بن عبد الوهاب القلقمي، ...(نقلا عن المختار ولد حامد عبر كتاب التاريخ السياسي، وعن الدكتور محمد المختار ولد السعد روايةً مباشرةً).

[169] نقلا عن المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص 230.

وفي سنة 1958هـ أتاح دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة لموريتانيا حق تقرير المصير، فأعلنت في 28 نوفمبر 1958م استقلالها الداخلي وصادق المجلس الوطني على ذلك في 22 مارس 1959 وأنشئت لجنة دستورية.
وفي 17 مايو انتخب أول مجلس وطني في عهد الاستقلال ومنح في 23 يونيو ثقته للأستاذ المختار بن داداه بوصفه رئيسا للحكومة التي تشكلت في ما بعد 26 يوليو.
*وفي **28 نوفمبر سنة 1960** أعلنت الجمهورية الإسلامية الموريتانية استقلالها التام، وانتخب المختار بن داداه رئيسا في 20 أغشت 1961. وفي 27 أكتوبر انضمت موريتانيا إلى حظيرة الأمم المتحدة*[170].

2.2 لحظة إعلان الاستقلال ..

عن الرئيس المختار بن داداه رحمه الله

يقول الرئيس المختار بن داداه رحمه الله:
.... لقد تطرقت سابقا إلى بعض المشكلات التي كان علينا أن نحلها في إطار التهيئة المادية والقانونية لإعلان استقلالنا، وفيما يخص الاستعدادات المادية لا أعتقد أنني بحاجة إلى التذكير بصعوبة الظروف المادية المتعلقة بالعاصمة نواكشوط. وسأكتفي هنا بإيراد مثال واحد من بين أمثلة كثيرة كان يمكن ذكرها في هذا السياق، وهو أنه لإكمال المباني التي ستؤوي البعثات الأجنبية، كان على بعض المؤسسات التي تقوم بالبناء أن تعمل أربعا وعشرين ساعة يوميا خلال عدة أسابيع. وفيما يتعلق بالناحية التشريعية كان علينا أن نراجع دستور 22 مارس 1959. وقد باشرت الجمعية الوطنية إجراء هذه المراجعة يوم 26 نوفمبر بالمصادقة على قانون يشتمل على مادة وحيدة وهي أن " رئيس الدولة، رئيس السلطة التنفيذية هو الوزير الأول، ولديه كافة الصلاحيات والرتب المرتبطة بهذه الوظيفة" . أما فيما يتعلق بالمجال الدبلوماسي فكان علينا القيام بعمل ثنائي بين الحكومة الفرنسية والحكومة الموريتانية، لكي نتمكن من إعلان الاستقلال وهو تبادل وثائق المصادقة على اتفاقية نقل السلطات. وتقرر أن أوقع أنا والوزير الأول الفرنسي ميشيل دبري على هذه الشكلية القانونية الأساسية في نواكشوط يوم 27 نوفمبر، على أن يقوم ميشيل دبري بتمثيل بلاده في احتفالات إعلان الاستقلال. وهي الحالة الوحيدة التي مثل فيها رئيس الوزراء الفرنسي بلاده في احتفالات إعلان الاستقلال.
***وهكذا أعلنتُ يوم 28 نوفمبر** عند منتصف الليل استقلال بلادي بمحضر ثلاثة وثلاثين وفدا جاءت من القارات الخمس. وقد حضر جميع رؤساء الدول التي كانت تضمها المجموعة الفرنسية الإفريقية، وهم على التوالي الرؤساء: فليكس هفوت بونيي رئيس ساحل العاج، وليوبولد سدار سينغور رئيس السينغال، وفيليبر تسيرانانا رئيس مدغشقر، وليون مبا رئيس الغابون، وديوري هماني رئيس النيجر، وإيبير ماكا رئيس الداهومي (بنين فيما بعد)، وموريس ياميوكو رئيس فولتا العليا (بوركينا فاسو الحالية)، وآبي*

---

[170] الموسوعة، التاريخ السياسي، ص 235-236.

فيلبير يولو Abbé Filbert Youlou رئيس الكونغو، وفرانصوا تومبلباي رئيس اتشاد، ودافيد داكو رئيس جمهورية وسط إفريقيا.

(...)

وتم إعلان الاستقلال في عنبر كبير تمت تهيئته لهذا الغرض لكنه لم يستوعب سوى ضيوفنا وأهم الشخصيات الرسمية الوطنية. وكانت التجهيزات الكهربائية التي تمت بشكل تقليدي جدا مصدر إزعاج لنا في ذلك الحين. فتوقُّفُ المولد الكهربائي الوحيد الذي يضيء المبنى، كان سيسبب لنا إزعاجا كبيرا وسيصيب الحاضرين الأجانب والموريتانيين بارتباك كبير، ...

(...)

وتمت الاحتفالات في ظروف ممتازة وفي أجواء أنست ضيوفنا ما افتقدوه من وسائل الراحة والأمن لدينا. فأعلنت، وقد أخذ مني الحماس والغبطة كل مأخذ، كما هو متوقع، استقلال بلادي قائلا:

" ها قد تحقق الحلم الذي طالما راود كل موريتاني وموريتانية، وفي هذه العاصمة الوليدة أدعوكم إلى الاعتراف برمز الإرادة لشعب كله ثقة بمستقبله" .

وفي اليوم ذاته وجهت برقية إلى الأمين العام للأمم المتحدة أطلب فيها قبول بلدنا في هذه المنظمة الدولية[171]*.*

---

[171] نقلا عن مذكرات الرئيس المختار ولد داداه، نسخة ألكترونية، بتصرف يسير لم يتعد الاختصار.

جدول التحويلات بين التاريخين الهجري والميلادي

من الهجري .. إلى الميلادي	
مطلع القرن الهجري	المقابل بالميلادي
1هـ	622م
101هـ	719م
201هـ	816م
301هـ	913م
401هـ	1010م
501هـ	1107م
601هـ	1204م
701هـ	1301م
801هـ	1398م
901هـ	1495م
1001هـ	1592م
1101هـ	1689م
1201هـ	1786م
1301هـ	1883م
1380هـ الاستقلال	
1401هـ	1980م

من الميلادي .. إلى الهجري	
مطلع القرن الميلادي	المقابل بالهجري
701م	82هـ
801م	185هـ
901م	289هـ
1001م	392هـ
1101م	495هـ
1201م	598هـ
1301	701هـ
1401م	804هـ
1501م	907هـ
1601م	1010هـ
1701م	1113هـ
1801م	1216هـ
1901م	1319هـ
1960م الاستقلال	
2001م	1422هـ

المختار ولد كاكيه - مهندس وباحث

مولود سنة 1970 – بنواكشوط.



التكوين والمسار المهني :

1996: دبلوم مهندس من جامعة هانوفر للعلوم التطبيقية Fachhochschule Hannover بألمانيا.

1996 – 1998: عمل بشركات ألمانية.

1998 – 2000: مدير عام صحيفة رجل الشارع بموريتانيا.

2000 – 2004: مسؤول تصدير بشركة ألكو بالإمارات.

2005 – 2007: مدير تطوير الأعمال بشركة بي بي جي بالإمارات.

2009 – : مدير تنفيذي لمؤسسة Orbit sarl للاستشارات بموريتانيا.

تجربة البحث العلمي :

** لغات البحث: العربية، الفرنسية، الإنكليزية، الألمانية، (اللهجة الصنهاجية).*

** من البحوث المنجزة:*

مدونة في أنساب إيدكباله (التندغيين) – 2006.

نشأة الأدب الحساني في بلاد شنقيط - 2007.

مجمل تاريخ الموريتانيين – 2007.

مقدمة في تاريخ تندغه - 2009

للمراسلة :

mouldgaguih@gmail.com

ص. ب. 6795 – نواكشوط.